الحســـد

فى القرآن الكريم

بين الحقيقة والأسطورة

تأليف

الدكتور / محمد شامة

الطبعة الأولى
١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م

يطلب من : مكتبة شامة
ميدان حلمية الزيتون
برج الفهيم - القاهرة
ت : ٢٤٢٩٢٩١

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قل أعوذ برب الفلق * من شر ما خلق * ومن شر غاسق إذا وقب * ومن شر النفاثات فى العقد * ومن شر حاسد إذا حسد ﴾ .

صدق الله العظيم

الإنتاج العلمى
للأستاذ الدكتور محمد شامة

- بين الإسلام والمسيحية (تحقيق) .
- بحوث فى عالم الأديان .
- الإسلام قوة الغد العالمية (مترجم من الألمانية) .
- الإسلام فى الفكر الأوربى (عرض وتحليل لكتاب الإسلام قوى عالمية متحركة) .
- الخطر الشيوعى فى بلاد الإسلام .
- أثر البيئة فى ظهور القاديانية .
- الإسلام كما ينبغى أن نعرفه .
- الإسلام دين ودولة .
- فى رحاب القرآن .
- الإسلام طهارة ونقاء .
- حقائق عن نظام الحكم الشيوعى (مترجم من الألمانية) .
- الحسد فى القرآن الكريم بين الحقيقة والأسطورة .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمــة

تزدهر الحضارة عندما تتفجر طاقات الإنسان عن طريق مشاهداته لظواهر الكون ، وملاحظاته لمكونات الطبيعة ، واستكشافاته لأطوار المادة وخواصها ، بالإضافة إلى رغبته فى الإبداع ، وميله إلى اختراع الجديد فى كل مجالات الحياة ، وطموحاته الواسعة فى التغيير والتبديل ، ونزوعه إلى تطوير كل ما تقع عليه عينه كلما أمكن ذلك . وبتعبير آخر : كلما نفر الإنسان من الجمود ، وكره التقوقع داخل الأطر الثابتة ، وخلف المسلمات المتجمدة ، فهو لا يعترف بالسكون العقلى ، ولا يقر البيات الفكرى ، ولا يسلم بالمقولة الشائعة :

« ليس فى الإمكان أبدع مما كان »

ولا يوافق على ما يردده الضعفاء والكسالى من أن الأولين لم يتركوا للآخرين شيئا ، لأنه يؤمن بأن كثيرا من أسرار الكون لا زالت خافية ، فيجب على الإنسان الاستمرار فى البحث عنها ، ويعتقد بأن التطور لا يُعرَف له نهاية ، فينبغى عَلى المرء ألا يقنع بما وصل إليه ، فيركن ويسكن ، لأن هذا هو الجمود بعينه ، والجمود موات .

فإذا أرادت المجتمعات أن تعيش عصرها ، فعليها أن تدفع أبناءها إلى :

- تطوير ما ورثوه عن الأولين ...
- ومحاولة الإبداع فيما عجز عنه السابقون ...
- وإرادة التغيير فى كل مجال يكون التغيير فيه دافعا إلى التقدم والرقى ...

حتى يأخذ المجتمع مكانه فى مسيرة الأمم والشعوب ، ويتبوأ مركزه اللائق به فى ساحات الصراع البشرى ، حيث يكون الإبداع ، والإنتاج ، والتطوير هو اللغة الوحيدة للتفاهم ، والتعاون بين المتصارعين والمتنافسين على المسرح الدولى .

ولا يتحقق ذلك للإنسان إلا إذا توافرت عدة عوامل ، من أهمها :

١ - وجود المناخ الفكرى الذى يساعده على الانطلاق فى آفاق الكون ، واقتحام مجالات النفس الإنسانية ، لفك الأغلال التى تقيدها ، وإزاحة الحواجز التى تعرقل انطلاقها .

٢ - توافر النظام السياسى الذى يشعر الإنسان فى ظله بإنسانيته ، ويحس بكرامته على النحو الذى يهيىء له الظروف المساعدة على الإبداع والابتكار .

٣ - منهج دراسى لا يقوم على الحفظ والتلقين - اللذين يسهمان إلى حد كبير فى مسخ الإنسان ، بحيث يصبح غير قادر على شىء ، إلا ترديد ما يسمع ، وتقليد مايرى - ، بل يكون له من المقومات ما يساعد على استكشاف قدرات الأفراد ، وتفجير طاقاتهم الذاتية ، وتوجيههم إلى الإستقلال فى التفكير ، وتشجيعهم على التجديد ، والتطوير ، والاستحداث .

٤ - غرس حب الثقافة ، والميل إلى الإطلاع ، والنزوع إلى معرفة الجديد ، وذلك عن طريق رصد المكافآت ، وتدعيم الحركات الثقافية ماديا ومعنويا ، وتكريم كل مبدع ، سواء كان ذلك على مستوى الأفراد ، أو فى إطار مساندة المؤسسات الفكرية ، والجمعيات الثقافية ، ومعاهد البحث ودور التعليم ، مهما كان وضعها ، وفى أى مستوى اجتماعى كانت درجتها ومكانتها فى المجتمع .

٥ - الانفتاح على الثقافة العالمية « الجادة » بحيث لا يُسمح بوضع أى قيود عليها ، ولا تُعرقل تيارات تدفقها ، تحت أى ظرف ، مهما كانت أسبابه ، فتُفتح قنوات الاتصال على مصراعيها ، وتُمد كل الجسور الموصلة إلى منابع جميع ثقافات المجتمعات البشرية ، بصرف النظر عن اختلاف مناهجها ، وتنوع مضامينها ومحتوياتها .

٦ - وأخيرا - وهو الأهم - وجود العقيدة التى تشجع على التعليم والتعلم ، فترتفع بذلك حواجز الوهم بعداوة الدين للعلم ، ويسقط تعلل الكسالى بخطورة الانفتاح الثقافى على مبادىء الدين وتعاليمه ، وحجج العجزة بأن فى الانطواء على الذات حماية للشباب ، وصونا للأخلاق والآداب .

ومما لا شك فيه أن الإسلام يهيىء للمسلم هذه العوامل ، بل يدفعه دفعا إلى إقرارها ، فضلا عن دعوته إلى الإسلام بكل ما يملك فى تحقيقها ورعايتها ، والحفاظ على استمراريتها وفعاليتها فى المجتمع ، فهو :

- يدعو إلى التفكير والنظر فى كل ما تقع عليه حواس الإنسان ...
- ويشجب التقليد والجمود على ما كان عليه الآباء والأجداد ...
- ويحث على التعليم والتعلم دون التقيد بفترة عُمْرية : اطلب العلم من المهد إلى اللحد » ...
- ويُرَغِّب فى الحصول على المعرفة ، مهما كان مصدرها ، وعلى أى شكل كان مضمونها : « اطلب العلم ولو بالصين » و « الحكمة ضالة المؤمن ، أنَّى وجدها فهو أحق بها » .

بل إنه لا يسوى بين العالم والجاهل :

﴿ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾[1] .

﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾[2] .

ويحافظ على كينونة الإنسان وذاتيته ، وذلك بحفظ حقه فى الحياة ، والعمل ، وإبداء الرأى ...

بل إنه توعَّد من يجبن فيتقاعس عن إبداء رأيه ، خوفا من بطش حاكم ، أو جبروت طاغية بالعذاب الأليم :

﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا ﴾[3] .

وصَوَّر حياة من يخشى على نفسه ، أو ماله ، أو جاهه ، فيكتم ما بنفسه ، ولا يفصح عن رأيه فى مواجهة الظالمين ، بأنها حياة لا فائدة فيها ، والموت خير منها ، يقول رسول الله ﷺ :

« إذا هابت أمتى أن تقول للظالم : يا ظالم ! فبطن الأرض خير لهم من ظهرها » .

وعلى الرغم من هذا ، فقد انحدر الفكر الإسلامى انحدارا عجز معه عن مواكبة العصر ، وكان جموده على النصوص مستحكما ، بحيث لم يستطع فقط إعمال العقل فى فهمها وتفسيرها ، بل ردد ما قاله الأولون ، حتى وإن عارضته نصوص صريحة ، إذ ظل يعلل ، ويحاور ، ويداور ، لإثبات أن رأى السابقين صحيح ، وذلك بتأويل تعارضها مع هذه النصوص ، فبدت وكأنها نصوص مقدسة ، لا آراء أناس خضعوا لثقافات معينة ، وشكلت عقلياتهم ظروف اجتماعية ، نشئوا فى ظلها ، وتشبعوا باتجاهاتها ...

وقد يكونون متشبعين بثقافات لا تتفق وروح الإسلام ، ولا تنسجم مع تعاليمه ، وليس بينه وبينها صلة ، سوى أنها صبغت بصبغة إسلامية مستعارة ، وتدثرت بدثار إسلامى ، فبدت وكأنها إسلامية المنبع ، لا يحيد عنها - هكذا قالوا - إلا من ضعف إيمانه .

وقد يصل الأمر بمن يبين جذورها الوثنية ، ومضمونها المتعارض مع مبادىء الإسلام وتعاليمه أن يرميه أصحاب العقول المتحجرة بأنه ينكر الأحاديث النبوية ، مع أن عمله لم يكن إلا دفاعا عن رسول الله ﷺ ، وتنزيها له مما ينسب إليه من

(١) سورة الزمر : الآية ٩ .

(٢) سورة المجادلة : الآية ١١ .

(٣) سورة النساء : الآية ٩٧ .

أقوال كاذبة ، تصوره أمام العقلاء ، وفى ظل المجتمعات المتقدمة ، على أنه كان واحداً من أولئك الكهان والسحرة ، الذين ظهروا فى المجتمعات الإنسانية على امتداد التاريخ ، لأنَ نسبة هذه الأقوال - التى تتنافى مع العقل والمنطق ، وتتصادم مع أبسط القواعد التى تنظم الحياة الإنسانية ، وأكثرها وضوحا ، وسدادا ، وصحة - إليه ، تحط من وضعه ، وتقلل من قدره كرسول أوحى إليه من الله ، الذى اصطفاه ، ورباه ، وعلمه ، فأصبح :

- لا ينطق عن الهوى .
- ولا يتفوه بأقوال الكهان والدجالين .
- ولا بكلمات المشعوذين .
- ودعاة الإفك والبهتان .
- الذين تثبت الأبحاث كل يوم كذبهم وضلالهم .
- وتوضح معطيات العصر .
- وهن تصورهم .
- وتهالك ما ينبئون به عن الحياة وأسرارها .
- وخطأ تفسيرهم للطبيعة ومظاهرها .

ولن ينهض الفكر الإسلامى إلا بتصفيته مما لحق به من الوثنيات الأولى ، وتنقيته من معتقدات الشعوب البدائية ، ومسلمات عصور ما قبل التاريخ ، التى أثبتت الأبحاث خطأها ، وبينت التجارب العلمية أنها خرافات ، آمن بها الإنسان الأول تحت ضغط رهبة الطبيعة ، وأحوالها المخيفة ، وتقلباتها المدمرة ، وبدافع الخوف من معبوده الجبار ، وأعوانه الأشداء ... وساعد على انتشارها عجزُه عن الوصول إلى معرفة أسباب ما يحيط به من ظواهر وآثار ، وما يكتنف حياته من أسرار ، لا يستطيع تفسيرها بمنهج عقلى ، ولا توضيحها بأسلوب منطقى .

كان دخول الكثير من هذه الخرافات إلى الفكر الإسلامى فى فترات ضعفه ، حيث عجز عن إدراك ما يميز إشارات القرآن الكريم الواضحة فى مجال الطبيعة وآفاق الحياة الإنسانية عن خرافات المجتمعات البدائية وأساطيرها حول الكون وأسراره ، فسلم بها - أى بالخرافات - ، ثم طفق يبحث لها عن رداء إسلامى ، يغطى به عوراتها الوثنية ، ودليل قرآنى ، يؤوله ، كى ترتكز عليه فى تغلغلها فى عقول المسلمين ، فتتمكن من أفئدتهم ، وتسيطر على مشاعرهم ، فيحافظون عليها ، كما لو كانت مسلمات إسلامية ، ويدافعون عنها دفاعهم عن آيات القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول ﷺ .

ومن أمثلة ذلك :

١ - عن ابن عباس : « خلق الله الأرض على حوت ، والحوت هو النون الذى ذكره الله فى القرآن ﴿ ن * والقلم وما يسطرون ﴾ ، والحوت فى الماء ، والماء على صفاة ، والصفاة على ظهر ملك ، والملك على صخرة ، والصخرة فى الريح ، - وهى الصخرة التى ذكرها لقمان - ليست فى الأرض ولا فى السماء »(١) .

٢ - عن مجاهد قال : « كان يقال : النون : الحوت العظيم التى تحت الأرض السابعة ، وقد ذكر البغوى رحمه الله ، وجماعة من المفسرين : أن على ظهر الحوت صخرة ، سمكها كغلظ السموات والأرض ، وعلى ظهرها ثور ، له أربعون ألف قرن ، وعلى متنه الأرضون السبع ، وما فيهن ، وما بينهن »(٢) .

٣ - أخرج أحمد ، والترمذى ، والنسائى عن ابن عباس قال : أقبلت اليهود إلى النبى ﷺ ، فقالوا : أخبرنا عن الرعد ، ما هو ؟ قال : « ملك من ملائكة الله ، موكل بالسحاب ، بيده مخراق من نار ، يزجر به السحاب ، يسوقه حيث أمره الله » ، قالوا : فما هذا الصوت الذى نسمع ؟ قال : « صوته » .

٤ - وأخرج ابن مردويه ، عن جابر بن عبد الله : أن رسول الله ﷺ قال : إن ملكا موكلا بالسحاب ، يلم القاصية ، ويلحم الرابية ، فى يده مخراق ، فإذا رفع برقت ، وإذا زجر رعدت ، وإذا ضرب صعقت .

٥ - أخرج الشيخان عن أبى ذر قال : كنت مع النبى ﷺ فى المسجد عند غروب الشمس ، فقال : « يا أبا ذر ، أتدرى ، أين تغرب الشمس ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : « فإنها تذهب ، حتى تسجد تحت العرش ، فذلك قوله : ﴿ والشمس تجرى لمستقر لها ﴾ .

٦ - يعتقد كثير من « عامة » المسلمين - وكذلك أيضا غالبية « علماء » الدين - بأن للعين شعاعا ينبعث من عين الحسود إلى المحسود ، فيصيبه فى مقتله ، اعتمادا على « مرويات » ، اعتقد كثير من الناس فى صحتها ، فآمنوا بها ، ودافعوا عنها ، كما لو كانت مبدأ إسلاميا ، لا ينكره إلا من وهنت عقيدته ، وضعف إيمانه ، يقول ابن القيم :

« لا يستبعد أن ينبعث من عين بعض الناس جواهر لطيفة غير مرئية ، فتتصل بالمعين ، وتتخلل مسام جسمه ، فيحصل له الضرر .... لا ريب أن الله سبحانه خلق فى الأجسام والأرواح قوى وطبائع مختلفة ، وجعل فى كثير منها خواص وكيفيات

---

(١) تفسير الطبرى ج ٢١ ص ٤٦ .

(٢) ابن كثير ج ٤ ص ٤٠٠ - ٤٠١ .

مؤثرة ، ولا يمكن لعاقل إنكار تأثير الأرواح فى الأجسام ، فإنه أمر مشاهد محسوس .... ونفس العائن لا يتوقف تأثيرها على الرؤية ، بل قد يكون أعمى ، فيوصف له الشىء ، فتؤثر نفسه فيه وإن لم يره ، وكثير من العائنين يؤثر فى المعين بالوصف من غير رؤية .... وقد يعين الرجل نفسه ، وقد يعين بغير إرادته ، بل بطبعه .... »[1] .

وغير ذلك من المسلمات التى دخلت الفكر الإسلامى ، فأضعفته ، ونخرت فى عظامه ، حتى أصبح فريسة التخلف والجمود ، وصريع التيارات الفكرية المخدرة ، والأوهام الهلامية المغيبة للعقل ، فاسترخى ، ولم يعد له نشاط فعال فى عالم اليوم ، حيث تزمجر الأفكار ، وتتدفق فى كل اتجاه ، ويعلو صوتها فى جنبات الكرة الأرضية ، فتفيض نظريات علمية ، ومنجزات حضارية فى جميع ميادين الحياة .

لن ينهض الفكر الإسلامى ، وبالتالى لن يستطيع المسلمون التخلص من أخطبوط التخلف فى جميع ميادين الحياة ، إلا إذا تخلصوا من أوهام الوثنيات الأولى ، وضلالات الفكر البدائى ، عن طريق استخدام العقل فى فهم النصوص ، واتباع المنهج العلمى فى تقييم - وتفسير - الظواهر والمسلمات ، والالتزام بالمنطق الواضح فى نظرتهم إلى المعطيات المعاصرة ، وتعاملهم مع متطلبات الرقى والتقدم ، وسلوكهم ومواقفهم إزاء المجتمعات الإنسانية ، على اختلاف ثقافاتها ، وتنوع نظمها فى مجالات الحياة المختلفة .

ولن نصل إلى هذا الهدف بالدعاوى البراقة التى تملأ الساحة الفكرية فى المجتمعات الإسلامية ، لأن ذلك لن يؤدى إلى نهضة جادة فى مجال الفكر ، فهى لا تعدو أن تكون فقاعات ذات أثر خادع فى عقول العامة ، تتمثل فى ثورة عاطفية ، لا تلبث أن تخمد ، دون أن يكون لها تأثير فعلى فى تصحيح مسار أفكارهم ، وتقويم مسلماتهم على نحو يؤهلهم للإسهام فى بناء الحضارة ليتبوءوا مكانا بين الشعوب المتقدمة .

ولهذا ينبغى على قادة الفكر فى المجتمع الإسلامى أن ينهجوا نهجا جادا فى تصحيح مسار الفكر ، بعيدا عن الدعاية الإعلامية ، التى لا فائدة من ورائها سوى تخدير العامة ، وترضية لأنصاف المثقفين الذين لا يحسنون شيئا ، سوى حفظ وترديد ما قاله السابقون ، حتى وإن ناقض العقل ، وتصادم مع المنطق ، إذ سوف يظل المتخلفون يرددون مسلمات عفا عليها الزمن ، وهم متقوقعون على أنفسهم ، تاركين الساحة لغيرهم ، حيث ترسم معالم المستقبل ، ويحدد شكل البنية الثقافية والفكرية لحياة القرن الواحد والعشرين ، إن تقاعس المفكرون المسلمون ، فلم

---

(١) زاد المعاد جـ ٤ ص ١٦٥ - ١٦٨ .

يهزوا العقل الإسلامى ، لينهض ، وينفض عن نفسه أثقال الأفكار التى انحدرت إليه من الوثنيات الأولى ، ويتخلص من قيود المسلمات ، التى لا يقرها الإسلام - حيث لا نص صحيح وقاطع يدعمها - وإن تدثرت بثوب إسلامى ، حتى يلحق بركب الحضارة ، ويسهم مع المجتمع الدولى فى تخطيط ورسم معالم الحياة فى القرن القادم .

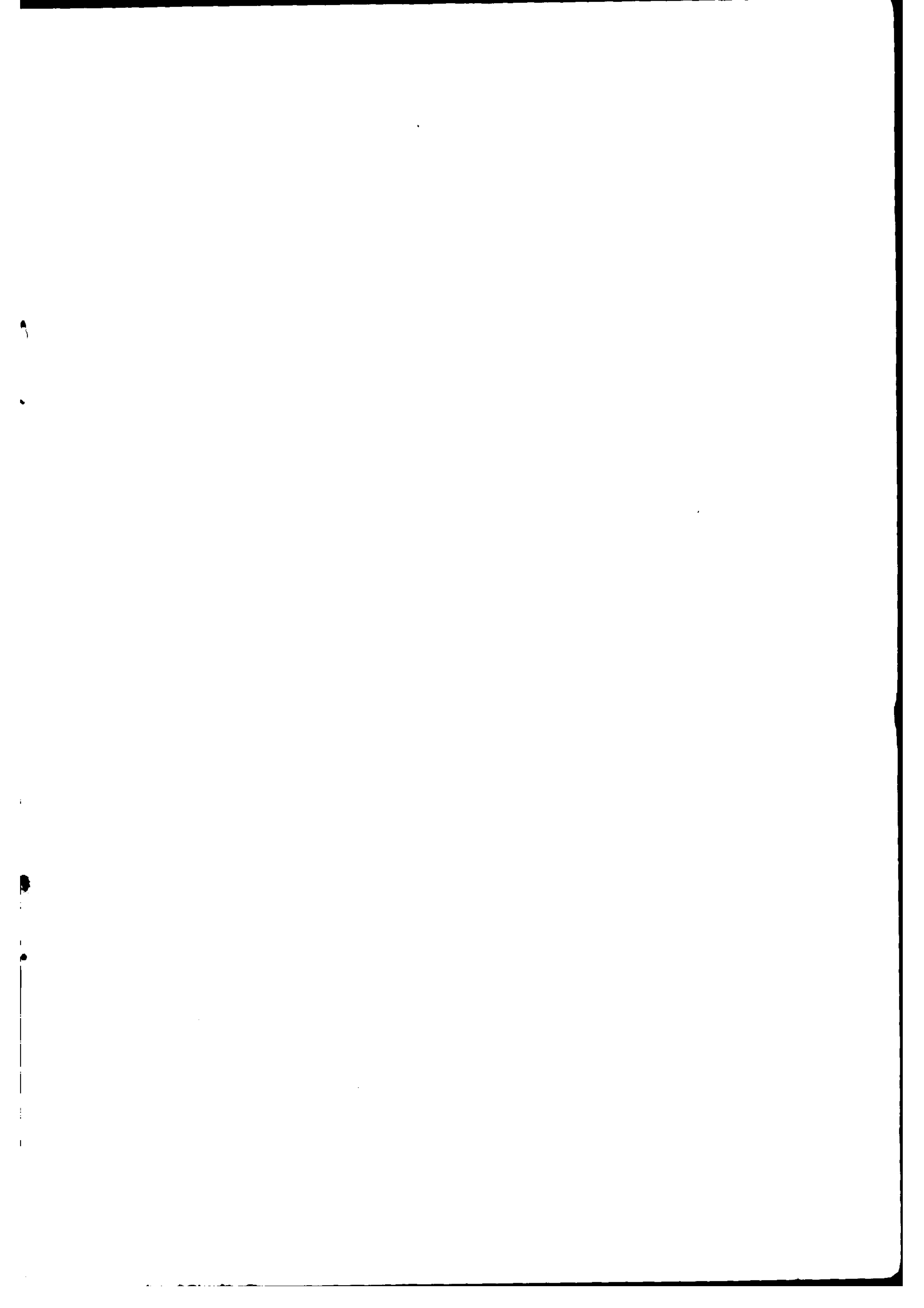
ومن هذا المنطلق اتخذنا ظاهرة الحسد مجالا نسهم به فى تصحيح مسار الفكر ، وتنقيته مما يعوق المجتمع عن النهوض ، حتى يلحق بركب الحضارة الإنسانية ، ويأخذ مكانه بين المجتمعات التى سبقته ، يوم أن تخلصت - إلى حد كبير - من الخرافات والأساطير التى أعاقت الإنسان عن التقدم ، ومنعته من الانطلاق ، بحثا فى آفاق الكون والإنسان .

وفقنا الله جميعا إلى ما فيه الخير لأمتنا فى دينها ودنياها .

إنه سميع مجيب

الدوحة فى ٨ جمادى الأولى ١٤١١ هـ

٢٥ نوفمبر ١٩٩٠ م — محمد عبد الغنى شامة



الفصـــل الأول

الحسد فى المجتمعات الإنسانية

الحسد في المجتمعات الإنسانية

أهمية العين :

تكتسب الأعضاء البشرية أهمية بمقدار ما تؤديه من خدمة للإنسان فى مجال الحياة الإنسانية ، سواء كان ذلك على مستوى الضرورات المادية التى يحتاج إليها المرء لاستمرار حياته ، أو تعلق بالجانب الروحى الذى يضفى عليه من السعادة والسرور ما يمكنه من الاستمتاع بما حوله من عناصر الحياة المختلفة .

فلو استعرضنا خدمات كل عضو من أعضاء الجسم ، وألقينا الضوء على ما يقدمه من منافع لوجدنا أن أقل خلية – بل أقل ذرة من ذرات الجسم – تقوم بوظائف عديدة فى مجال نمو الجسم ، وحمايته ، والدفاع عنه ، لدرجة أننا لا نستطيع أن نفضل عضوا على آخر ؛ فوظيفة كل عضو أمر حتمى ، وضرورى لتكامل الحياة ، فإذا استغنى الجسم عن وظيفة ما ، لخلل فى العضو ، أو قام عضو بوظيفة آخر على سبيل التعويض ، ظهر الضعف فى جسم الإنسان بمقدار هذا العجز ، وفقد الإنسان ما يقدمه له هذا العضو من خدمات ، بحيث يؤثر ذلك على أدائه فى عمله ، واستمتاعه بحياته ، حتى وإن حاول أن يعوض ذلك بطريقة أو بأخرى فى هذا المجال .

ولا تقوم أعضاء الجسم بوظائفها على الوجه الأكمل إلا عن طريق ما يربطها بالعالم المحيط بالإنسان ، لأن التفاعل بين الإنسان وبين ما يحيط به من أهم لوازم الحياة واستمرارها ، ولذا خلق الله منافذ تقوم بهذه المهمة .

وليس بلازم فى هذا المقام أن نتحدث عنها كلها ، بل سيقتصر الحديث عما يضم بحثنا تحت مصطلح واحد ، ألا وهو : الحواس ، إذ هى من بين

المنافذ التى تربط داخل جسم الإنسان بما حوله : الشم ، والتذوق ، والسمع ، والبصر ، واللمس ، فبدونها تنقطع صلة الإنسان بما هو خارج عنه ، فيفقد بالتالى الإحساس به ، فتصبح حياته عسيرة وشاقة ، لا يشعر فيها بلذة ، ولا يحس باستمتاع يرغبه فيها ، ومن أهم هذه الحواس : حاسة البصر ، فالعين جوهرة الخلق ، ودرة أعضاء الجسم ، فهى من أهم الحواس الخمس ، إن لم تكن أهمها ، ولذلك اتخذها الشعراء محور غزلهم ، والخطباء مدار مدحهم ، كما اهتم بها الفلاسفة ، فاعتبروها مقياسا للقدرة الخلاقة من بين القوى المنبعثة من أجهزة الإنسان .

كذلك ألهمت علماء الطبيعة بأجزائها المختلفة ، وتركيباتها البديعة ، وديناميكيتها فى نقل صور المرئيات إلى مراكز الإبصار فى الكائن الحى ، فاتخذوها مثالا - لا نظير له - فى ابتكار وتطوير أجهزة المناظير ، وآلات التصوير على اختلاف أشكالها وأحجامها .

ولم تحظ العين بهذا الاهتمام الكبير من العلماء والمفكرين على اختلاف تخصصاتهم واتجاهاتهم الفكرية ، إلا لما تقوم به من وظائف ذات أهمية كبيرة فى حياة الإنسان ، إذ كيف يمكننا الحصول على ما فى الكون من أسرار لا تحصى ولا تعد ، لو لم ينعم الله علينا بنعمة الإبصار ؟

فهل نستطيع أن نحس بجمال الطبيعة بدون العين ؟

أو هل كان بإمكاننا الوصول إلى استخراج ثروات الأرض ، أو الحصول على ما نحتاج إليه من الحيوان والنبات لو لم تكن لنا حاسة الإبصار ؟

ماذا يمكن أن يكون عليه الوضع فى مجال وعينا وإدراكنا إذا لم نستطع القراءة ، والكتابة ، والرسم ... أو إذا لم نستطع عن طريق أعيننا تكوين صور عن شكل ولون عالمنا الخارجى ؟

كيف يمكن أن يكون النشاط الفكرى فى مجالات تطور العلوم والفنون بدون العين ؟

وما هى الوسيلة الأخرى التى تساعدنا فى الوصول إلى أحكام صحيحة ومؤكدة فى جميع مجالات حياتنا ، وخاصة فى تقدير موقع ، ومسافة ، وحجم ، وشكل الأشياء المحيطة بنا ، وفى إدراك جوانب الجمال فيما نصنعه بأيدينا ، واكتشاف جوانب النقص التى يجب علينا تداركها ، كى تستمر حركة التطور نحو هدف الارتقاء والتقدم ؟

إن أقل ما يقال فى هذا الصدد :

كيف يمكننا الانتقال من مكان إلى آخر بدون العين ؟

وكيف نستطيع تخطى العقبات التى تصادفنا فى الطريق ، وتقدير المسافة عندما تعترض طريقنا هوة سحيقة تستلزم القفز من صخرة إلى أخرى ، أو من شاطىء إلى آخر ؟

الاعتقاد فى تأثير العين :

لا يوجد عضو يقوم بهذا الدور الهام والفعال فى حياة الكائن الحى ، سوى هذا العضو الصغير الذى يعرف باسم « العين » وقد كشفت الأبحاث العلمية فى العصر الحديث كثيرا من الجوانب الفسيولوجية والديناميكية لهذا العضو ، فاتجهت اتجاهات منطقية فى تفسير ما يقوم به فى مجال الإبصار ، ونقل الصور ، وتحديد أبعادها ، مما جعل الإنسان يدرك فاعليته بصورة تختلف عما كان عليه الاعتقاد فى العصور القديمة ، حيث كان العلماء ينظرون إلى العين ومجالات تأثيرها وتأثرها على أنها من الألغاز التى لا حل لها ، أما عامة الناس فلم يدركوا كنهها ، ولذلك فسروا تأثيرها تفسيرات أقرب إلى الأساطير منها إلى الجانب المنطقى الذى يقبله العقل ؛ فالشعوب البدائية اعتقدت أن العين تملك من القوى السحرية ما لا يمكن أن يتصورها إنسان ، فنسبت إليها سلسلة من القوى الغامضة ، ووصفتها بأوصاف تفصلها عن عالم البشر ، وترفعها إلى مقام لا يدانيها فيه إنس ولا جن ، فقد تكرر التعبير عن قواها السحرية وقدراتها الخارقة فى الأساطير الشعبية ، وفى الشعر وفى القصص آلاف المرات ، بأشكال مختلفة ، وصور متعددة ، دارت كلها حول تأثير العين بأنه قوة لا تقهر ،

فليس هناك من يستطيع منعه من الوصول إلى الهدف المقصود ، أو حماية الضحية منه .

ساد الاعتقاد فى الأزمان القديمة - ولا زال حتى اليوم عند بعض الشعوب ، وفى بعض الطبقات الاجتماعية - بأن السحر يخرج من العين ، ذلك السحر الذى له من القوة والسيطرة ما يمكنه من التأثير على عين أخرى ، بحيث لا يستطيع من تقع عليه إشعاع العين التخلص منه ، فيقع فريسة له ، وهذا ما يسمونه : السحر المرضى ، أى أن عينا ذات قوة خاصة توجه إشعاعها إلى شخص آخر فيخر صريع المرض .

كان الاعتقاد السائد لدى الشعوب البدائية أن سبب الأمراض التى تصيب الإنسان يرجع إلى قوى كبرى خفية ، قوى تفوق فى عنفوانها وسطوتها قوى الطبيعة المشاهدة ؛ إذ إن الإنسان البدائى الذى لم يعرف شيئا عن « البكتريا » و « الفايروس » وغيرهما من الكائنات الحية ، التى تسبح فى خلايا الجسم ، ولم يستطع اكتشافها ومعرفة نشاطها إلا بواسطة « الميكروسكوب » ، لم يكتشف أنها سبب المرض إلا بالآلات الحديثة التى ابتكرها الإنسان فى العصر الحديث ، وبالتالى لم يصل إلى علمه أنها تسبب الأمراض لجهله بوجودها . ولعدم قدرته على تصور العلاقة بين السبب والمسبب فى هذا المجال تصورا واضحا ، وعدم وضوح ارتباط الأثر بالمؤثر فى الظواهر التى تحتاج إلى تصور مؤثر غير مرئى لديه ، وجد عنده الاستعداد - الذى استغرق كل حواسه ، وتمكن من فكره تمكنا راسخا - فى أن ينسب كل ما يخفى عليه سببه إلى قوى خفية ، سواء كانت تلك القوى كائنات فوق الطبيعة ، مثل : الآلهة ، والشياطين ، والأرواح - وخاصة أرواح الموتى - فاعتقد أنها السبب فى المرض الذى يصيب الإنسان .

ومن هنا استخدمها أناس كوسيلة سحرية لإلحاق الضرر بالآخرين ، ولهذا اتجهت الأنظار إلى السحرة والساحرات خوفا منهم ، وتعلقت آمال المصابين طالبين الاستعانة بهم - بحكم اتصالهم بهذه الكائنات الخفية - للتخلص

من الأمراض[1] .

ومن الصور المعروفة فى هذا المجال – والتى لازالت منتشرة فى بعض المجتمعات التى لم تزل واقعة تحت تأثير المعتقدات القديمة حتى الآن – :

- تحضير الأرواح .
- والربط .
- والوشم .
- واستخراج الأعمال المدفونة وإحراقها – سواء كان ذلك شيئا يخص المريض ، أو تعلق بحرق شيء من الشعر وقصاصة الأظافر – وإذابة رمادها فى سائل ، يشربه المريض .. وغير ذلك من الصيغ والأشكال التى يمارسها الساحر ، ليوهم المريض أنه قضى على ما سبب له العلة ، وأنه سوف يشفى من مرضه[2] .

لا نريد الاسترسال هنا فى تحديد أنواع الممارسات السحرية وأشكالها ، وبيان حقيقتها وآثارها ، لأن موضوع بحثنا لا يتعلق بهذه المسألة تعلقا مباشرا ،

---

(١) يعتقد البدائى بوجود قوة مجهولة لدى بعض الزعماء ، أو الكجرة (انظر هامش (٢) فى ص (٢٣)، أو الحيوانات ، أو الأشياء التى يسميها الأنثروبولوجيون : قوة « المانا » ، فالبدائى يضع « قرنا » لثور فى مزرعته ، لاعتقاده أنه يحتوى على قوة غامضة من شأنها دفع العين الشريرة أو السحر ، فتنمو زراعته ، ويزيد إنتاجها ، كما يعلقون قرون الأنعام على مساكنهم ، لاعتقادهم أنها تطرد العين الشريرة .

(٢) اشتهر بين البدائيين أنواع عديدة من الممارسات التى تقى من الحسد ، حسب اعتقاده ، ومن أشهرها : تقديم القرابين للآلهة ، أو لأولئك الذين اعتقدوا أنهم يملكون من القوى ما يستطيعون بها درء هذه الشرور ، والآثام ، كالكجور ، والساحر ، والكاهن ، وغيرهم ممن أحاطوا أنفسهم بجو من الغموض والأسرار التى خاف البدائى منها ، فعمل على إرضائها ، لحمايته والدفاع عنه ، فقدم الهدايا والقرابين ، لضمان سلامته من العين الشريرة ، كما مارس من التقاليد والعادات ما اعتقد أنها تحميه من الحسد ، وتقيه من آثار العين الشريرة ، فقدم القرابين فى المناسبات المختلفة ، كشعائر الدفن ، والختان ، ونحر الأضحيات فى المناسبات : كسقوط الأمطار ، وموسم حصاد الإنتاج ، للوقاية من إصابة العين الشريرة . كما أقام بعض الطقوس عند ولادة التوءم وفى عيد ميلاده لمدة ثلاث سنوات متتالية ، مع الحرص على ألا يشم رائحة اللحم قبل إقامة الطقوس ، كى لا يموت . فإن حدث ومات الطفل ، فإنهم يعزون ذلك إلى فعل العين الشريرة ، أى الحسد . فتقديم القرابين تحمى الإنسان من المجهول ، وتقيه من السحر ، وتبعد عنه أثر العين الشريرة ، وتحصنه ضد الأمراض .

فهو ينصب فقط على الاعتقاد بأن للعين تأثيرا فى هذه الظواهر التى تصيب الإنسان ، فإذا جاء ذكر السحر فى حديثنا ، فهو من زاوية ما يتعلق بالممارسات السحرية التى يدعى الساحر أنها تشفى المريض مما أصابه من العين ، ولهذا سوف ينحصر حديثنا فى هذا المجال فقط ، ألا وهو ما تحدثه العين الشريرة – أو العين الصفراء ، كما يسميها من يعتقد فى تأثيرها الضار فى المرئى – فى الأشخاص والأشياء .

ومن المعتقدات الشائعة بين الشعوب البدائية – وكذلك فى أوساط قطاعات كبيرة من المجتمعات المتقدمة – أن من الناس – وأحيانا بعض الحيوانات أيضا – من يملك قوى يمكنها إلحاق الضرر بآخرين – سواء كان هؤلاء الآخرون : أناسا ، أو حيوانات ، أو نباتات ، أو أى شىء ، حتى ولو كان جمادا – بمجرد النظر إليه ، أو عن طريق إرسال شعاع العين إليه . كما يعتقدون أن لهذه العين ، التى تملك مثل هذه القوة ، صفات معينة ، مثل :

الغضب .

الحقد .

أو على النقيض من هذا ، كأن تكون مفعمة بالحيوية .

أولها من التأثير ما يأخذ بلب من يراها من فرط الإعجاب بها .

كذلك يعتقد المؤمنون بتأثير العين فى المرئى بأن النظرة الأولى كافية فى إلحاق الضرر بالمرئى ، وعادة ما تكون مصحوبة ببعض كلمات الثناء والمديح ، أو كلمات التعجب والاندهاش .

فالاعتقاد فى تأثير العين تأثيرا سلبيا على المرئى مرتبط بالتلفظ بكلمات التعجب ، أو بما يدل على انبهاره بهذا المرئى . فمدح جمال شخص – أو شىء – أو التعجب بما يملكه من صحة وقوة كاف لإلحاق الأذى به ، فإذا ما أصيب شخص – أو شىء ما – من جرَّاء التعجب ، أو الاستحسان بدون رؤية العين ، فلا يقع ذلك تحت تأثير العين – أى الحسد بالعين – بل يصنف تحت التأثير بالكلمات ذات المفعول السحرى . ومن هنا يكون الأذى نوعين :

الأول : بواسطة تأثير العين .

الثانى : عن طريق كلمات ذات تأثير سحرى ، تُلْحِق الأذى بمن دار الحديث حوله ، وإن لم يره ذلك الشخص الذى يعتقد البدائى أنه يملك هذا التأثير الضار .

فإذا مدح إنسان عند النظرة الأولى طفلا – أو تمنى أن يكون أطفاله مثله – لجماله ، وذكائه ، وحيويته ، لحق الضرر بذلك الطفل . وكذلك الحال فيما إذا مدح أو أُعجِب بحيوان ، أو بشىء ثمين ، وتمنى أن يكون له مثل ذلك الحيوان، أو أن يتملك هذا الشىء الثمين، فإن ذلك التصرف كفيل بإلحاق الأذى بالحيوان ، أو بذلك الشىء المرغوب فيه .

ارتبط اعتقاد الإنسان بالحسد بعوامل عدة ، من أهمها :

الجهل بأسباب الأحداث التى تقع فى محيطه ، وخاصة ما يتصل به اتصالا مباشرا ، كالمرض ، والموت ، والآفات التى تصيب ممتلكاته : كالأرض ، والزرع ، والحيوان ، والطير ، وغير ذلك من الأشياء التى يؤلمه ضررها أو فقدانها . فكلما أحس بالمصيبة ولم يجد لها تفسيرا أرجعها إلى قوى خفية ، ومن أشهر القوى التى ينسب الإنسان إليها هذه المظاهر :

– السحر .

– وما يملكه بعض الناس من إشاعات فى عيونهم ، تصيب من تراه فى مقتله ، وتلحق الخراب والدمار لممتلكاته .

ولهذا نجد هذا التفسير لمظاهر الأذى والضرر مسيطرا على تفكير ومشاعر الناس فى المجتمعات البدائية ، لدرجة أنه أصبح طاغيا على جميع مجالات النشاط الإنسانى فوجَّه السلوك ، وصاغ العلاقات بين الناس ، وتغلغل فى الطقوس الدينية ، فصار من شعائرها طقوس خاصة بدرء الحسد ، أو الوقاية منه ، أو التخلص من آثاره ، فضلا عن أنه أصبح محورا رئيسيا فى ممارساتهم المعيشية ، فطفقوا يؤدون أعمالا يومية ، حماية منه ، ودرءا لمخاطره ، كما أنه أثر كثيراً فى مجال أقضيتهم ومنازعاتهم ، إذ غالبا ما توجه التهمة إلى شخص بأنه ألحق

الضرر بآخر عن طريق الحسد ، أو يُتَّهَم بقتل آخر بواسطة عينه الشريرة .
فقد صنف سكان كارلنجا الجريمة[1] إلى صنفين :

اعتداء على الأرواح .

واعتداء على الممتلكات .

وجعلوا العين الشريرة [أى الحسد] وسيلة من وسائل الاعتداء ، سواء كان على الأرواح ، أو على الممتلكات .

كذلك أثَّر الاعتقاد فى الحسد على تقاليدهم وعاداتهم الاجتماعية ، إذ يعتبر الكرم وحسن الضيافة فى قبائل «نياكوزا» من أهم الالتزامات التى يفرضها المجتمع على الرجل الغنى ، ولم يكن ذلك على أساس ما تفرضه التقاليد ، وما تمليه الرغبة الخالصة فى البذل والعطاء ، أو يحتمه الوضع الاجتماعى لتوطيد العلاقة بينه وبين الآخرين فحسب ، بل كان الاعتقاد فى الحسد من أهم الأسباب التى رسخت هذه الظاهرة فى المجتمع ، لأن الخوف من السحر ، والعين الشريرة ، والشعوذة التى قد يستخدمها الناس ضده ، كانت من الدوافع القوية التى حملت الغنى على حسن الضيافة ، وبسط اليد بالبذل والعطاء للمحتاجين ، حتى لا يناله الأثر المدمر للحسد ، ذلك الأثر الذى قد يهلك ممتلكاته ، أو يودى بحياته حسب اعتقاده ، فهو يقدم من المال ما يحفظه من الحسد ، ويقيه أعين الناس .

مظاهر الحسد عند الشعوب البدائية :

اهتمت الشعوب البدائية بالحسد اهتماما شديدا ، فاستولى على مشاعر

---

(١) يتقدم المصاب بضرر من جراء الحسد بشكواه إلى المجلس العرفى ، فيحكم هذا المجلس على المتهم بتقديم دجاجة ، أو خنزير على سبيل القربان للإلـٰه «موسلى» ، فإذا كان بريئا فلن يلحقه أذى . أما إذا كان مذنبا ، فسوف يعاقبه الإلـٰه بالعمى أو بالشلل أو نحو ذلك . فمن الاتهامات التى توجه للآخرين : الاتهام بالسحر والعين الشريرة ، فقد حدث فى عام ١٩٩٤ م أن رجلاً ماتت زوجته بطريقة غامضة ، وبعد فترة جاءته فى المنام ، وزعمت له أن شخصا قد سحر لها فماتت بسبب ذلك ، فرفع الزوج شكوى إلى زعيم القبيلة ، ولما مثل المتهم أمامه اعترف بأنه قد ارتكب هذا العمل انتقاما من زوجها الذى قتل ابن أخيه بطريقة مماثلة ، وبناء على هذا الاعتراف أمر الزعيم بحبسه أربعة أيام وتغريمه ثورا .

الناس ، وتغلغل فى وجدانهم ، فنسبوا إليه كل ما يرونه من آثار ضارة ، دون أن يكون لديهم مبررات عقلية ، أو تفسير منطقى ، يوضح العلاقة بين الأثر والمؤثر[1] ، بل كان مرد هذا الارتباط إلى أساطير وخرافات غامضة ، تناقلتها الأجيال ، ورددها الناس دون أن يفكر أحد منهم فى البحث عن كيفية وصول الضرر من عين الرائى إلى المرئى ، الذى أصيب – حسب ما يعتقدون – بمجرد نظر صاحب العين الشريرة إليه ، أو حديثه عنه ، سواء كان مدحا ، أو إعجابا ، أو كان مجرد وصف ، أو تقريرا لهيئته وشكله . فإذا ما أصاب أحدهم ضرر توفى على أثره ، أو أصيب بمرض مفاجىء ، أو أجدبت الأرض فلم تنتج زرعها ، أو قل المحصول ، أو ضعفت الأبقار ، فنضبت ألبانها ، فانهم يُعزون ذلك إلى الحسد ، ومن ثم يفكرون فى الانتقام ، وخاصة إذا ما حققت الأحلام تصوراتهم ، كأن يرى الشخص فى منامه ذلك الذى ارتكب هذه الجريمة : وهى الحسد .

ومن عاداتهم اللجوء عند الإصابة بالحسد إلى أحد « الكجرة »[2]

---

(١) اعتقد البابليون أن للمردة ، والأقزام ، والمقعدين ، والنساء بنوع خاص فى بعض الأحيان قدرة على إدخال الشياطين فى أجسام من لا يحبون ، وذلك بنظرة من « عين حاسدة » [ول ديورانت جـ ٢ ص ٢٢٦] .

(٢) الكجور : شخص له دراية بالأعشاب السامة . اشتهر بين البدائيين بكتابة التعاويذ ، ولذا يستعينون به لدرء الخطر وإلحاق الضرر بالآخرين ، ولمعرفته الواسعة بالأعشاب والنباتات ، فانه يقوم بإعداد العقاقير وفق نوع المرض ، فيقصده المرضى معتقدين أن لديه قوة سحرية قادرة على إخراج ما بهم من أرواح خبيثة . ومما يزيد هذا الاعتقاد رسوخا عند الناس ما يحيط به نفسه من غموض وإيحاءات روحانية ، فهو يرتدى ملابس خاصة تميزه عن أفراد الجماعة ، يخفى بها ملامحه ، ويجلس فى مكان منعزل ، وقد أحاط نفسه بعدد من فقارات الحيوانات ، والصقور بصفة خاصة ، وكذلك العظام وجذور الشجر ، وغير ذلك من الأمور التى تلقى فى روع زائره الهيبة والإجلال ، فيقع أسير هذه القوة روحا وجسدا ، فلا يرى إلا ما يصدر عنه من حركات إيحائية ، ولا يشك أدنى شك فيما يمليه عليه . فهو بالنسبة إليه شخص مقدس له الهيمنة ، والسيطرة على الأرواح الشريرة بما فيه من قوة خفية ، اكتسبها من قِبَل القوى الغيبية المقدسة ، فهو مصدر الحماية من السحر والعين الشريرة ، فلا مفر لمن أصابته هذه العين من اللجوء إليه إذا رغب فى التخلص من هذه الإصابة ، ولا سبيل لمن يريد حماية نفسه من الحسد إلا بالاتصال به ، وتنفيذ أوامره .

ليخلصهم من آثاره . وطبيعى أن يأمرهم « الكجور » بإحضار أشياء ليستخدمها فى طقوسه التى يوهمهم بها أنها الوسيلة الوحيدة للتخلص من الضرر الذى أصاب المحسود ، كأن يطلب منهم نحر خنزير ، لينثر دمه قبل طلوع الشمس فى المنطقة التى يعيش فيها المتهمون بالحسد ، ليبدد أثر العين الشريرة .

ومن الممارسات التى يقوم بها « الكجور » لدرء أثر الحسد[1] نحر

= فالكجور يلعب دورا هاما فى درء الإصابة بالسحر والعين الشريرة ، إذ ثمة اعتقاد راسخ لدى الشعوب البدائية فى أن ممارسة السحر مسئولة إلى حد كبير عما يلحق بهم من كوارث ، وأمراض ، ووفاة ، كأن تفشل الأرض فى الإنتاج ولا تعطى محصولا وفيرا ، أو تصاب الماشية بالهزال والوهن ، أو يتناقص إنتاجها من اللبن ، أو تصاب المرأة بالعقم أو الإعياء .. إلخ . وبصفة عامة فإنهم يعتقدون أن الإناث أكثر عرضة للسحر من الذكور ، بل أكثر تأثرا بالعين الشريرة لأنهن يلعبن دورا حيويا فى كثرة العشيرة وعزوتها . ومن ناحية أخرى فإن هناك اعتقاداً بأن الخنزير لا يمكن إصابته بالعين الشريرة أو الحسد ، لأن دماءه حارة كما يزعمون ، وهذا على النقيض من الأبقار والضأن والماعز التى يمكن أن تتعرض للحسد . وأعراض ذلك : هزال الجسم ، وتطاير الصوف ، وجفاف اللبن ، ورفض الطعام . وعادة ما تحسد لامتلاء الجسم أو كثرة إنتاجها من اللبن . فإذا ما أدرك أحد الناس موقفا من هذا القبيل ، فإنه يستدعى أقرانه على الفور ، ومناقشتهم فى الأمر ، ومن ثم ينصرفون ولديهم النية لرؤية الساحر فى أحلامهم ، فإذا ما رأى أحدهم فى منامه هذا الساحر ، فإنه يخبر جماعته القرابية بذلك لوضع حد لتصرفه هذا . وفى العادة لا يكشفون عن اسم الساحر أو صاحب العين الشريرة ، خشية إثارة المشكلات ، ووقوع نوع من الصراع المباشر ، وإنما يتوجهون إلى الجبل الموازى لبيت المتهم بالسحر ، ويقفون على مقربة منه ، ولا يتحدثون إليه مباشرة ، بل يوجهون حديثهم بصيغة المجهول قائلين : أنتم الذين قمتم بالعمل الشرير وإنا سنثأر له ، وفى نفس الوقت فإنهم يلجئون إلى الكجور .
[راجع : فاروق اسماعيل جـ ١ ص ٥٥ ، جـ ٢ ص ١٤٤ -١٤٦ ، وكذلك محمد بشير : جنوب السودان ، ترجمة : أسعد حكيم ص ٨٠] .

(١) يخشى الإنسان الحسد ، ويخاف من الحساد ، ولهذا يبتعد عنهم ، ويتخذ كل السبل المتاحة التى تحميه من الوقوع تحت تأثير عين الحاسد . وقد جاء التعبير عن هذه الظاهرة فى الآداب الإنسانية بأساليب مختلفة ، وصيغ متباينة ، فمن بينها تلك الأسطورة التى اشتهرت بين سكان « تلشى » فى إفريقيا ، إذ توضح تصور هؤلاء الناس للحسد ومنشئه ، وطريق الحماية منه ، تقول الأسطورة : أن الإله «موسلى» إله السماء ، زرع منذ البدء « قرعة » وهى نوع من النباتات ، على قمة جبل « تلشى » فى أفريقيا ؛ إذ توضح تصور هؤلاء الناس للحسد ومنشأه ، وطريق الحماية منه ، تقول الأسطورة : إن الإله «موسلى» إله السماء زرع منذ البدء « قرعة » — وهى نوع من النباتات — على جبل « تلشى » ، وعندما=

دجاجة ليتدفق دمها ، وينثر فى الأماكن التى يعيش فيها المتهم بالحسد ، أى التى يتردد عليها ، أو يشرب منها ، لاعتقادهم أن الدم سينال منه . وعادة ما يحرصون على وضع بعض الدم مع عظام الدجاجة داخل مسكن المصاب بالعين الشريرة . وفى بعض الأحيان تنحر الدجاجة ، ويسلخ جلدها الخارجى ، بحيث تظل رأسها وأرجلها مثبتة فى الجلد ، ثم تعلق على سارى فى مقدمة المسكن ... وكذلك الحال إذا حسدت الأرض . فإذا لم تُجْدِ هذه المحاولة ، فإنهم ينحرون خنزيرا ، لأن دماءه أقوى[1] . وفى حالة عدم النجاح فى المحاولتين ، فانهم يلجئون إلى السحر المضاد للنيل من الفاعل .

وفى جميع الحالات فإنهم يبتهلون إلى الإلـٰه « موسلى » ليرفع عنهم السحر وتأثير العين الشريرة . فإذا تكررت عملية الحسد هذه ، يؤتى بإناء مصنوع من الطين حيث يجمع فيه العديد من أنواع الزرع ، ويخلط ببيض الدجاج ، ثم يحمل هذا الخليط ليوزع على مداخل الطرق والشعاب المؤدية إلى القرية ، أو المزارع ، اعتقادا منهم أن لهذا تأثيرا فعالا فى طرد العين الشريرة .

يرتبط الاعتقاد فى تأثير العين فى تصور البدائى باعتقاده أن هناك قوى

نضجت الثمرة ، انشقت من تلقاء نفسها ، وخرج منها رجل وامرأة ، هما أسلاف قبيلة « تلشى » . ومع مرور الوقت أصبح عندهما ذرية كبيرة ما لبثت أن انقسمت ، ونشب النزاع فيما بينهم ، الأمر الذى ترتب عليه هجرة الرجل مع بعض أبنائه إلى الجهة الشرقية من الجبل ، والمرأة مع البعض الآخر إلى الجزء الغربى ... وتمضى الأسطورة فتذكر أن الذين هاجروا مع أبيهم كانوا أقوياء ، أعزاء ، كثيرى العدد والعدة . أما الذين رحلوا مع أمهم فكانوا قلة ، ضعفاء ، لا حول لهم ولا قوة . ومنذ ذلك اليوم والحقد والكراهية والنفور يسود علاقاتهم مع بعضهم البعض ، وبالتالى يخشى كل فريق زيارة مقر الفريق الآخر خشية الاعتداء والعين الشريرة .

(١) يعتقد سكان « تلشى » أن دم الخنزير حار ، ولذلك فهم يستخدمونه لعلاج الأمراض الجسمية والنفسية المزمنة ، أو تلك التى يعتقدون أن مردها للحسد والعين الشريرة بصفة خاصة ، وإن كانوا يركزون على دمه وعظامه ، كما فى حالة رغبتهم درء العين الشريرة ، حيث يوارى بعض الدم والعظام فى حفرة داخل المسكن الذى ينام فيه أولئك الذين أصابتهم العين الشريرة . وأحيانا ينثر دمه قبل طلوع الشمس فى المنطقة التى يعيش فيها صاحب العين الشريرة ... ومن ثم فقد اهتموا بتربية الخنزير ، لأنهم يعتبرونه حيوانا مقدسا ، يقدم قربانا للآلهة وكذلك لاعتقادهم أن دماءه حارة ، تستخدم لدرء الحسد ، وإبطال العين الشريرة .

غيبية[1] تتصل ببعض الأشخاص . وهذا مرده إلى الدرجة التى يمتلك بها هذا الشخص هذه القوة .

إن الرجل يستطيع أن يحقق لنفسه من الإنجازات بقدر ما لديه من هذه القوة ، بل إن الضرر الذى يصيب بعض الأشخاص مرده إلى آخرين ممن يمتلكونها ، ومن ثم فإن التخلص من هذه الأضرار إنما يتم بواسطة العرافين ، وهم أولئك الذين يمارسون نوعا من الطقوس والإجراءات للبحث عن مبررات هذه الأفعال السحرية ضد الآخرين .

ومن هنا فإن ممارسة الطقوس أو الشعائر هى وسيلة إصلاح آثار السحر والحسد ، أو جلب الحظ ، أو استرضاء النفس من ناحية ، وإيقاف أو تقييد أولئك الذين يحدثون القلاقل ويسيئون إلى الآخرين بما يملكون من قوة سحرية وأعين شريرة تفتك بالمحسودين .

---

(١) هناك قوة كبرى «Tsar» توجه العشرات من القوى الأخرى.. وهى غامضة إلى حد كبير ، فهم لا يعرفون عنها سوى أنها متعددة ومتغيرة ، وأن العراف هو الذى يستطيع تحديد أى الأنواع التى تسبب هذه الشرور والآثام كالمرض والموت والنكبات والكوارث ، ويرون أن هذه القوى تنقسم إلى قسمين : كبرى وصغرى وتؤثر القوى الكبرى فى الجماعات الاجتماعية أكثر من تأثيرها فى الأفراد ، وقد تؤثر فى المحاصيل ، أى أن أعراضها وبائية عامة وليست فردية ، وقد يعزى إليها ما يقترن بالإنسان من القتل الجماعى ، أو السحر ، أو الأفعال المضادة للمجتمع .

أما الصغرى فتؤثر فى الأفراد فقط ، ويقدم لها فى العادة قرابين أقل حجما : كالدجاج والماعز والفئران ، بخلاف الكبرى فيقدم لها نوع كبير من القرابين أو الضحايا البشرية : قطعة محددة من جسم الإنسان لإصلاح الموقف ، وإن كان هذا لا يحدث فى الواقع عن عمد ..

ويجتمع أولئك الذين يحملون هذه القوى بقصد إصلاح التأثير الناجم عنها وغالبا ما يقترن الاجتماع بتقديم الضحايا والقرابين .

وأحيانا تقدم القرابين على سبيل الكرامة سائلين « الكجور » الوساطة لدى الإله «تل» بأن ينعم عليهم بالإنتاج الوفير ، وقد يحدث فى حالات أخرى أن تحسد الأرض ويضعف إنتاجها ، فيرجعون ذلك إلى العين الشريرة .. فيقال : إن شخصا شريرا حسد الأرض ، فيقدم لهم « الكجور » تعويذة أو حجابا يثبت فى شجرة ، أو يقدم لهم عرقا يدفن فى الأرض التى ساءت حالتها ، فينفذون ما يطلب منهم معتقدين أن هذا كفيل بدرء الحسد فتزداد خصوبة الأرض ، وتعطى محصولا وفيرا .

[راجع : فاروق إسماعيل جـ ١ ص ٢٨٨ – ٢٨٩ ، جـ٢ ص ٣٦٢] .

سيطرت هذه الخرافات على عقائد البدائيين ، فتمكنت فى سلوكهم ، ووجهت تفكيرهم إلى تعميم الغيبيات على كل ظواهر الحياة تقريبا ، بحيث بدت الهوة شاسعة بين الجانب الغيبى والمعرفة التجريبية ، فالذباب لا يسبب المرض ، وتلوث الطعام لا يسبب أمراض المعدة ، أو ارتفاع درجة الحرارة ، بل إن السحر والعين الشريرة مصدر لكل حالات الوهن والضعف التى تعترى الإنسان ، وكذلك فإن عقم المرأة لا يرجع لأسباب بيولوجية ، وإنما مردّه إلى السحر أيضا ، كما أن الشخص الحسود ، أو ذا الإرادة الشريرة ، يمكن أن يلحق الضرر بالآخرين ، فأى فشل أو حظ عاثر ، يرتبط بصورة أو بأخرى بأولئك الذين لديهم سوء النية فى إلحاق الضرر بغيرهم ، كما أن العقم مرده إلى أن أحد الأعداء قد سحر للمرأة فصارت عقيما ... وهكذا فكلما أصابهم شىء ردُّوه إلى العين الشريرة ، فمثلا : الحسد سبب فى ضعف إنتاج الأرض ، وعقم المرأة ، وإلحاق الضرر بالتوءم، وإصابة المواشى ، وتأخير نزول المطر ، فإذا ما حدث شىء من هذا تقام الطقوس التى تبدد أثر العين ، ولها صور مختلفة ، سواء كان ذلك لدرء الحسد ، أو لتبديد أثره ، فلدرء الحسد عن الزوجة ، تحضر فى ليلة زفافها محاطة ببعض ذويها ، ثم ينحرون ديكا يربطون أرجله وأجنحته فى مقدمة البيت ، اعتقادا منهم أن « رجل الديك » تدرأ العين الشريرة ، وعادة ما يقوم بعض كبار السن بذبح بعض الدجاج تجاه مسكن العروسين ، ابتهاجا بهذه المناسبة ، وهم يرددون أناشيد تتضمن مناشدة الإلـٰه « موسلى » أن يتقبل القربان ويحفظ العروسين من الحسد .

وقد اعتقدت قبائل «كورنجو» أن الندبات، أو القصدات، أو التشليخ يقيهم من الحسد ، فيشلخ الفتية بوضع علامة + على الخدين أو الذراعين ، أو يوسم الفتى بثلاثة خطوط عمودية متوازية على الخد ، ينتصف اثنين منها خط أفقى [هكذا : IH] والفتيات بثلاثة خطوط عمودية [هكذا : III] ، وأحيانا أخرى يَسِمُون الفتى بما يشبه السلم ذا الثلاث درجات .

وإذا أرادوا وقاية الأرض من الحسد حتى لا يضعف إنتاجه ، يذبحون

بقرة ، أو شاة ، أو ماعزا ، ويدفنون رأس الضحية فى الأرض تجنبا للحسد ، أما إذا وقع الضرر فإن لمعالجته طقوسا معروفة ، فإذا نضب الماء من الآبار فإنهم يحضرون قرعة مليئة بالماء ، وينحرون خنزيرا ، ويخلطون دمه بهذا الماء ، ثم يقذفون القرعة فى قاع البئر ، معتقدين أن دم الخنزير كفيل بتبديد أثر السحر ، أو العين الشريرة التى أصابت البئر ، وبعد ذلك يأكلون لحم الخنزير ، ويدفنون عظامه إلى جانب البئر ، وهم يتلون بعض الأدعية والتعاويذ ، اعتقادا منهم بأن مثل هذه الممارسات تجلب الأمطار التى تملأ الآبار .

لم تختف هذه العادات بعد دخول هذه الشعوب إلى الإسلام ، إذ لا زال الذين اعتنقوا الإسلام يمارسون هذه التقاليد ، بل إن منهم من يحاول مناشدة الناس الالتزام بها ، وتأكيد ضرورتها فى حياتهم ، لدرجة أن أحدهم برر ما ينزل بهم من مصائب بتركهم عادات آبائهم وأجدادهم ، فقد نقل عن أحدهم قوله :

« إن عدم نزول الأمطار ، وكثرة الأمراض التى تصيب الأطفال الرضع ، يرجع إلى أنهم تركوا عادات الآباء والأجداد » .

ظهرت الثنائية فى تلك الشعوب ، فصبغت عاداتهم وتقاليدهم بلون إسلامى ، وتبدو هذه الثنائية بوضوح فى التزامهم بتعاليم الإسلام ، مع استمرارهم فى الممارسات السحرية التقليدية ، وحين لا تفى هذه الممارسات بمتطلباتهم فإنهم يلجئون إلى الفقيه المسلم ، مناشدين إياه أن يكتب لهم تعويذة ، أو حجابا ، يحتوى على بعض الآيات القرآنية ، لمواجهة أفعال السحر ، أو درء آثار العين الشريرة[1] .

تجنب البدائىُّ صاحبَ العين الشريرة ، لأنه كان يخاف علي نفسه ، وعلى ممتلكاته من تأثير عينه الضارة ، التى قد تصل إصابتها إلى حد الهلاك والدمار ، ولم يقف خوفه عند هذا الحد ، بل تجاوزه إلى الخوف من الشياطين ، لأنه

---

(١) انظر فاروق اسماعيل ، جـ ٢ ص ٦٢ ، ٨٨ ، ٢٥٠ ، ٣٦٢ .

اعتقد أنها تحسد الإنسان أيضا ، كما اعتقدت بعض القبائل أن الآلهة تحسد بعضها بعضا ، كما تحسد الإنسان على ما لديه من نعم ، وما يتمتع به من طيبات الحياة ، ومن ثم تولد عند أفرادها : الخوف من الوقوع تحت تأثير عينها الشريرة .

ولم يكن الخوف من الحسد قاصرا على تأثير العين الشريرة ، بل تعداه . إلى الخوف من تأثير الكلمات ، التى تجرى على ألسنة من يملكون قوة الإضرار بالآخرين ، وإن لم يروا المحسود ، فكلما اعتقدوا فى تأثير العين الشريرة على المرئى ، اعتقدوا أيضا فى أن من يملك تلك القوة ذات التأثير الضار قادرا على إلحاق الأذى بالآخرين ، عن طريق التفوه ببعض التعبيرات التى تنضح حقدا وحسدا ، فكما أن للعين الشريرة تأثيرا ضارا يلحق المحسود ، كذلك للكلمة ، نفس الضرر ، إذا صدرت عن شخص يتمتع بهذه القوة المؤثرة فى الآخرين تأثيرا ضارا .

وليس هناك علاقة بين حدوث الضرر وإرادة الحاسد ، فقد يحدث الحسد دون إرادة الإنسان ، الذى يملك هذه النظرة الشريرة الحاسدة ، كما أنه لا ارتباط بين هذا التأثير الضار ، وبين أخلاق الحاسد وسلوكه ، فقد يوجد الحسد عند الشرير الفاسق ، كما يوجد عند الطيِّب التقى ، الذى لا يرضى – نظرا لطيب خلقه ، وحسن سلوكه – عما يصدر من عينه من إشعاعات ضارة بمن يراه ، بل إنه يتوارى خجلا من هذا التأثير الذى يملكه ، والذى يصدر عنه – حسب ظن المؤمن بالحسد – رغما عن إرادته ، فهو لا يستطيع التخلص منه ، نظرا لانتقاله إليه بالوراثة ، أو اكتسابه إياه عن طريق ظروف خاصة مر بها فى حياته .

الحسد عند الشعوب المتقدمة :

لم يكن الاعتقاد فى الأرواح الشريرة ظاهرة من ظواهر المجتمعات البدائية فقط ، ولم يكن الخوف من الحسد والأرواح الشريرة مرتبطاً بتخلف الشعوب ، وانحطاط المجتمعات فكريا وثقافيا فقط ، بل وجد ذلك فى

كل المجتمعات ، واعتقدت فى الحسد كل الشعوب ، لا فرق فى ذلك بين بدائى ومتحضر ، ولا بين متخلف ومتقدم ، فمن بين أكثر الناس ثقافة وعلما من يخشى الحسد ، ويخاف على نفسه من أعين الحساد ، إذ ليس من النادر خضوع العالم ، واستسلامه لهذه الظاهرة ، كما يخضع الجاهل لها سواء بسواء ، ولهذا نرى فى كل الشعوب ، وعلى جميع المستويات ، ظواهر وسلوكيات ، ترتبط ارتباطا وثيقا بالحسد ، أو تتعلق تعلقا مباشرا ، أو غير مباشر ، بالاعتقاد فى وجود أناس ، لهم من القدرة ما يستطيعون بها إلحاق الضرر بالآخرين بأعينهم الشريرة ، سواء كان ذلك بطريق مباشر ، أو بواسطة قوى خفية ، تستخدم هذه العيون للإضرار بمن يكرهون ؛ ففى القرون الوسطى تحدث الناس عن الشيطان والأرواح الشريرة ، التى تخضع لنظر الحاسد وكلمته ، فيستطيع بواسطتها إلحاق الضرر بالآخرين ، إذ جاء فى الأساطير الألمانية : أن من الناس من لديه القدرة على تسليط الكوابيس على من يكرهه .

وفى القصص الشعبية لجنوب السلافيين وجدت زوجات ممسوسة من الجن ، فكان يمكنها بواسطة عينها الشريرة ، أو كلماتها الحاقدة أن تقلب إنسانا على رقبته ، وكان الاعتقاد السائد آنذاك : أن الأرواح الشريرة قد اتخذت مساكنها فى الأحراش وفى الأماكن المهجورة ، التى يتجنب الناس الاقتراب منها ، كما كان بإمكانها أن تسكن فى الماء والحشائش ، والأشجار ، والأحجار ، وحتى النار اتخذتها مسكنا لها . ولا يستطيع الاقتراب منها إلا صاحب العين الشريرة ، أى من لديه قوة على إلحاق الضرر بالآخرين عن طريق الحسد ، فكان الاعتقاد السائد : أن لأمثال هؤلاء الناس صلة بهذه الأرواح ، فهم يستدعونها ، ويرسلونها إلى من يريدون إنزال الضرر به ، أو الفتك بما يملك من مال ومتاع .

وفى إيطاليا : اعتقد الناس أن الشيطان خاضع للعين الشريرة ، فهو يسير بواسطتها إلى الهدف عن طريق إشعاعات هذه العين الحسود .

كما اعتقد العرب قديما : أن العفاريت تصاحب الأشرار ، وتسير معهم

فى غدوهم ورواحهم ، فيلحق الضرر بمن تقع أعينهم الشريرة عليه .

وفى أثيوبيا : ساد الاعتقاد بأن لدى الحسود مسا من الأرواح الشريرة .

وفى الهند : يعتقد الناس أن الحسود مصاحب لروح ، يكون أحيانا مولودا بها ، أو التقت به عند أى منعطف أو ملتقى ، ولازمته .

وفيما وراء الهند من البلاد الآسيوية : يوجد نفس الاعتقاد فى الأرواح الشريرة ، وعلى الإنسان أن يحمى نفسه بواسطة قراءة التعاويذ التى تطردها ، أو حمل الأشياء التى تقيه منها ، حتى لا تتحول طبيعته الإنسانية إلى جماد ، أو إلى روح .

اضطرب تصور بعض الشعوب للحسد ومصادره ، فخلطوا بين الأرواح التى تتسبب فيه ، وبين الأمراض التى تحدث نتيجة الإصابة بالعين ، ومن ثم فغالبا ما يتصورون أن النظرة الشريرة ، أو كلام الحسود المؤثر فى المحسود شيء حى ، له خصائص الكائنات الحية ، فوصفوه بما يوصف به الكائن الحى ، ووجهوا خطابهم إلى الأمراض الناتجة عن الحسد ، كما لو كانت كائنا يسمع ، ويعى ما يقال له ، فقد ورد فى تراث الكلدانيين هذا القسم :

- تكاثر الطاعون والحمى فى البلاد .
- وخرب السل والهوان البلاد .
- فهى ضارة بجسم الإنسان ، مهلكة للنباتات .
- قوى خفية شريرة ، لجلجة فى اللسان .
- وبطء فى النطق والكلام .
- أرواح شريرة ، إنسان سيء ، نظرة سيئة ، فم سيء ، لسان سيء .
- يمكن أن يصدر من الإنسان ، ابن الإلـه .
- فتحمله على الخروج من مرعاه .
- أقسم أنه لن يمس جسمى أبدا .
- ولن يستطيع التأثير علىّ لأعمل شرا .
- ولن يصلوا إلى أتباعى مطلقا .

– ولن يدخلوا إلى منزلى أبدا .
– ولن يدخلوا إلى عملى على الإطلاق .
– أبدا لن يعودوا إلى محل إقامتى أبدا .

ظل هذا التصور منتشرا بين الشعوب عبر العصور المختلفة ، فلم تستطع الأفكار الدينية المتطورة القضاء عليه ، ولم يكن لتقدم الشعوب فى مجالات الفكر والثقافة أثر فى تغييره ، إذ لازالت ممارسات الشعوب فى هذا المجال تحمل نفس الطابع الذى وجد منذ آلاف السنين ، ففى صيغة مشهورة بين شعب أوكرانيا جاء هذا التعبير :

« اغربى أيتها النظرة السيئة ، إلى الأحراش ، إلى المستنقعات ، إلى البحار » .

وعند الصرب ورد هذا النص :

« اذهب أيها المرض ، اخرج بعيدا إلى الغابة ، انزل إلى أعماق المياه ، توجه إلى قمم الجبال ، واهبط إلى أعماق الآبار ، حيث لا يصيح الديك ، ولا تبيض الفرخة » .

ويردد اليونانيون :

« أين تذهبين أيتها العين الشريرة ، أين تذهبين ياسيئة الحظ ، يابائسة ، اخرجى من الاثنين وسبعين شريانا التى فى جسم ابنى ، اذهبى إلى الجبال والهضاب ، حيث لا يصيح الديك ولا ينبح الكلب ، ابحثى عن الحيوانات المتوحشة ، فاشربى دمها ، وكلى لحمها » .

ويقول البلغارى :

« أيتها العين الشريرة ، اذهبى إلى جبل ناء ، حيث لا تغنى الطيور ، وحيث لا يوجد إنسان » .

ويعتقد السّلافيون : أن تسعة طيور صغار ، تطير مصدرة صياح الشؤم ، فيحط صياح الشؤم هذا عند عقب الباب ، وعندما تحين الفرصة ، يقفز على

الفريسة . ولم يقف هذا الاعتقاد عند هذا الحد ، إذ إن الأمراض التى تحدث نتيجة الحسد ، لا تذهب وتطير فقط ، بل تستطيع – إذا طلب منها – أن تتحدث ، فتجيب عما تُسْأَل ، فتظهر النظرة السيئة – كما ورد فى تراث السوريانيين – فى صورة ماعز تعوى كالذئب ، وتنبح كالكلب ، وتتبادل أطراف الحديث مع جيش سليمان .

ومن الاعتقادات الشائعة بين الناس :

أن تأثير العين الشريرة فى العين يحدث بطريق مباشر ، أى عندما يقع نظر العائن على المعين ، يصيبه الضرر ، لكن توجد حالات يحدث التأثير فيها بطريق غير مباشر ، إذ يمكن أن يكون بين العائن والمعين أشياء ، تقوم بدور الوسيط بينهما ، أى تلعب دور الوسيط فى نقل تأثير العين الشريرة إلى ضحيتها . وقد يكون الوسيط إنسانا حيا ، كما يمكن أن يكون جمادا ، فترسل العين الشريرة أشعتها على هذا الوسيط ، ثم تنعكس منه الأشعة – مثله فى ذلك مثل المرآة – على شخص آخر فتصيبه ، فقد حدث أن اتهم أحد الحكام فى الكاميرون أحد سكان ولايته بأنه أصاب امرأة بنظرة سيئة – على الرغم من أنه لم يرها إطلاقا – وذلك عن طريق رؤيته لزوجها .

ويعتقد سكان البنجاب :

أن المؤلف قد تصيبه العين عن طريق نظر أحد قراء ما يكتبه ، إذ يعكس النص المقروء تأثير عين القارىء الشريرة إلى كاتب النص ، بل إنهم يعتقدون أن المرأة التى تريد حسد السحب المحملة بالماء ، فإنها تستطيع ذلك بواسطة النظر إلى لوح معدنى ، ثم تضعه أمام منزلها ، وتعكس عليه أشعة ضوئية موجهة إلى السحاب .

وفى إحدى مناطق الشمال الغربى بفرنسا :

لا يسمح الفلاحون للرسامين بأن يرسموا مرابض مواشيهم ، أو مزارعهم ، خوفا من أن تنقل الصورة المرسومة تأثير العيون الشريرة التى تراها إلى مواشيهم ومزارعهم .

وعندما أصدر المبعوث الفرنسى « م . دى نيونتيل **M - de Nointel** » أمرا برسم التماثيل فى تركيا واليونان ، وضع اثنان من قوات الحرس بجانب الرسام ، كى يحميانه من اعتداء أولئك الذين يؤمنون بهذه الأساطير .

وفى بداية القرن الثامن عشر ساد الاعتقاد بأن من الممكن أن يلعب القمر دور الوسيط فى نقل تأثير عين المحسود ، إذ يؤتى بالساحرات ، أو بنساء ذات عيون شريرة ، فيرسلن أشعة عيونهن إلى القمر عن طريق النظر إليه ، فإذا كان هناك فى نفس اللحظة أناس أصحاء ينظرون إلى القمر ، فإن تلك الآثار السيئة التى انبعثت من عيون الساحرات ، أو انسابت من نظرات النساء ذوات العيون الشريرة إلى القمر ، تنعكس إلى الأصحاء الذين ينظرون إلى القمر فى نفس اللحظة ، فيخرون صرعى ما يعتقد بأنه الحسد[1] .

ومن الجدير بالذكر : أنه يوجد فى بعض البلاد التى يلعب الاعتقاد فى الحسد دورا كبيرا فى حياة سكانها ، تصورات واعتقادات فى أحداث لا صلة لها بالعين ، وإن كانت تفسر تفسيرا أسطوريا على النحو الذى تفسر به ما يلحق المعين من تأثير العائن الضارة ، ففى إيطاليا ، واسكوتلاندا ، وايرلاندا ، لا يقتصر الضرر الذى يلحق بالإنسان على العين الشريرة فقط ، بل يعتقد سكان هذه البلاد بأن الضرر يمكن أن يصيب الإنسان عن طريق الاحتكاك والملامسة ، بل إن ذكر اسم الشخص فقط يكاد يكون كافيا فى بعض الأحيان فى إلحاق الضرر به .

وفى كثير من الشعوب يعتقد الناس أن هناك أشخاصا إذا جلسوا بجانب أحد اللاعبين – وخاصة فى لعب الأوراق – فإنهم يجلبون الحظ له فيتغلب على خصمه ، وقد يكون سببا فى نحسه أمام خصمه ، وقد يكون سكب الشراب على فساتين النساء نذير شؤم ، وكسر الثريات فى الأفراح يفسد البهجة ، وقد يكون إشارة إلى أن هذا الزواج لن يعمر طويلا ... ولا زال الكثير من هذه المعتقدات تسيطر على عقول الناس ، على اختلاف مستوياتهم

---

(١)راجع : Seligmann ص ١١ –١٧ .

الثقافية ، والحضارية لا فرق فى ذلك بين أمى تسيطر عليه الأساطير من أخمص قدميه إلى قمة رأسه ، وبين مفكر يدافع عن المنهج العقلى ، ويستخدم المنطق فى إنتاجه الفكرى ، وينقب عن الأسباب والعلل لما يصادفه فى تخصصه ، لكنه فى سلوكه الاجتماعى يرتد إلى الأفكار التى انحدرت إليه من آلاف السنين ، فتراه أسير هذه المعتقدات ، خاضعا لها ، كما يخضع أخوه الأمى ، يتألم تحت سلطانها ، كما يتألم مواطنه الذى لم ينل حظا من ثقافة ، وفكر ، ينير له الطريق ، ويوضح له ضرورة الأخذ بالأسباب والمسببات ؛ فتراه يلغى عقله ، ويندفع وراء معتقدات لا يقرها منطق ، ولا يستسيغها فكر ، ولا تنسجم مع وضعه الثقافى ، ولا تتلاءم مع ما وصل إليه فى سلم الرقى والحضارة . تراه فى هذا المجال مع الدهماء واحدا منهم ، وفى وسط الدجالين مستسلما لخرافاتهم ، ينفذ ما يطلبونه من شعوذات ، دون أن يفكر لحظة واحدة فى استخدام العقل فيما يراه ويشاهده ، فيغرق فى طقوس يعجز العقل عن فهم ما تحتويها من إشارات غامضة ، وحركات طائشة ، ليس لها تفسير مقنع ، ولا هدف معقول ، فهى أشبه بحركات المخبولين ، وسلوكيات نزلاء المصحات العقلية .

فهل يستطيع عاقل أن يفهم هذا التناقض عند المثقفين والمفكرين ؟

هل ينسجم سلوكهم اللامعقول فى مجال العرافين والدجالين ، مع ما يتمتعون به من قدرات فكرية عالية فى معاملهم ومختبراتهم ؟

هل يدرك العقل هذا الانفصام ، بين الالتزام الشديد بالبحث عن أسباب الظواهر فى مجال البحث ، وبين الاستسلام للخرافات البدائية فى الاعتقاد بأن عين العائن تصيب المعين بالمرض أو الهلاك ؟

الموطن الأصلى للحسد :

كثرت الخرافات فى المجتمعات الإنسانية على امتداد التاريخ البشرى ، وتنوعت أشكالها وهيئاتها باختلاف الأجناس والأعراق ، كما اختلفت مضامينها بين شعب وآخر ، وتباين حجم انتشارها من عصر لعصر ، تبعا لمدى ما

وصلت إليه الشعوب من تقدم وحضارة ، وما بلغته من رقى فى مجالات الفكر والثقافة .

ومن أقدم الخرافات وأوسعها انتشارا : الاعتقاد فى أن للعائن قدرة تمكنه من إصابة مَنْ تقع عينه عليه بالمرض أو الهلاك ، فهى أقدم الخرافات زمانا ، وأوسعها انتشارا ، وأشدها مقاومة لعوامل الفناء ودوافع الاختفاء ، إذ لازالت موجودة بين أكثر الشعوب تقدما وحضارة ، ومسيطرة على مشاعر أشد المفكرين عقلانية ، فهى لم – ولن –تختفِيَ من تراث الشعوب ، ما دام الخوف من المجهول مسيطرا على جميع أفراد الإنسانية ، لا فرق فى ذلك بين أمى عاطفى ، ومفكر عقلانى .

فقد جاء فى التراث اليونانى :

أن « زيوس » عندما خلق المرأة الأولى أعطاها صندوقا مغلقا ، وحذرها من فتحه ، لأن جميع المساوىء محبوسة فيه ،فلو أطلقت انتشر بؤس وشقاء الإنسان فى العالم ، فلا يستطيع التخلص منها .

ومن بين المساوىء الكبرى التى كانت محبوسة فى هذا الصندوق : الحسد . لم تحافظ المرأة على هذه الوصية ، ففتحت الصندوق وانطلقت منه جميع المساوىء ، ومنها : الحسد . فانتشر الفساد فى الأرض ، وهلك الزرع الذى أخرجته الأرض من باطنها ، وأصيبت الأشجار والنباتات التى كانت قد ازدهرت من تلقاء نفسها دون رعاية من أحد ، وذبلت الزهور ، بعد أن كانت متفتحة باستمرار ، ويبست الحشائش ، بعد اخضرار دائم .

ويرى بعض الباحثين : أن هذا المفهوم – وهو الاعتقاد فى أن للعين تأثيرا ضارا على المعين – ظهر أولا فى الشرق ، ثم انتشر من هناك إلى اليونان وإيطاليا ، حتى عم جميع البلدان المطلة على البحر الأبيض المتوسط ، ومنها انتقل إلى مناطق أخرى ، حتى تغلغل تدريجيا فى جميع مناطق الكرة الأرضية ، فأصبحت جميع المجتمعات البشرية تؤمن بالحسد، وتعتقد فى أن أشعة ضارة تنبعث من عين العائن ، فتصيب المعين بالضرر الذى قد يصل إلى حد الهلاك .

ويرى آخرون : أن هذه الظاهرة نبتت فى المنطقة الاسكندنافية ، ثم خرجت منها ، وانتشرت فى بقية أنحاء العالم .

لكننا نرى : أن تصور الناس لهذه الظاهرة ، وسلوكهم إزاءها بالطقوس ، والتعاويذ ، والتمائم ، وغير ذلك من الأعمال ، التى يعتقدون أنها تحميهم من الحسد ، أو تشفيهم من آثاره الضارة ، تكاد تكون متطابقة فى أشكالها ، وهيئاتها ، وتفاصيلها لدى جميع الشعوب ، فهناك تعاويذ وابتهالات مقدونية ، وهندية ، وفارسية ومصرية ، كما وجد شبيه لها فى أساطير عربية ، وعبرية . ولم يختلف عنها ما وجد فى بلدان أخرى ، سواء كان سكانها مجموعات إقليمية صغيرة ، أو كانوا شعوبا متعددة الأعراق والأجناس .

فالاعتقاد فى الحسد موجود عند التاتاريين ، كما هو منتشر بين الصينيين . ويؤمن به الهنود الحمر والزنوج ، كما تجده فى أساطير سكان جزر ومحيطات نصف الكرة الجنوبى بنفس الشكل والهيئة ، التى وردت فى أساطير نصف الكرة الشمالى .

ولما كان من الثابت والمؤكد أن بعض هذه الشعوب لم يتصل بالبعض الآخر ، فيجب التسليم بأن معالم هذه الظاهرة انتشرت فى كل أجزاء الكرة الأرضية بدافع من طبيعة الإنسان نفسه ، دون تأثير خارجى ، أى أن سبب ظهورها راجع إلى طبيعتها ، وعلاقة هذه الطبيعة بنفسية الإنسان .

مظاهر الحسد فى منطقة الشرق الأوسط :

يستطيع الباحثون العثور على ما يلقى الضوء على الحسد عند كل شعوب الأرض ، لأن ذلك مسجل فى آثارهم وتراثهم ، وكنا قد عقدنا العزم على بيان ذلك ، لنعطى للقارىء صورة تؤكد له مدى انتشارها ، وتوضح له آفاق التطابق فى تصور الإنسان لها ، وسلوكه إزاءها ، وآثارها عليه فى كل مكان ، على الرغم من الاختلاف فى الأديان والثقافات ، والتباين فى التطور التاريخى لكل شعب ، لكننا أجلنا هذه الفكرة إلى بحث موسع ، واكتفينا هنا ببيان ما جاء فى تراث منطقة الشرق الأوسط – وخاصة الساميين ، والعبرانيين –

ليكون مدخلا إلى الحديث عما لدى المسلمين من تراث عن الحسد .

تُنسَب أقدم وثيقة أخبرتنا عن الحسد فى هذه المنطقة إلى الأكديين[١] ، إذ يوجد فى المتحف البريطانى ٢٠٠ لوحة فخارية ، يرجع تاريخها إلى القرن السابع قبل الميلاد ، وما جاء مكتوبا فى هذه الوثيقة ، نص يتعلق بالحسد ، حيث تنص التعويذة منه على مايلى :–

أعيذك من :

– ذلك الذى يسحر الصورة الجميلة الكاملة ،

– الوجه الشرير ،

– النظرة الشريرة ،

– الفم الشرير ،

– اللسان الشرير ،

– السم المميت ،

– روح السماء ،

– أعيذك من :

– روح الأرض

أعيذك .

تأثر العبرانيون بالأكديين ، فانتشر بينهم الاعتقاد فى تأثير العين الشريرة ، وهى فى لغتهم : « عين هورا » ، وفى اللغة الآرامية : « عين بيشا » . ومن الضرورى أن يتسرب هذا الاعتقاد إلى النصوص المقدسة ، فقد ورد فى العهد القديم ذكر التطير والتفاؤل[٢]، ففسرهما بعض العلماء باحتمال أن يكون المقصود بها أولئك الذين لديهم عين شريرة ، أى العائنين الذين يصيبون من

---

(١) شعب انحدر قبل التاريخ من منطقة بحر قزوين ، واستوطن بلاد أكد ، على ضفاف دجلة والفرات ، وأقام فيها حضارة كبيرة ، كان لها تأثير كبير على الساميين . ومن بين ما أخذه الساميون منهم جزءا كبيرا من الخرافات والأساطير .

(٢) « لا تأكلوا بالدم . لا تتفاءلوا ولا تعيفوا » [لاويين ١٩ : ٢٦] ، « لا يوجد فيك من يجيز ابنه أو ابنته فى النار ، ولا من يعرف عرافة ، ولا عائف ولا متفائل ، ولا ساحر » [تثنية ١٨ : ١٠] .

يرونهم إصابات قاتلة ، كما فسرها آخرون بأن المقصود بهذا التعبير هم سحرة الموالد . وتدل كلمة : « شكر Szekor » – التى وردت فى التلمود – على المعيون ، أى من أصابته عين الحسود .

كذلك نجد فى أسفار الأنبياء فى العهد القديم نصوصا متعددة ، تشير إلى وجود العين الشريرة ، فقد جاء فى كتاب الحكمة لسليمان هذا النص :

« الإعجاب يغوى ويفسد ما هو جميل »[1] .

ويستدل لوثر على خبث الإنسان بنصوص وردت فى كتاب عيسى بن سيراخ ، وهى : « هذا هو الإنسان الخبيث ، الذى لا يحب أن يرى أحدا يفعل الخير للناس ، بل يشيح بوجهه بعيدا ... الرجل الطيب لا يترك فى جعبته شيئا ذا بال ، أى ينفق كل ما لديه ... والحسود لا يحب أن يراه أحد أثناء تناول طعامه ، ويتألم كثيرا إذا اضطرته الظروف إلى إعطاء طعام للآخرين »[2] .

فإذا انتقلنا إلى الكتاب المقدس عند المسيحيين ، وهو الإنجيل ، وجدنا أنفسنا أمام بعض النصوص ، التى تتحدث عن العين الشريرة ، فقد جاء فى إنجيل مرقس : أن عيسى قال للجمع ذات يوم :

« إن الذى يخرج من الإنسان ، ذلك ينجس الإنسان ، لأنه من الداخل ، من قلوب الناس تخرج الأفكار الشريرة : زنى ، فسق ، قتل ، سرقة ، طمع ، خبث ، مكر ، عهارة ، عين شريرة ، تجديف ، كبرياء ، جهل ، جميع هذه الشرور تخرج من الداخل ، وتنجس الإنسان »[3] .

وفى إنجيل متى :

« أو ما يحل لى أن أفعل ما أريد بمالى ، أم عينك شريرة لأنى صالح »[4] . أى هل أنت حسود ، تحسدنى على صلاحى .

(١) سفر الحكمة ٤ – ١٢ .

(٢) كتاب سيراخ ١٤ : ٨ – ١٠ .

(٣) مرقس ٧ : ٢٠ – ٢٣ .

(٤) متى ٢٠ : ١٧ .

واستخدم بولس فى رسالته إلى غلاطية تعبيرا يدل على أنه كان يؤمن بالحسد ، إذ قال لهم :

« أيها الغلاطيون الأغبياء ! من رقاكم حتى لا تذعنوا للحق »[1] .

إذ تدل الكلمة الأصلية ، التى وردت فى النص اليونانى « Ebaskanen » على عمل أولئك الذين أثروا تأثيرا سيئا فيهم بواسطة النظرة الخبيثة ، أى تأثير عين الحسود .

إلا أن المسيحيين ينفون اعتقاد عيسى عليه السلام وبولس بالحسد ، ويرون أن ما أثر عنهم من استعمال كلمات تدل على الحسد ، إنما هو من باب استخدام المصطحات المألوفة والمستعملة ، دون أن يكون وراء هذا الاستخدام اعتقاد فى هذه الظاهرة[2] .

غير أن اليهود رموا عيسى عليه السلام بالسحر ، وبأن لديه عينا شريرة ، أى أنه عائن ، فقد ورد فى التلمود :

أن عيسى ذهب مع أستاذه « جوشوا بن يرشيا » إلى الإسكندرية — مركز السحر — منفيين ، وعندما سمح للأستاذ بالعودة إلى وطنه ، لقى ترحيبا كبيرا ، فتَضَيَّف عند امرأة ذات يسار ، فمدحها بهذه الكلمات :

« ألا ما أجمل مضيفتى » .

وهنا يجيب عيسى :

« ولكن عينيها صغيرتان » .

ويعنى بذلك : أن عينيها مكسوتان بالرموش الطويلة ، وأراد عيسى بهذه الملاحظة ، أن المضيفة الكريمة ليست جميلة ، بل إنه أراد أن يشير إلى أنها تخفى نظرة خبيثة ، وهنا وجه إليه أستاذه هذا السؤال :

« أتهتم بهذه الأشياء ؟ » .

ثم طرده من حضرته .

---

(١) غلاطية ٣ : ١ .

(٢) راجع Seligmann ص ١٤ .

تبين لنا مما سبق أن الكتاب المقدس – بعهديه :– القديم والجديد – لم يخل من ذكر ما يفيد وجود الاعتقاد فى الحسد لدى المؤمنين به ، من يهود ومسيحيين ، غير أن الحديث عن الحسد جاء فى التلمود بكثرة ، وبشكل أوضح ، إذ ورد الحديث كثيرا عن « عين هورا » ، الذى تدل على وجود تأثير العين الحسود فى من – وما – تراه ، كما تكرر فى المشنا – وهى المجموعة التى ألفت فى عام ١٨٩م عن القانون الذى روى شفاها حتى ذلك التاريخ ، وعن العادات والتقاليد – الحديث عن الحسد ، والشر ، وأمثالهما .

وعلى الرغم من أن فقهاء اليهود لم يتحدثوا حتى القرن الثانى الميلادى عن الاعتقاد فى تأثير العين فى المعين ، إلا أن ذلك لا يعنى أن الاعتقاد فى الحسد لم يكن موجودا حتى ذلك العصر ، لأنه كان محرما من قبل ، وكان الصالحون منهم يستنكرونه ، ويرونه من الذنوب التى لا ينبغى للمؤمن أن يرتكبها ، ففى أسطورة سجلت فى عصر متأخر عن زمن وجودها :

أن الفقيه « سيمون بن يوخاى » وابنه ، أماتا أناسا بالنظرة [أى حسداهم فماتوا] ، وأحدثا خرابا جسيما بواسطة أعينهما الشريرة .

وكثر الحديث فى التلمود فيما بعد عن الحسد والعين الشريرة ، فقد جاء هذا النص فى حكمة تلمودية :

« لو ملكت العين هذه القوة الخارقة ، ما استطاع أى كائن حى الوقوف أمام تأثيرها السيء » .

ومن أكثر النصوص وضوحا على اعتقاد الشعب اليهودى فى تأثير عين العائن فى المعين تأثيرا ماديا مهلكا ، ما ورد عن الفقيه « أمورا » : من أنه عزا كل الأمراض التى تصيب الإنسان إلى الحسد ، فقد أثر عنه قوله :

« أن ٩٩ ٪ من الناس يموتون بواسطة النظرة الخبيثة ، وواحد فى المائة فقط يموت ميتة طبيعية » ، وقد استدل بهذا النص على أن المقصود من الدعاء الذى ورد فى التلمود :

« ليحمك الله من كل الأمراض » .

هو الدعاء بأن يبعد الله عنه أعين الحساد .

وقياسا عليه يكون المعنى المفهوم من دعاء القسيس : « ليحمك الله » — الذى يقوله فى معرض التبريكات— : ليحفظك الله من العين الشريرة .

ولكن لم يسلم هذا الرأى من المعارضة ، فقد وجه كثير من العلماء النقد إلى الفقيه « أمورا » فيما ذهب إليه من أن الحسد سبب للموت ، إذ ذهب « صمويل » — وهو معاصر لـ « أمورا » — إلى أن حالة الإنسان الصحيحة تتعلق بمكونات الهواء الذى يستنشقه ، كما علل الفقيه « خانينا Chanina » والفقيه « جوش بن خانينا Jose bin chanina » البرد الذى يصيب الإنسان بعَدَم انتظام خروج الفضلات ، أى أن السبب فى نزلات البرد حالة الاضطراب الذى تصيب عملية الإفراز .

غير أننا نرى أن الحديث عن الحسد فى القرن الرابع الميلادى أصبح عاديا ، بل إن روايات كثيرة ظهرت فى هذا العصر ، لتفسر غموض أحداث بإرجاع سببها إلى الحسد ، فقد عزا « أباحى » و « رابى » الاضطراب فى العالم ، ومتاعب الناس فى الحياة إلى النظرة الخبيثة ، وهى متمكنة من بنى إسرائيل . ولهذا ضلَّ الشعب الطريق ، فانحنى أمام عِجْل السامرى .

ويعتقد بنو إسرائيل أن الحسد هو السبب فى الكوارث التى حلت بهم ، وإليه يرجع وقوعهم فى الأسر ، وسوقهم إلى بابل مذلولين . كما يرى « أليعازر » : أن « خانينا » و « أزاريا » ماتا بعد إنقاذهما من موقد النار بواسطة كثير من العيون التى سلطت عليهما ، فحسدتهما هذه العيون على هذه المعجزة التى أنقذتهما من الهلاك . ومن بين الاعتقادات فى الحسد عند اليهود : أن النظرة الخبيثة هى التى خطفت التلميذ « أكيباس » . وهكذا كثرت الأساطير فى العصور المتأخرة عن الحسد وأثره ، بل إنه وردت أسماء كثير من الفقهاء ، كانت لهم — حسب اعتقاد الناس — نظرة مميتة ، أى أن أعينهم كانت تصيب المعيون إصابة قاتلة .

ولم يكثر الحديث عن الحسد فى التلمود فقط ، بل جاء الحديث عن القوة

السحرية للعين فى التعاليم السرية القديمة لليهود أيضا ، وهى المعروفة باسم « كبَّالا » ، فقد ورد فيها هذا النص :

« .... إنها خاصية فريدة فى قوة « نيفيش » وجوهره ، كى تؤثر فى العالم لفناء شكله وجوهره ، واستحداث آخر غيره » .

فالأمر يتعلق بقوة وفاعلية بعض هذه الروح التى يطلق عليها « نيفيش » للانتقال إلى جوهر آخر ، لدرجة أن الدخان يخرج بواسطة تخيلاته ، ويميت إنسانا بنظرة خبيثة .

ويرى الكبَّاليون : أن الطبيعة الإنسانية تتكون من عناصر ، هى :

١ - روح « نشماخ » وهى أعلى درجة فى الوجود .

٢ - النفس ، وهى تمثل العلاقة بين الخير والشر ، وبين الغرائز والرغبات ، أو بتعبير آخر : تمثل الملكات الأخلاقية .

٣ - روح « نيفيش » التى تتصل اتصالا مباشرا بالجسم ، وهى مصدر الأعمال والغرائز الحيوانية .

كما تشير النصوص فى كبَّالا إلى تأثير العين فى الأثير :

« يتكون اللوح المحفوظ - وهو الكتاب الذى سجلت فيه كل أعمال الإنسان زمانا ومكانا - من مادة تشبه مادة الأحجار الكريمة ، وهى محيطة بالأثير . وقد احتوى على كل ما يفعله الإنسان ، حتى طرفة العين ، أو فتح الفم ، سواء كان خيرا أم شرا ، ومنها ما يصيب المعيون من جراء نظرة العائن الخبيثة » .

لم يتغير اعتقاد اليهودى فى الحسد حتى العصر الحاضر ، فما زال اليهود يعتقدون حتى الآن فى أن للعين تأثيرا ضارا ، لدرجة هلاك المحسود بمجرد النظر إليه ، ففى نقاش بين امرأة يهودية تعيش فى القدس وبين مجموعة من الأوربيين المنكرين لتأثير العين فيمن تنظر إليه تأثيرا ماديا ، قالت اليهودية لهم : « أنتم معشر الأوربيين لا تعتقدون فى الحسد ، مع أنه حقيقة واقعة ، فثلثا ما يرقدون فى المقابر ماتوا من الحسد ، والثلث الآخر مات بسبب إهمالهم فى

ممارسة الإجراءات التى تقيهم من العين الشريرة ، عين الحسود » .

وليس وجود هذا الاعتقاد بين اليهود قاصرا على من يعيش فى فلسطين فقط ، بل يسيطر هذا الاعتقاد على اليهود فى جميع أنحاء العالم : فى مراكش وتونس ، وأسبانيا ، وتركيا ، وفى بولندا ، وروسيا ، لدرجة أن اليهود فى روسيا يتجنبون الحديث عن العين الشريرة ، بل لا يتلفظون بها فى أحاديثهم تصريحا ، بل كناية ، فلا يقولون : « عين شريرة » ، بل « عين طيبة » وذلك خوفا من تأثيرها عليهم لو ذكرت صراحة[1] .

---

(١) راجع Seligmann ص ١٢ - ١٦ .

الفصل الثانى

الحسد فى الفكر الإسلامى

الحسد فى الفكر الإسلامى

فى المعاجم اللغوية :

لا يختلف الإنسان عن غيره من سائر الكائنات الحية – وخاصة ما يعرف منها : بالحيوان الثديى – إلا بأنه ناطق، ولذا عرفه العلماء : بأنه حيوان ناطق ، وليس مرادهم بالناطق ، أنه ذلك الحيوان ، الذى يصدر أصواتا عن فمه ، فكثير من الحيوانات تصدر مثل تلك الأصوات ، وقد تكون مفهومة بين بنى جنسها ، بل المراد بقولهم : ناطق ، مفكر ، فالإنسان حيوان ناطق ، أى حيوان مفكر لأن ما يتلفظ به ، إنما هو تعبير عن صور فكرية تكونت فى عقله ، فاللفظ هو ثوب الفكرة .

فكيف تولدت الفكرة ؟

وكيف ترجمت إلى لفظ يدل عليها ؟

إننا لو حللنا الحياة الإنسانية إلى أصغر وحداتها ، وجدنا تلك الوحدة الأولية طريقا مؤلفا من ثلاث حلقات ، اثنتان منها ظاهرتان لمن شاء أن يرى ، والثانية مطوية فى جوف الإنسان .

فأولى الحلقات :

هى أن يتلقى الإنسان من العالم الذى حوله « مؤثرات » تقع على حواسِّه المختلفة ، من بصر أو سمع أو غيرهما من أعضاء الحس ، كأن تتلقى العين ضوءا ، أو تتلقى الأذن صوتا .. وهكذا .

والحلقة الثانية :

هى أن تفعل تلك المؤثرات فعلها فى مكونات الكيان العضوى مما قد يسهل تحليله وتحديده ، أو يتعذر ... فهناك مجموعة ضخمة ، ومعقدة ومتشابكة من عناصر تكمن فى بواطننا ، ومنها :

- الغرائز .
- والمشاعر .
- وذكريات عما قد تعلمناه ، ونشأنا عليه .
- واعتقادات ، وعقائد آمنا بها ، حتى أصبحت جزءا لا يتجزأ من نفوسنا .
- قيم بثت فينا منذ كنا صغارا على حجور أمهاتنا ، تراكمت فأصبحت فى توجيهنا مثل الدفة فى السفينة ، وهى هى نفسها التى نحملها كلها فى كلِّ حيٍّ مُوَحَّد ونطلق عليه اسم « الضمير » ....

هذه المكونات التى تكمن على نفوسنا ، هى التى تتلقى المؤثرات الآتية إلينا من العالم المحيط بنا ، فتتأثر على نحو ما ، يختلف باختلاف الأفراد فى الأسرة الواحدة ، أو فى الشعب الواحد ، ثم تختلف بين الشعب الواحد وسائر الشعوب .

وأخيرا تجىء الحلقة الثالثة : وهى النمط السلوكى الذى ينتج عن الطريقة التى تأثرنا بها فى الحلقة الثانية[1] .

ومن المعلوم أن أداة التفكير فى الإنسان تقوم بدور رئيسى فى هذه الحلقات الثلاث ، فهى تدرك ما تتلقاه الحواس من الخارج وتصنفه ، وتعى ما ينتجه من مؤثرات وتحلله ، وتشرف على منافذ السلوك ، فتصوغ ما يصدر من الإنسان من تعبيرات توضح الصورة الفكرية ، التى نتجت عن هذه المراحل كلها . ومن هنا كان اللفظ المنطوق تعبيرا عن الصور الفكرية ، التى تكونت فى ذاكرة الإنسان . واستعمال الإنسان للفظ ، يدل على المعنى الذى يتصوره المستخدم لهذا اللفظ ؛ فالفكر مصدر اللغة ، واستعمال الكلمات فى معنى ما ، دون آخر ، يشير إلى ما يفهمه الإنسان من هذا اللفظ ، إذ اللفظ دليل الفكر ، يقول «**Stephan ullmann** » :

« يجب أن تبدأ الدورة عن طريق الفكرة ، أى عن طريق المحتوى العقلى الذى تستدعيه الكلمة ، والذي يرتبط بالشىء ... فاللفظ هو الصيغة

(١) د / زكى نجيب محمود : هذا الكتاب العربى ، جريدة الراية ١٤/١٠/١٩٨٨ م .

الخارجية للكلمة ، وأما المدلول ، فهو الفكرة التى يستدعيها اللفظ ... وقد مثل لذلك : أنه حين يفكر الإنسان فى منضدة ، فسوف ينطلق بالكلمة التى تدل عليها ، وأن سماعه لهذه الكلمة يجعله يفكر فى المنضدة ، فهذه العلاقة المتبادلة بين اللفظ ومدلوله ، هى ما يمكن أن يطلق عليه مصطلح « المعنى » فالمعنى : هو العلاقة بين اللفظ ومدلوله ، علاقة تمكن كل واحد منهما من استدعاء الآخر[1] .

وبناء عليه – لو أردنا أن نبحث عن مفهوم كلمة « الحسد » عند العرب ، لوجب علينا البحث عن المدلول الذى يفهم من استعمال العربى لهذه الكلمة ، وليس أمامنا الآن سوىٰ المعاجم اللغوية ، لنقف على الفكرة التى يعبر عنها المتلفظ بهذه الكلمة ، والمفهوم الذى ينعكس فى ذهن من يسمعها .

لقد رجعت إلى كل المعاجم اللغوية تقريبا : العين ، لسان العرب ، تاج العروس ، القاموس المحيط ، جمهرة اللغة ، تهذيب اللغة ، معجم الجوهرى ، المعجم الوسيط ، وغيرها ، فوجدت أنها تكاد تكون متطابقة فى شرح معنى هذه الكلمة ، ولهذا فسوف أقتصر على نقل ما جاء فى اثنين منها ، وهما :

– لسان العرب ، وهو يمثل مجموعة المعاجم القديمة .
– والمعجم الوسيط ، وهو يمثل المجموعة الحديثة .

جاء فى لسان العرب :

حَسَده ، يَحْسِده ، ويَحْسُدُه ، حسداً ، وحَسَدة : إذا تمنى أن يتحول إليه نعمته وفضله ، أو يسلبها هو .

قال الشاعر :

وترى اللبيب مُحَسَّدا لم يجترم   شَتْم الرجال وعرضه مشتوم

والغبط : أن يتمنى أن يكون له مثلها ، ولا يتمنى زوالها عنه .

(١) انظر : د / السيد أحمد عبد الغفار ص ١٣٩ – ١٤٠ .

قال الأزهرى :

الغبط : ضرب من الحسد ، وهو أخف منه ، ألا ترى أن النبى ﷺ لما سئل : هل يضر الغبط ؟ فقال : نعم كما يضر الخبط[1] .

وأصل الحسد : القشر ، كما قال ابن الأعرابى : وحسده على الشىء ، وحسده إياه ، قال يصف الجن ، مستشهدا على حسدتك الشىء ، بإسقاط على :

أتوا نارى فقلت : منون أنتم   فقالوا: الجنُّ، قلت: عموا ظلاما
فقلتُ : إلى الطعام ، فقال منهم   زعيم : نحسد الإنس الطعاما

وورد فى المعجم الوسيط :

حسده حسداً : تمنى أن تتحول إليه نعمته ، أو أن يسلبها .

ويقال : حسده النعمة ، وحسده عليها .

وتقول العرب : حسدنى الله إذا كنت أحسدك ، أى عاقبنى الله على حسدى إياك . أحسده : وجده حاسدا .

تحاسدا : حسد كل منهما الآخر .

وفى الحديث : لا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا .

الحسود : مَنْ طبعه الحسد ، ذكرا كان أو أنثى . الجمع : حُسُدٌ .

المحسدة : ما يحسد عليه الإنسان من مال ، أو جاه ونحوهما ، يقال : المحسدة مفسدة . ومن هذا يتبين : أن المعاجم لم تذكر للحسد سوى معنيين :

الأول : تمنى زوال نعمة الغير ، وتحويلها إليه ، أو العمل على أن يسلبها منه .

الثانى : تمنى أن يكون له مثل نعمة الغير ، ولا يتمنى زوالها من المحسود ، وهو أخف من الأولى ، ولهذا أطلق عليه : الغبط ، ولا ثالث لهما .

---

(١) الخبط : ضرب ورق الشجر حتى يتحاتّ عنه ، ثم يستخلف من غير أن يضر ذلك بأصل الشجرة وأغصانها .

فى الإنتاج الفكرى :

يلعب الإنتاج الأدبى - شعرا أو نثرا - دورا رئيسيا فى تحديد مدى رقى الأمة فى أفكارها ، وتصوير نوع علاقتها بالقوى المحيطة بها ، وتشكيل أسلوب تعاملها مع مظاهر الطبيعة ، سواء كانت الأسباب والمصادر ظاهرة مرئية ، أم كانت مستورة مخفية ، فهو الذى يرسم خطوط تفكير أبناء المجتمع ، ويحدد معالم تصوراتهم الفكرية عن عالمهم الخارجى ، ويشكل مواقفهم تجاه ما يحدث حولهم من أحداث ، ويبرز درجة الانفعالات ، وفوران الأحاسيس فى المواقف التى ترتبط ارتباطا وثيقا بالعقيدة ، وتتعلق تعلقا مباشرا بالتقاليد والتراث ، سواء كان هذا التعلق قائما على أسس منطقية، أو كان مستمدا قوته وسلطانه، من الإلْف والعادة ، التى لا يستطيع المرء أن يتخلص منها بسهولة ويسر .

ولهذا اعتبره الباحثون من أهم المقاييس - إن لم يكن أهمها - فى مجال دراسة الأمم والشعوب ، لمعرفة تاريخها وحضارتها ، وتحديد معالم دينها وعقيدتها ،وتوضيح عاداتها وتقاليدها،وتصوير منهج التفكير فى فهم الأحداث عند أبنائها ، فهو المرآة التى تعكس كل ما يريد الباحث معرفته عن المجتمع ، والسجل الذى يحتوى على أبعاد هويته ، ويضم بين دفتيه دقائق شخصيته وأسرارها ، فمن يريد استكشاف جانب من جوانب الأمة ، فعليه أن ينظر فى آدابها ليصل إلى غرضه ، ومن يبحث عن منهجها فى التفكير ، فلن يجده بصورة واضحة إلا فى إنتاجها العقلى .

ولهذا سوف نعرض نماذج من إنتاج الفكر العربى الإسلامى ، لنقف على مفهوم الحسد عند المسلمين .

ففى الشعر ورد عن الحسد مايلى :

مجموعة «أ»

١- أتوا نارى فقلت : منون أنتم   فقالوا: الجنُّ، قلت: عموا ظلاماً

٢- فقلتُ: إلى الطعامِ، فقال منهم   زعيم : نحسد الإنس الطعاما

* * *

٣- وترى اللبيب محسداً لم يجترم   شَتْم الرجال ، وعرضه مشتوم

* * *

٤- لا مات أعداؤك بل خلدوا   حتى يروا فيك الذى يكمد
٥- لازلت محسودا على نعمة   فإنما الكامل من يُحسَد

* * *

مجموعة «ب»

٦- ما كان أحوج ذا الكمال إلى   عيب يُوَقِّيه من العين

* * *

٧- وقد عالجوه بالتمائم والرقى   وصبوا عليه الماء من ألم النكس
٨- وقالوا أصابته من الجن أعين   ولو علموا داوَوْه من أعين الإنس

نلاحظ أن معنى الحسد فى المجموعة « أ » لا يخرج عما ورد فى المعاجم اللغوية ، وهو : تمنى زوال نعمة الغير ، فهو بهذا عمل قلبى ، إذ لا يمكن أن يستنتج القارىء لهذه الأبيات : أن المراد من كلمات الحسد الواردة فيها إلحاق الضرر بالآخرين ، عن طريق تأثير العين ، مما يستوجب معه اتخاذ إجراءات الحماية منه ، كما ورد فى البيت رقم (٦) من المجموعة « ب » ، أو ممارسة طقوس تعالج آثاره فى المحسود[1] كما فى البيتين (٧،٨) فى هذه المجموعة ، بل أخذ الشاعر فى البيت الأخير بما شاع بين الناس من أن الجن تحسد الإنس . وهو ما ورد أيضا فى البيت الثانى - ، وذلك لا يبعد كثيرا عما اعتقده الإنسان فى المجتمعات البدائية كما بينا سابقا .

(١) ومن هذا القبيل قول أبى العتاهية :

أصابتْ علينا جودَك العين يا عمرو   فنحن لها نبغى التمائمَ والنُّشَرْ
أصابتكَ عينٌ فى سخائك صُلْبَةٌ   ويارُبَّ عين صُلْبَةٍ تَفلق الحجرْ
سنرقيك بالأشعار حتى تملَّها   فإن لم تُفِقْ منها رَقَيْناك بالسُّوَرْ

النُّشَر : جمع نُشْرة : رقية يعالج بها المجنون أو المريض ، سميت كذلك لأنه ينشر بها ، أى يكشف ويزال بها ، ما خامره من الداء . (ديوان أبى العتاهية ص : ٢١٦) .

فمعنى الحسد فى المجموعة الأولى مطابق لما ورد فى المعاجم اللغوية ، أما معناه فى المجموعة الثانية ، فقد ترجم عن جذور ثقافية ، غاصت فى أعماق التاريخ ، لترينا عقائد وسلوكيات بدائية ، انتشرت فى المجتمعات المعاصرة ، على الرغم من وضوح التعاليم الدينية وانتشارها ، وبيانها الناصع لمعنى الحسد ، بيانا لا يسمح ببقاء التصور البدائى له ، إلا بتأول متعسف لا تحتمله لغة ، ولا يقبله عقل أو منطق .

ومن الغريب أن هذا المعنى البدائى للحسد لا زال منتشرا بين المثقفين وأرباب الأقلام فى منتديات الفكر والمجامع العلمية ، وكذلك بين الباحثين فى المعامل ، وأصحاب المنهج التجريبى فى مجال التنظير العلمى ، وتصحيح المبادىء والمسلمات الفكرية .

فإذا تركنا الشعر وولينا وجهنا نحو النثر ، سواء كان أدبا يخاطب الوجدان والعواطف ، أم فلسفة تغذى العقول ، وتشحذ الأفكار ، أم عقيدة تحيى القلوب ، وتُقوِّم السلوك ، فتمحو من المجتمع ما انحرف من التقاليد والآثار ، وتقضى على الضلال فى عالم الثقافة ومنبع الأفكار ، وجدنا صورا متعددة لمعنى الحسد ، وأساليب مختلطة بعضها ببعض فى مجال التدليل على صحة هذا الرأى أو ذاك ، فالمناهج متداخلة ومتشابكة ، إذ نجد الساحة مليئة بأنواع شتى من المعانى فمنهم :

- من يرى أن الحسد أمر قلبى ، وينكر تأثير العين فى المحسود .
- ومن يدافع عن وجهة النظر القائلة : بأن للعين إشعاعا يصيب المعيون ، وقد تكون إصابته قاتلة ومهلكة للحرث والنسل .

كما أن منهم :

- من يؤيد كتابة الأحجبة والتمائم درءا للحسد .
- ومن يكتفى بالتعاويذ الشفوية ، مُحرِّما تعليق التمائم والأحجبة ، حتى ولو كانت نصوصا دينية . ويستدل كلٌّ على رأيه بأدلة من كل نوع :
- طبيـــة .

– ونفسيـة .

– تاريخيـة .

– ودينيـة .

غير أن من الملاحظ أن الاستدلال بالنصوص الدينية قاسم مشترك بين الجميع تقريبا ، فمعظم الذين يتناولون موضوع الحسد – سواء كان ذلك كتابة ، أم حديثا شفويا – يستدلون على آرائهم بآية من القرآن الكريم ، أو بحديث نبوى .

ولهذا سوف نجد فى النصوص التى سنتشهد بها فى عرضنا لموضوع الحسد عند المسلمين كثيرا من الآيات والأحاديث ، حتى عند الفلاسفة .

* * *

يعلل الجاحظ الإصابة بالعين ، بأن لكل حادث سببا ، وما دامت الإصابة لا سبب لها سوى رؤية العائن ، فينبغى التصديق : بأنه قد انفصل شىء من عين العائن ، فأصاب المعيون ، جاء ذلك فيما كتبه تحت عنوان : « الكلام فى الحسد » فى كتاب « الحيوان » ، إذ يقول :

« قالوا : ولولا فاصل ينفصل من عين المستحسِن إلى بدن المستحسَن حتى يكون ذلك الداخل عليه ، هو الناقض لقواه ، لما جاز أن يلقى مكروها ، وكيف يلقى المكروه مَن انساق فى حيزه وموضعه ، والذى أصابته العين فى حيزه أيضا وموضعه ، من غير تماس ولا تصادم ، ولا فاصل ، ولا عامل لاق معمولا فيه . ولا يجوز أن يكون المعتل بعد صحته يعتل من غير معنى بدنُه ، ولا تنتقض الأخلاط ، ولا تتزايل ، إلا لأمر يعرض ، لأنه حينئذ يكون ليس بأولى بالانتقاض من جسم آخر ، وإن جاز للصحيح أن يعتل من غير حادث ، جاز للمعتل أن يبرأ من غير حادث . وكذلك القول فى الحركة والسكون . وإذا جاز ذلك كان الغائب قياسا على الحاضر الذى لم يدخل عليه شىء من مستحسِنٍ له . فإذا كان لابد من معنى قد عمل فيه ، فليس لذلك المعنى وجه ، إلا أن يكون انفصل إليه شىء عمل فيه ، وإلا فكيف يجوز أن يعتل

من ذات نفسه وهو على سلامته وتمام قوته ، ولم يتغير ، ولم يحدث عليه ما يغيره ، فهو وجسم غائب فى السلامة من الأعراض سواء . وهذا جواب المتكلمين الذين يصدقون بالعين »[1] .

فهل يفهم من الجملة الأخيرة أن الجاحظ ناقل رأى الآخرين ، وليس هذا رأيه ؟

ربمـــا !!

وسواء كان هذا رأيه ، أم رأى المتكلمين ، أم سواهم ، فإن التعليل غير سليم ؛ إذ لا يلزم من عدم معرفة سبب الإصابة ، الجزم بأن العين هى السبب ، فقد كان الإنسان فى المجتمعات البدائية ينسب الأمراض التى لا يعرف سببها إلى العين ، لأنه لم يكن لديه القدرة على اكتشاف مسببات المرض : من فيروس وبكتريا وغيرهما، فلما اكتشفها ، وأرجع كل مرض إلى سببه ، لم يعد هناك فى فكر الإنسان مكان للاعتقاد بأن العين سبب هذه الأمراض التى اكتشف أسبابها ، فاختفت هذه الظاهرة عند كل مَنْ وقف على الأسباب ووعاها .

غير أننا نلاحظَ أن الجاحظ كان يعتقد فى الحسد بمعناه المؤثر فى المعين ، عن طريق إشعاعات تنبعث من عين العائن ، وذلك من كلامه عن اعتقاد السابقين فى إصابة عين السباع ، والكلاب ، والسِّنَّور ، حيث نقل إلينا أن :

« علماء الفرس والهند ، وأطباء اليونانيين ، ودهاة العرب ، وأهل التجربة من نازلة الأمصار ، وحذاق المتكلمين ، كانوا يكرهون الأكل بين أيدى السباع ، يخافون نفوسها وأعينها ، للذى فيها من الشره والحرص ، والطلب والْكَلَب ، ولِمَا يتحلل عند ذلك من أجوافها من البخار الردىء ، وينفصل من عيونها من الأمور المفسدة ، التى إذا خالطت طباع النفس نقضته .

وقد روى مثل ذلك عن الثورى ، عن سماك بن حرب ، عن ابن عباس : أنه قال على منبر البصرة :

---

(١) الجاحظ جـ ٢ ص ١٣٣ - ١٣٤ .

إن الكلاب من الحن[1] وإن الحن من ضعفة الجن ، فإذا غشيكم منها شىء ، فألقوا إليها شيئا واطردوها ، فإن لها أنفس سوء .

ولذلك كانوا يكرهون قيام الخدم بالمذاب والأشربة على رءوسهم وهم يأكلون ، مخافة النفس والعين ، وكانوا يأمرون بإشباعهم قبل أن يأكلوا ، وكانوا يقولون فى السِّنَّور والكلب : إما أن تطرده قبل أن تأكل ، وإما أن تُشْغِله بشىء يأكله ، ولو بعظم .

ورأيت بعض الحكماء وقد سقطت من يده لقمه ، فرفع رأسه ، فإذا عين غلام له تحدق نحو لقمته ، وإذا الغلام يزدرد ريقه ، لتحلُّب فمه من الشهوة . وكان ذلك الحكيم جيد اللَّقْم ، طيِّب الطعام ، ويُضيِّق على غلمانه .

فيزعمون أن نفوس السباع وأعينها فى هذا الباب أردأ ، وأخبث . وبين هذا المعنى وبين قولهم فى إصابة العين الشىء العجيبَ المستحسن شركةٌ وقرابة ، وذلك أنهم قالوا : قد رأينا رجالا ينسب ذلك إليهم ، وأريناهم ، وفيهم من إصابة العين مقدار من العدد ، لا نستطيع أن نجعل ذلك النسق من باب الاتفاق . وليس إلى رد الخبر سبيل ، لتواتره ، وترادفه ، ولأن العيان قد حققه ، والتجربة قد ضمت إليه[2] .

فإخباره :

بأنهم رأوا عددا كبيرا من الرجال مصابين بالعين ، بحيث لا يمكنهم أن يُعزوا ذلك إلى الصدفة .

ورفضه :

رد هذه الأخبار التى تثبت قدرة العين على إصابة المعيون ،
لتواترها ،
ولأن الرؤية أكدتها ،
والتجربة دعمتها .

---

(١) الحن بالحاء المهملة : طائفة من الجن .

(٢) المصدر السابق ص ١٣١ - ١٣٢ .

يفيـد :

بأنه كان من المؤمنين بالحسد ، لا بمعناه النفسى فقط ، بل بأن للعين تأثيرا ماديا على المعين ، يمكن أن يؤدى به إلى الهلاك ، خاصة وأنه أردفه بالحديث عن العين التى أصابت سهل بن حنيف .

ونرى هذا الاعتقاد أكثر وضوحا عند إخوان الصفا ، إذ نقرأ فى رسائلهم هذا النص :

« ... فقد رأينا كثيرا من يصرع الإنسان فى أقل من ساعة ، إذا جلس بين يديه . وإنما ذلك أثر لطيف يبدُر من نفس ، فيعمل فى نفس أخرى ، كما يبدُر الشرر من النار ، فيقع فى الأجرام ، فيحرقها ، إلا أن الذى يبدر من النفس روحانى لطيف ، لأنه يخرج من النفس اللطيفة ، ويعمل فى لطيفة مثلها . والذى يخرج من النار هو أكثف منه على قدر كثافة النار ، ويعمل فى الأجرام الكثيفة ، ويكون سبب هذا الأثر .

إذا نظرت وتصورت صورة المنظور إليه فى الفكر ، والفكر هو إحدى حواس النفس الناطقة ، ومؤدى ما يحيط به إلى نفس ، بدر من النفس بادر ، فأثر فى نفس المنظور إليه فصرعه ، وهذا موجود فى الملقوعين[1] .

وكثير من الناس من يدفع هذا ، ولا يؤمن به ، ولا يصدقه ، وهو شىء واضح مشاهد ، وما نسمعه دائما ... وقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « السحر حق ، والعين حق » ، وروى عنه : أن رجلا لُقِع صعداً[2] – وهذا أيضا حديث مشهور – وإنما أمر الرجل أن يغسل له ، ليزول عن الملقوع ما أثرت فيه العين بما بدر منها ، وأن يزول ذلك بما يبدر منه ، ولأنه ﷺ علم ذلك بخصوصيته وكيفيته ، وعرف السبيل فدل عليه »[3] .

---

(١) الملقوع : من أصابته العين .

(٢) صعدا : شديدا .

(٣) رسائل إخوان الصفا جـ ٤ ص ٣٠٩ – ٣١٠ .

بل إنهم اعتقدوا فى تأثير الرقى ، والعزائم ، وغيرهما ، مما يجعلهم لايختلفون كثيرا – على الرغم من تصنيفهم فى عداد الفلاسفة وكبار المفكرين – فى هذا الاعتقاد عمن كانوا يعيشون فى المجتمعات المتخلفة ، حيث انتشرت خرافة الاعتقاد فى الحسد ، وتأثير الرقى والعزائم فى درء إصابته ، أو العلاج منها ، فقد جاء فى رسائلهم :

« ... وأما هذه الرقى ، والنشر[1]، والعزائم ، وما يشاكلها ، فإنها آثار لطيفه روحانية من النفس الناطقة ؛ تؤثر فى النفس البهيمية ، وفى الحيوان ، فمنها :

– ما يحركها ويزعجها ،

ومنها :

– ما يقمعها ،

ومنها :

– ما يعمل فيها بتأثيرات قوية أعمالا مختلفة .

فيها إصابة بالعين ، وربما شجَّه ، وربما صرعه[2] .

أى فرق بين هذا الرأى ، وبين ما ذكرناه سابقا عن المجتمعات البدائية ؟

وما مصدر هذا الاعتقاد ، إذا لم يكن بقايا من فكر الإنسان فى العصور الأولى من حياة البشرية ؟

أما ما ورد فى نصوصهم – وكذلك ما سيذكر فى نصوص الآخرين – من أحاديث نبوية ، فسوف يكون لنا معها وقفة ، عندما نفرغ من عرض آراء المؤيدين والمعارضين لتأثير عين العائن .

ويعتبر ابن القيم من أشد المؤمنين بتأثير العين ، حيث جمع الأحاديث التى تتعلق بهذا الموضوع ، سواء كانت خبرا عن الإصابة بالعين ، أو وصية بالرقى

(١) النشرة : رقية يعالج بها المجنون أو المريض . سميت بذلك ، لأنه ينشر بها ما خامره من الداء ، أى يُكشَف ويزال .

(٢) المصدر السابق جـ ٤ ص ٣٠٩ .

لدرء الحسد ، أو لعلاج إصابته . فمما أورده فى إصابة عين الإنس والجن ، ما روى عن أبى سعيد : أن النبى ﷺ كان يتعوذ من الجان ، ومن عين الإنسان .

ثم يعقب على ذلك بالهجوم على من ينكر الإصابة بالعين ، فيقول :

« ... فأبطلت طائفة – قل نصيبهم من السمع والعقل – أمر العين ، وقالوا : إنما ذلك أوهام لا حقيقة لها ، وهؤلاء من أجهل الناس بالسمع والعقل ، ومن أغلظهم حجابا ، وأكثفهم طباعا ، وأبعدهم من معرفة الأرواح ، والنفوس ، وصفاتها ، وأفعالها ، وتأثيراتها .

وعقلاء الأمم – على اختلاف مللهم ونحلهم – لا تدفع أمر العين ، ولا تنكره ، وإن اختلفوا فى سببه ، ووجهة تأثير العين ، فقالت طائفة : إن العائن إذا تكيفت نفسه بالكيفية الرديئة ، انبعثت من عينه قوة سُمِّية تتصل بالمَعِين فيتضرر . قالوا :

ولا يستنكر هذا ، كما لا يستنكر انبعاث قوة سُمِّية من الأفعى ، تتصل بالإنسان فيهلك ، وهذا أمر قد اشتهر عن نوع من الأفاعى : أنها إذا وقع بصرها على الإنسان هلك ، فكذلك العائن .

« إذا وقع بصره على المعين حدثت فى نفسه كيفية سُمِّية أثَّرت فى المعين ، بحسب عدم استعداده ، وكونه أعزل من السلاح ، وبحسب قوة تلك النفس ، وكثير من هذه النفوس يؤثر فى المعين إذا وصف له ، فتتكيف نفسه ، وتقابله على البعد ، فيتأثر به ، ومنكر هذا ليس معدودا من بنى آدم ، إلا بالصورة والشكل[1] .

---

(١) ابن القيم : مدارج السالكين جـ ١ ص ٥٦ – ٥٧ ، ويعلق المحقق على ذلك فيقول : « هذا باعتقاد الشيخ رحمه الله وغفر لنا وله ، ولو أن الأمر كما ذكر ، لاستطاع كل يهودى ونصرانى ومشرك ، بل وكل عدو : أن يؤذى عدوه بإرسال تلك السموم – التى صورها الشيخ – من أشعة عينه ، فتقتله ، كما يقتله لسع الحية ، ولدغ الثعبان » .

وقالت فرقة أخرى :

لا يستبعد أن ينبعث من عين بعض الناس جواهر لطيفة غير مرئية ، فتتصل بالمعين ، وتتخلل مسام جسمه ، فيحصل الضرر .

وقالت طائفة أخرى :

قد أجرى الله العادة ، يخلق ما يشاء من الضرر عند مقابلة عين العائن لمن يَعِينُه ، من غير أن يكون منه قوة ، ولا سبب ، ولا تأثير أصلا .

وهذا مذهب منكرى الأسباب ، والقوى ، والتأثيرات فى العالم . وهؤلاء قد سدوا على أنفسهم باب العلل ، والتأثيرات ، والأسباب ، وخالفوا العقلاء أجمعين .

ولا ريب أن الله سبحانه وتعالى خلق فى الأجسام والأرواح قوى وطبائع مختلفة ، وجعل فى كثير منها خواص وكيفيات مؤثرة ، ولا يمكن لعاقل إنكار تأثير الأرواح فى الأجسام ، فإنه أمر مشاهد محسوس ، وأنت ترى الوجه : كيف يحمر حمرة شديدة ، إذا نظر إليه من يحتشمه ، ويستحى منه ، ويصفر صفرة شديدة عند نظر من يخافه إليه . وقد شاهد الناس من يسقم من النظر وتضعف قواه . وهذا كله بواسطة تأثير الأرواح . ولشدة ارتباطها بالعين ينسب الفعل إليها، وليست هى الفاعلة، وإنما التأثير للروح والأرواح مختلفة :

فى طبائعها .

وقواهـا .

وكيفياتهـا .

وخواصهـا .

فروح الحاسد مؤذية للمحسود أذى بَيِّناً ، ولهذا أمر الله – سبحانه – رسوله أن يستعيذ به من شره[1] .

ومما يسترعى الانتباه : أنه يرى أن الإصابة تحدث ، حتى ولو كان العائن

(١) ابن القيم : زاد المعاد جـ ٤ ص ١٦٥ — ١٦٦ .

أعمى ، لأن خبث النفس هو مصدر الضرر الأصلى ، حيث يقول :

« ... والتأثير غير موقوف على الاتصالات الجسمية ، كما يظنه من قل علمه ومعرفته بالطبيعة ، والشريعة ، بل التأثير يكون تارة بالاتصال ، وتارة بالمقابلة ، وتارة بالرؤية ، وتارة بتوجيه الروح نحو من تؤثر فيه ، وتارة بالأدعية ، والرقى ، والتعويذات ، وتارة بالوهم ، والتخيل .

ونفس العائن لا تتوقف تأثيرها على الرؤية ، بل قد يكون أعمى ، فيوصف له الشيء ، فتؤثر نفسه فيه ، وإن لم يره ، وكثيرا من العائنين يؤثر فى المعين بالوصف من غير رؤية[1] .

جمع ابن القيم الأحاديث التى وردت فى الحسد[2] ، سواء كانت تخبر بآثار العين المهلكة للمعيون ، أم كانت ترشد إلى طرق الوقاية منه ، أم تعالج الإصابة بعد وقوعها ، فمما ذكره **فى إصابة العين** مايلى :

روى مسلم فى « صحيحه » عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « العين حق ، ولو كان شيء سابق القدر ، لسبقته »[3] .

وفى حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « العين حق »[4]

ويذكر عن جابر يرفعه : « إن العين لتدخل الرجل القبر ، والجمل القدر »[5] .

---

(١) المصدر السابق : ص ١٦٧ .

(٢) راجع المصدر السابق ص ١٦٢ – ١٧٤ .

(٣) أخرجه مسلم (٢١٨٨) فى السلام : باب الطب والمرض والرقى .

(٤) أخرجه البخارى ١٠/١٧٣ فى الطب : باب العين حق ، ومسلم (٢١٨٧) فى السلام : باب الطب والمرض والرقى .

(٥) حديث ضعيف ، أخرجه أبو نعيم فى « الحلية » ٧/٩٠ ، وابن عدى ، والخطيب فى « تاريخه » ٩/٢٤٤ من حديث جابر بن عبد الله بلفظ : « العين تدخل الرجل القبر ، وتدخل الجمل القدر » ، وقد تفرد به شعيب بن أيوب ، عن معاوية عن هشام . قال الصابونى : وبلغنى أنه قيل له : ينبغى أن تمسك عن هذه الرواية ، ففعل . وقال الذهبى فى « الميزان » فى ترجمة شعيب بن أيوب : وله حديث منكر ، ذكره الخطيب فى « تاريخه » ، يريد هذا الحديث .

وفى الرقية :

وفى صحيح مسلم عن أنس ، أن النبى ﷺ رخص فى الرقية من الحُمَة ، والعين ، والنملة[1] .

وذكر الترمذى ، من حديث سفيان بن عيينة ، عن ابن دينار ، عن عروة بن عامر ، عن عبيد بن رفاعة الزرقى : أن أسماء بنت عميس ، قالت : يا رسول الله ! إن بنى جعفر تصيبهم العين ، أفأسترقى لهم ؟ فقال : « نعم ، فلو كان شيء يسبق القضاء لسبقته العين »[2] .

وصح عن أم سلمة : أن النبى ﷺ رأى فى بيتها جارية فى وجهها سفعة ، فقال : « استرقوا لها ، فإن بها النظرة »[3] .

وفى الوقاية من إصابة العين ، يقول :

وإذا كان العائن يخشى ضرر عينه ، فليدفع شرها بقوله : اللهم بارك عليه ، كما قال النبى ﷺ لعامر بن ربيعة ، لما عاين سهل بن حنيف : ألا بَرَّكت « أى قلت : اللهم بارك عليه ... ومن التعوذات والرقى : الإكثار من قراءة المعوذتين ، وفاتحة الكتاب ، وآية الكرسى ، ومنها التعوذات النبوية :

نحو : أعوذ بكلمات الله التامة من شر ما خلق .

ونحو : أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة .

---

(١) أخرجه مسلم (٢١٩٦) فى السلام : باب استحباب الرقية من العين ، والنملة والحمة ، والنظرة . والحمة بالتخفيف : السم ، ويطلق على إبرة العقرب للمجاورة ، لأن السم يخرج منها . والنملة : قروح تخرج فى الجنب .

(٢) أخرجه الترمذى (٢٠٥٩) ، وقال : حديث حسن صحيح ، واحمد ٤٣٦/٦ وابن ماجه (٣٥١٠) وسنده جيد .

(٣) أخرجه البخارى ١٧١/١٠ ، ١٧٢ فى الطب : باب رقية العين ، ومسلم ٢١٩٧ . فى السلام : باب رقية العين .

والسفعة - بفتح السين - ويجوز ضمها ، وسكون الفاء - : سواد فى الوجه ، ومنه سفعة الفرس : سواد ناصيته . وعن الأصمعى : حمرة يعلوها سواد ، وقيل : صفرة وقيل : سواد مع لون آخر . وقال ابن قتيبة : لون يخالف لون الوجه وكلها متقاربة .

ونحو : أعوذ بكلمات الله التامات التى لا يُجَاوزُهُنَّ بَرٌّ ولا فاجر ، من شر ما خلق وذَرَأ ، وبَرَأ ، ومن شر ما يُنزِل من السماء ، ومن شر ما يَعْرُج فيها ، ومن شر ما ذَرَأ فى الأرض ، ومن شر ما يخرج منها ، ومن شر فِتَن الليل والنهار ، ومن شر طوارق الليل ، إلا طارقا يطرق بخير ، يارحمن .

ومنها : أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه ، ومن شر عباده ، ومن همزات الشياطين ، وأن يحضرون .

ومنها : اللهم إنى أعوذ بوجهك الكريم ، وكلماتك التامات من شر ما أنت آخذ بناصيته ، اللهم أنت تكشف المأثم والمغرم ، اللهم إنه لا يُهْزَم جُندُك ولا يُخْلَفُ وعدُك ، سبحانك وبحمدك .

ومنها : أعوذ بوجه الله العظيم ، الذى لا شىء أعظم منه ، وبكلماته التامات التى لا يُجاوِزُهُنَّ بَر ولا فاجر ، وأسماء الله الحسنى ، ما علمت منها ، وما لم أعلم من شر ما خلق ، وذرأ وبرأ ، ومن شر كل ذى شر لا أطيق شره ، ومن شر كل ذى شر أنت آخذ بناصيته ، إن ربى على صراط مستقيم .

ومنها : اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت ، عليك توكلت ، وأنت رب العرش العظيم ، ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، أعلم أن الله على كل شىء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شىء علما ، وأحصى كل شىء عددا ، اللهم إنى أعوذ بك من شر نفسى ، وشر الشيطان وشركه ، ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ، إن ربى على صراط مستقيم .

وإن شاء قال : تحصنت بالله الذى لا إلٰه إلا هو ، إلٰهى ، وإلٰه كل شىء واعتصمت ربى ورب كل شىء ، وتوكلت على الحى الذى لايموت واستدفعت الشر بلا حول ولا قوة إلا بالله ، حسبى الله ونعم الوكيل ، حسبى الرب من العباد ، حسبى الخالق من المخلوق ، حسبى الرازق من المرزوق ، حسبى الذى هو حسبى ، حسبى الذى بيده ملكوت كل شىء ، وهو يجير ولا يجار عليه ، حسبى الله وكفى ، سمع الله لمن دعا ، ليس وراء الله مرمى ، حسبى الله لا إلٰه إلا هو ، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم .

ومما يدفع به إصابة العين قول :

ما شاء الله لا قوة إلا بالله . روى هشام بن عروة ، عن أبيه : أنه كان إذا رأى شيئاً يعجبه ، أو دخل حائطا من حيطانه قال : ما شاء الله لا قوة إلا بالله .

ومنها : رقية جبريل عليه السلام للنبى ﷺ ، التى رواها مسلم فى « صحيحه » .

« بسم الله أرقيك ، من كل شيء يؤذيك ، من شر كل نفس ، أو عين حاسد ، الله يشفيك ، باسم الله أرقيك »[1] .

ومن جرب هذه الدعوات والعُوَذ[2] – هكذا يقول ابن القيم – عرف مقدار منفعتها ، وشدة الحاجة إليها ، وهى تمنع وصول أثر العائن ، وتدفعه بعد وصوله ، بحسب إيمان قوة قائلها ، وقوة نفسه ، واستعداده ، وقوة توكله وثبات قلبه ، فإنه سلاح ، والسلاح بضاربه .

وفى علاج آثار عين الحسود ، نقل ابن القيم الأحاديث التالية :

ورد فى سنن أبى داود ، عن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان يؤمر العائن فيتوضأ ، ثم يغتسل منه المعين »[3] .

وروى مالك رحمه الله ، عن ابن شهاب ، عن أبى أمامة بن سهل بن حنيف ، قال : رأى عامرُ بن ربيعة ، سهل بن حُنَيْف يغتسل ، فقال : والله ما رأيت كاليوم ولا جلد مُخَبَّأة . قال فلبُط[4] سهل ، فأتى رسولُ الله ﷺ عامراً ، فتغيظ عليه ، وقال : « علام يقتل أحدكم أخاه ألا برَّكت : اغتسل له ، فغسل عامر وجهه ويديه ، ومرفقيه ، وركبتيه ، وأطراف رجليه ،

---

(١) أخرجه مسلم (٢١٨٥) فى السلام : باب الطب والمرض والرقى .

(٢) حرصنا على نقل كل التبريكات والتعويذات التى سجلها ابن القيم فى كتابه « زاد المعاد » لرسم صورة كاملة لأبعاد هذه الظاهرة ، حتى يتضح مدى الخوف الذى يسيطر على المؤمنين بالحسد من عين العائن ، وسوف نوضح فيما بعد الجوانب النفسية التى وردت فى هذه النصوص لمعالجتها .

(٣) أخرجه أبو داود (٣٨٨٠) فى الطب : باب ما جاء فى العين . ورجاله ثقات وإسناده صحيح .

(٤) لُبِطَ : سقط من قيام وصُرِع ، أى ضرب بنفسه الأرض من داء أو أمر يغشاه مفاجأة .

وداخلة إزاره فى قدح ، ثم صب عليه ، فراح مع الناس »[1] .

وروى مالك رحمه الله أيضا ، عن محمد بن أمامة بن سهل ، عن أبيه هذا الحديث ، وقال فيه :

« إن العين حق ، توضأ له ، فتوضأ له »[2] .

وذكر عبد الرزاق ، عن معمر ، عن ابن طاووس ، عن أبيه مرفوعا :

« العين حق ، ولو كان شيء سابق القدر ، لسبقته العين ، وإذا استغسل أحدكم فليغتسل »[3] .

قال الزهرى :

يؤتى الرجل العائن بقدح ، فيدخل كفه فيه ، فيتمضمض ، ثم يمجه فى القدح ، ويغسل وجهه فى القدح ، ثم يدخل يده اليسرى فيصب على ركبته اليمنى فى القدح ، ثم يدخل يده اليمنى ، فيصب على ركبته اليسرى ، ثم يغسل داخلة إزاره ، ولا يوضع القدح فى الأرض ، ثم يصب على رأس الرجل ، الذى تصيبه العين من خلفه صبة واحدة[4] .

وذهب ابن القيم إلى أن هذا العلاج لا يفيد إلا من آمن بوقوع الحسد ، وصدق بفاعلية هذا العلاج الموصوف ، حيث قال :

« ولا ينتفع به من أنكره ، أو سخر منه ، أو شك فيه ، أو فعله مجربا ، لا يعتقد أن ذلك ينفعه »[5] .

---

(١) أخرجه مالك فى « الموطأ » ٩٣٨/٢ ، فى أول كتاب العين . ورجاله « ثقات » .

(٢) أخرجه مالك فى « الموطأ » ٩٣٨/٢ ، وابن ماجه (٣٥٠٩) ، وأخرجه أحمد ٤٨٦/٣ ، ٤٨٧ من طريق الزهرى ، عن أبى أمامة بن سهل بن حنيف : أن أباه حدثه ... ورجاله « ثقات » ، وإسناده صحيح ، وصححه ابن حبان (١٤٢٤) .

(٣) أخرجه عبد الرزاق فى « المصنف » (١٩٧٧٠) ، وإسناده صحيح لكنه مرسل ، وقد وصله مسلم فى « صحيحه » من طريق وهب ، عن ابن طاووس عن أبيه ، عن ابن عباس ...

(٤) ذكره البيهقى فى « السنن » ٣٥٢/٩ عقب حديث سهل .

(٥) ابن القيم : جـ ٤ ص ١٧١ .

ومن المعتقدات التى تتعلق بالحسد :

أن على من عنده من المحاسن ما يحسد عليها ، أن يسترها ، وقاية من عين العائن ، سجل ذلك ابن القيم ، فقال :

« .. والاحتراز منه ستر محاسن من يُخَاف عليه العين بما يردها عنه ، كما ذكر البغوى فى كتابه « شرح السنة » :

أن عثمان رضى الله عنه رأى صبيا مليحا ، فقال : دسِّموا نونَتَه ، لئلا تصيبه العين .

ثم قال فى تفسيره :

ومعنى دسموا نونته ، أى سودوا نونته ، والنونة : النقرة التى تكون فى ذقن الصبى الصغير .

وقال الخطابى فى « غريب الحديث » له عن عثمان : أنه رأى صبيا تأخذه العين ، فقال : دسموا نونته . فقال أبو عمرو : سألت أحمد بن يحيى عنه ، فقال : أراد بالنونة : النقرة التى فى ذقنه . والتدسيم : التسويد أراد : سودوا ذلك الموضع من ذقنه ، ليرد العين .. ومن هذا أخذ الشاعر قوله :

وما كان أحوج ذا الكمال إلى عيب يُوَقِّيه من العين

ومن الرقى التى ترد العين ما ذكر عن أبى عبد الله الساجى :

أنه كان فى بعض أسفاره للحج ، أو الغزو ، على ناقة فارهة ، وكان فى الرفقة رجل عائن ، قلما نظر إلى شىء إلا أتلفه ، فقيل لأبى عبد الله : احفظ ناقتك من العائن ، فقال : ليس له إلى ناقتى سبيل ، فأخبر العائن بقوله : فتحيَّن غيبة أبى عبد الله ، فجاء إلى رحله ، فنظر إلى الناقة ، فاضطربت وسقطت ، فجاء أبو عبد الله ، فأخبِر أن العائن قد عانها ، وهى كما ترى فقال : دُلُّونى عليه ، فدُلّ ، فوقف عليه ، وقال : بسم الله ، حبسٌ حابسٌ ، وحجرٌ يابسٌ ، وشهاب قابسٌ ، رددت عين العين عليه ، وعلى أحب الناس إليه ، ﴿ **فارجع البصر هل ترى من فطور * ثم ارجع البصر كرتين ينقلب**

إليك البصر خاسئا وهو حسير ﴾[1] .

فخرجت حدقتا العائن ، وقامت الناقة لا بأس بها[2] .

يستنتج من كلام ابن القيم مايلي :-

١ - ليس الحسد حالة نفسية تصيب الحسود فقط ، بل لعين العائن آثار ضارة تصيب المعيون ، قد تصل إلى حد إدخال الرجل القبر والجمل القدر ، أى أن العائن قادر على إماتة الأحياء ، وإهلاك الزرع والضرع حتى ولو كان أعمى ..

٢ - على المرء أن يتقى ضرر الحسد بالرقى والتعويذات ، وكذلك بستر المحاسن التى يخشى أن تكون سببا فى إصابة العائن للمعيون .

٣ - من طرق علاج المحسود الذى أصابته عين الحسود ، حمل العائن على أن يغسل أطرافه ، وداخلة إزاره ، ثم يصب الماء المستعمل على رأس المصاب دفعة واحدة .

٤ - استدل ابن القيم على هذا كله بأحاديث وردت فى كتب السنة ، وبأحداث رويت فى كتب التراث ، كتلك الحادثة التى وقعت لأبى عبد الله الساجى . **وسوف نناقش هذه النقاط لنبين مدى صحتها ، ومدى حجية** الأدلة التى استند إليها ابن القيم ، وذلك بعد عرض آراء المنكرين ، وبيان مفهوم الحسد فى القرآن الكريم .

المنكـرون :

ونقصد بالإنكار : إنكار أن يكون لعين العائن تأثير ضار ، يصيب المعيون ، بمجرد النظر إليه ، فيمرض ، أو يموت ، إذا كان إنسانا ، وتصيبه آفة ، أو يهلك كلية ، إذا كان غير إنسان ، كالمال والممتلكات الأخرى ، لأن الحسد بمعناه النفسى لا ينكره أحد ، فهو أمر مسلم به ، إذ لا يخلو منه مجتمع ، مهما ارتفع قدر الإنسان فى مجال الصفاء الروحى ، وهذبت أخلاقه المبادىء

---

(١) سورة الملك : الآيتان ٣ - ٤ .

(٢) ابن القيم ص ١٧٣ - ١٧٤ .

السامية ، وقومت سلوكه العقائد الراقية .

فالحسد ظاهرة نفسية لا يتعدى أثرها العائن ، مالم يتبعه عمل ملموس من أعمال الجوارح ، يقصد به سلب المحسود ما أورث العلة فى قلب الحسود ، فقد ذكر ابن تيمية أن الحسد من أمراض القلوب ، وهو – هكذا يستمر ابن تيمية فى حديثه عن الحسد – تمنى زوال النعمة ، عن المحسود ، وإن لم يَصِرْ للحاسد مثلها . بخلاف الغبطة ، فإنه تمنى مثلها ، من غير حب زوالها عن المغبوط .

والتحقيق أن الحسد : هو البغض والكراهة لما يراه من حسن حال المحسود ، وهو نوعان :

أحدهما : كراهة للنعمة عليه مطلقا ، فهذا هو الحسد المذموم ، وإذا أبغض ذلك ، فإنه يتألم ويتأذى بوجود ما يبغضه ، فيكون ذلك مرضا فى قلبه ، ويتلذذ بزوال النعمة عنه ، وإن لم يحصل له نفع بزوالها ، لكن نفعه بزوال الألم الذى كان فى نفسه ، ولكن ذلك الألم لم يزل إلا بمباشرة منه .. فإن تلك النعمة قد تعود على المحسود وأعظم منها ، وقد يحصل نظير تلك النعمة ما أنعم به على النوع ، ولهذا قال : إنه تمنى زوال النعمة ، فإن من كره النعمة على غيره ، تمنى زوالها .

الثانى : أن يكره فضل ذلك الشخص عليه ، فيحب أن يكون مثله ، أو أفضل منه ، فهذا حسد ، وهو الذى سموه : الغبطة . وقد سماه النبى ﷺ حسدا فى الحديث المتفق عليه من حديث ابن مسعود ، وابن عمر رضى الله عنهما ، قال : « لا حسد إلى فى اثنتين : رجل آتاه الله الحكمة ، فهو يقضى بها ويعلمها ، ورجل آتاه الله مالا وسلط على هلكته فى الحق »[1] .

هذا لفظ ابن مسعود .

ولفظ ابن عمر :

« رجل آتاه الله القرآن ، فهو يتلوه الليل والنهار ، فسمعه رجل ، فقال :

(١) قارن صحيح البخارى .

ياليتنى أوتيت مثل ما أوتى هذا ، فعملت فيه مثل ما يعمل هذا . ورجل آتاه الله مالا فهو يهلكه فى الحق ، فقال رجل : ياليتنى أوتيت مثل ما أوتى هذا ، فعملت فيه مثل ما يعمل هذا »[1] .

فهذا الحسد الذى نهى عنه النبى ﷺ إلا فى موضعين ، هو الذى سماه أولئك : الغبطة . وهو أن يحب مثل حال غيره ، ويكره أن يفضل عليه .

فان قيل : لماذا سمى حسدا ، وإنما أحب أن ينعم الله عليه ؟

قيل : مبدأ هذا الحب : هو نظره إلى إنعامه على الغير ، ويكره أن يفضل عليه .

ويقع الحسد لما يحصل للغير من السؤدد والرئاسة .. ولهذا يوجد بين أهل العلم الذين لهم أتباع من الحسد ما لا يوجد فيمن ليس كذلك ، وكذلك فيمن له أتباع بسبب إنفاق ماله .

أما المنافسة : فهى أن ينافس اثنان فى الأمر المحبوب المطلوب ، كلاهما يطلب أن يأخذه ، وذلك لكراهية أحدهما أن يتفضل عليه الآخر ، كما يكره المستبقان كل منهما أن يسبقه الآخر .

والتنافس ليس مذموما مطلقا ، بل هو محمود فى الخير[2] ، يقول تعالى :

﴿ إن الأبرار لفى نعيم * على الآرائك ينظرون * تعرف فى وجوههم نضرة النعيم * يسقون من رحيق مختوم * ختامه مسك * وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾[3] .

* * *

استخدم الحارث المحاسبى[4] فى بيانه للحسد أسلوب الحوار بين

---

(١) صحيح البخارى .

(٢) ابن تيمية : أمراض القلوب ص ٢٩ - ٣٥ .

(٣) سورة المطففين : الآيات ٢٢ - ٢٦ .

(٤) انظر : الرعاية لحقوق الله ص ٣٧٨ - ٤٠٩ .

شخصين على طريقة السؤال والجواب ، فاستعمل كلمة : « قلت » فى السؤال ، وصدر الجواب بكلمة : « قال » فجاء عرضه مبسطا وواضحا .

بدأ حديثه[1] ببيان أن الحسد ورد فى الكتاب والسنة على وجهين ، وهما مستعملان فى اللغة ، أى أنه استدل على بيانه لمعنى الحسد بالمصادر الثلاثة ، ومنها وصل إلى وجود نوعين من الحسد ، طبقا للحكم الشرعى :

الأول : الحسد المحرم .

الثانى : الحسد غير المحرم .

ثم بدأ ببيان أنواع الحسد غير المحرم ، فذكر منها :

المنافسة ودليل عدم تحريمها :

قوله تعالى :

﴿ وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾[2] .

وقوله تعالى :

﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم ﴾[3] .

ولا تكون المسابقة من العبد إلا أن يسابق غيره .

وقال النبى ﷺ :

« لا حسد إلا فى اثنتين رجل آتاه الله عز وجل مالا ، فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله عز وجل علما ، فهو يعمل به ويعلمه للناس »[4] .

ووضح هذا النوع من الحسد ، فقال :

هو أن يرى المرء بغيره نعمة فى دين أو دنيا ، فيغتم ألا يكون أنعم الله عليه بمثل تلك النعمة ، فيحب أن يلحق به ، ويكون مثله ، فهو لا يغتم من أجل المنعم عليه ، نفاسة منه ، ولكن غما ألا يكون مثله » .

وتقع هذه المنافسة فى مجالين :

---

(١) المصدر السابق ص ٣٧٨ .

(٢) سورة المطففين : الآية ٢١ .

(٣) سورة الحديد : الآية ٢١ .

(٤) انظر صحيح البخارى .

الأول : المجال الدينى :

وينقسم إلى قسمين :

أولاهما : فـــرض :

وهو أن يرى الإنسان أحداً يؤدى ما عليه من فرائض ، ويجتنب ما نهى الله عنه ، فيحسده على ذلك ، ويحب أن يكون مثله ، ويتمنى أن يقوم بمثل ما يقوم به ، ويلتزم بما يلتزم به فى مجال الأوامر والنواهى الدينية .

فهذا هو الفرض الذى ينبغى أن يحسد الإنسان غيره فيه « لأنه إن لم يغتم ويحزن بتخلفه عمن قام بفرض الله عز وجل عليه ، واجتنب ما نهى عنه ، ولم يحب أن يكون مثله ، كان عاصياً ، مقيماً على تضييع الفرائض وركوب المحارم » .

ثانيتهما : تطـــوع :

وذلك أنه إنْ كان الذى يراه المرء « بغيره من نِعَم الدنيا تطوعاً ، فاغتم أن يقصر عن منزلته ، وأحب أن يلحق به ، ويكون مثله ، فذلك فضل منه وتطوع ، إذا أحب أن يتقرب إلى الله عز وجل ، كما تقرب غيره ، واغتم أن يقصر عن القربة إلى الله عز وجل بما يحب من طاعته » .

الثانى : المجال الدنيوى :

وقسم المحاسبى المنافسة فيه إلى قسمين :

أولاهما : جائـــزة :

وهى أن يرى الإنسان شخصاً يتنعم فى حياته بما أسبغ الله عليه من الحلال ، فيغتم ألا يكون مثله ، ويحب أن يوسع عليه ، كما وسع على من نافسه ، وأن يلحق به ، فيكون متنعماً مثله ، فذلك مباح ، وليس بمحرم عليه ، إلا أنه نقص من الفضل ومن الزهد ، فإن خرج عن ذلك إلى السخط على الله عز وجل ، فقد تجاوز حده ، وارتكب محرماً .

ثانيتهما : حـــــرام :

وهو أن يرى المرء إنسانا يحصل على المال بطرق غير مشروعة ، وينفقه فيما لا يحل له ، متلذذا بهذه المعاصى ، فيغتم ، ويحب أن يكون مثله « فيصيب من المال واللذة مثل ما أصاب من ذلك ، فذلك منه لا يجوز له . ولم يحسده الحسد المحرم من قبل الغش له ، ولكن حسده حسد منافسة فى الحرام ، الذى لو كان ما نافسه فيه حلالًا ، أو طاعة ، لجاز ذلك الحسد له ، وإنما أتى مالا يجوز له من قبل محبته للحرام ، لا من قبل أنه حسده حسداً ، غِشًّا له ، وحباً للشر ، وكراهة الخير أن يراه » .

ويستدل المحاسبى على ذلك بما رواه أبو كبشة الأنصارى ، عن النبى ﷺ قال : « .... ورجل آتاه الله مالًا ، فهو ينفقه فى معاصى الله عز وجل ، ورجل لم يؤته الله عز وجل مالًا ، فيقول : لو أن لى مثل ما لفلان ، كنت أعمل مثل عمله فهما فى الوزر سواء »[1] .

« فذمه النبى ﷺ من قبل تمنيه الحرام ، لا من قبل حسده للمسلم ، غِشّاً له ، وكراهية أن يرى به خيراً من الدنيا » .

فهذا أحد الوجهين من الحسد ، وهو كراهة التقصير عن منزلة غيره ، ومحبة المساواة واللحوق به ، مع ترك التمنى أن يزول عمن نافسه حاله التى هو عليها »

وبعد أن بين أنواع الحسد غير المحرم ، وهو المنافسة ، انتقل إلى الحديث عن الحسد المحرم ، وهو الذى ذمه الله تعالى فى كتابه الكريم ، والرسول فى سنته ، وحذر العلماء فى دروسهم وكتبهم المسلمين منه ، لأنه يشتمل على عنصرين ، ينبغى على المسلمين أن يبتعدوا عنهما ، وهما :

ـــ كره المنعم عليه .

ـــ وتمنى زوال النعمة عنه .

فما جاء فى القرآن الكريم ذماً لهذا السلوك البغيض قوله تعالى :

---

(١) الحارث المحاسبى ص ٣٧٨ .

﴿ ودَّ كثيرٌ من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم .. ﴾[1] .

وقوله تعالى :

﴿ أمْ يحسدون الناسَ على ما آتاهم اللهُ من فضله .. ﴾[2] .

وقوله تعالى :

﴿ كان الناس أمةً واحدةً فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهمُ الكتابَ بالحق ليحكمَ بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتُوه من بعدِ ما جاءتهم البيناتُ بغياً بينهم ﴾[3] .

وقوله تعالى :

﴿ وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهمُ العلمُ بغياً بينهم .. ﴾[4]

فقد قيل فى تفسير « البغى » فى هاتين الآيتين : إنه الحسد . ثم يجيب المحاسبى مَنْ سأله عما وقع بين إخوة يوسف ، فيقول :

« ثم أُخْبِرُكَ عن إخوة يوسف ، حين حسدوا ، فعبَّروا بألسنتهم عما فى قلوبهم من حسد ، فقالوا : ﴿ ... لَيُوسف وأخوه أَحَبُّ إلى أبينا منا ونحن عُصبةٌ إنَّ أبانا لَفِى ضلالٍ مبين * اقتلوا يوسفَ أو اطرحوه أرضاً يَخْلُ لكم وجهُ أبيكم وتكونوا من بعدهِ قوماً صالحين ﴾[5] .

فكرهوا خصوصية أبيه له بالحب من بينهم ، وأرادوا أن يزيلوا حب أبيه له ، وبره به ، وتفضيله إياه عليهم ، بأن يغيبوه عنه ، فيقبل بالحب عليهم والبر ، ويزول ذلك عن يوسف ، فقالوا :

﴿ يخل لكم وجه أبيكم ﴾ .

---

(١) سورة البقرة الآية : ١٠٩ .

(٢) سورة النساء الآية : ٥٤ .

(٣) سورة البقرة الآية : ٢١٣ .

(٤) سورة الشورى الآية : ١٤ .

(٥) سورة يوسف الآيتان : ٨ ـــ ٩ .

ليكون لهم إذا غاب ، حسداً له على حب أبيه وبره ، وتفضيله إياه .

كما استشهد المحاسبى على أن المسلم ينبغى ألا يكون حسوداً . بقول رسول الله ﷺ : « لا تحاسدوا ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عبادَ الله إخوانا »[1] .

ويعقب على ذلك ببيان أن الحسد سيظهر بين المسلمين ، كما ظهر بين الأمم السابقة ، على الرغم من تحذير الرسول ﷺ منه ، فقد أخبر الرسول نفسه بذلك ، حيث قال : « دب إليكم داء الأمم : الحسد والبغضاء » فأخبر أنه سيكون فيهم الحسد ما كان فى الأمم ، وأنه داء الأمم من قبلهم ، وأنهم منه أتوا ، وبه هَلكوا ، ولم يزل ذلك فى الكافرين ممن مضى ، وفى بعض المؤمنين ، ويؤكد ذلك بما روى عن الحسن : أنه قيل له : أيكون المؤمن حسوداً ؟ قال : لا أبا لك ما أنساك بنى يعقوب ، فعلوا بأخيهم ما فعلوا .

وقال أبو قلابة :

ما قتلوا عثمان رضى الله عنه إلا حسداً .

دوافـــع الحســـد :

تناول المحاسبى أسباب الحسد ودوافعه، فذكر منها سبعة ، وهى :

١ ــ الكِبر والعُجبْ :

لأن المرء « يأنف أن يعلوه مَنْ كان دونه ، أو يساويه ، أو يعلوه من هو مثله فى دين أو دنيا .. فإذا أنف منه وازدراه ، ورثه ذلك الحسد له ، فأحب أن تزول عنه نعمة الله عز وجل ، غماً أن يراها بمن لا يستأهلها عنده ، وأنفاً أن يكون مَنْ دونه مثله أو فوقه » ، ومثل ذلك ما حدث لقريش عندما بعث فيهم محمد ﷺ ، إذ كانوا يرونه غلاماً يتيماً ، فكيف يعلوه عليهم باصطفائه رسولًا ، فحسدوه على ذلك .

ويحكى القرآن الكريم عن حسدهم ، فيقول :

---

(١) سنن أبى داوود .

﴿ **وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم** ﴾[1] .

كما يبين لرسوله أن هذا كان داء الأمم من قبلهم أيضاً ، إذ قالوا لرسلهم حين بعثوا إليهم :

﴿ **.. إن أنتم إلا بشر مثلنا ..** ﴾[2] .

﴿ **.. أنؤمن لبشرين مثلنا ..** ﴾[3] .

﴿ **.. أبعث الله بشراً رسولًا** ﴾[4] .

﴿ **.. لولا أنزل علينا الملائكة ..** ﴾[5] .

﴿ **ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون** ﴾[6] .

ولم يكن استنكارهم أن يكون الرسل بشراً إلا حسداً ، لتفضيل الله عليهم مَنْ هم مثلهم فى البشرية .

٢ ــ حــب الرئاسة :

وهو الداء الذى « يورث رد الحق وتركه على علم ، كما حدث لأهل الكتاب ، فقد تفرقوا حسداً بينهم أن يعلو بعضهم على بعض فى العلم : كل واحد منهم حسد صاحبه ، فاستكثر أن تكون الرياسة له دونه على الناس ، فرد كل واحد ما عند صاحبه من الحق ، وخطأه فيما يقول ، وإن كان حقاً ، وأظهر أن الحق فى غيره ، ليصد الناس عنه ، ويطفىء نوره ، حسداً أن ترتفع منزلته ، أو يخضع له ، فيكون رئيساً له » .

وكان هذا سبباً دافعاً لعلماء اليهود على الكفر برسالة محمد ﷺ ، « وهم يعرفون أنه قد جاء بالحق من عند الله ، حسداً من أن يتميز عليهم ، فيحتل مكان الرئاسة دونهم ، فيصيروا أتباعاً ، بعد أن كانوا متبوعين » .

---

(١) سورة الزخرف الآية : ٣١ .

(٢) سورة إبراهيم الآية : ١٠ .

(٣) سورة المؤمنون الآية : ٤٧ .

(٤) سورة الإسراء الآية : ٩٤ .

(٥) سورة الفرقان الآية : ٢١ .

(٦) سورة المؤمنون الآية : ٣٤ .

٣ ــ حــب المنزلـة :

إذا كان الحسد على الرئاسة محصوراً فى طبقة الخاصة ، فإن الحسد على المنزلة شائعاً بين الجمهور ، ذلك أن كل شخص يكره أن يتميز عليه مَنْ هو أدنى منه ، أو مَنْ هو فى درجته ، ولهذا يكثر الحسد فى الحياة العامة .

ويضرب المحاسبى مثالًا على ذلك ، فيقول :

« يتحاسد الصاحبان فى الحب والمنزلة عند من يصحبانه ، فيحب أحدهما ألا يفضله عليه فى عمل ولا علم ، ولا يرفعه عليه ، فيخطئه فيما يقول ، ويحب أن يهتك ستره عند صاحبه ، ويقع فيه ، ويُفطِّنه إلى سوء الظن فيه ويضع أمره ، لئلا يكون أحب إليه منه ، وأن يكون الحب والمنزلة له عنده ، دون صاحبه .

وكذلك الشجاعان فى الحرب ، يُجَبِّن أحدهما الآخر ، ويقع فيه ، لئلا يعلوه فى المنزلة عند من يعرفهما ، فيعظم بذلك دونه ، فيقع فيه حسداً ، أو يُبَغِّضه إلى غيره ، ويُجبِّنه عند اللقاء فى الحروب .

٤ ــ الحقد والعداوة والبغضاء :

يرى المحاسبى : أن الحقد والعدواة والبغضاء من أشد دوافع الحسد وذلك من وصف الله عز وجل عداوة الكفار ، وبغضهم للمؤمنين به فى قوله تعالى :

﴿ وإذا لَقُوكم قالوا آمنا وإذا خَلَوْا عضوا عليكم الأناملَ من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليمٌ بذات الصدور * إن تمسسكم حسنةٌ تسؤْهم وإن تصبكم سيئةٌ يفرحوا بها ... ﴾[1] .

إذ أخبر أنهم مُبغِضون للمؤمنين ، يسوؤهم ما يرون بهم من نعمة الإيمان والطمأنينة الروحية ، حسداً لهم ، لبغضهم وعداوتهم ، فأخرجتهم العداوة والبغضاء إلى الحسد والشماتة .

فالمبْغِض المعادى لا ينفك من الحسد والشماتة ، إلا من عصم الله عز

(١) سورة آل عمران الآيتان : ١١٩ ــ ١٢٠ .

وجل ، وقد يؤدى حسد العداوة والبغضاء إلى القتل ، وأخذ المال ، والسعاية بمن يحسده ، وهتك ستره ، وغير ذلك . فالمبغض حسده أعظم الحسد وأشده .

٥ ــ حب مظاهر الدنيا :

إذا نظرنا إلى الدوافع نظرة تحليلية ، لوجدنا أن هذا الدافع يكاد يكون أصلًا للدوافع كلها ، فما دَفَعَ الحسود إلى الحقد والبغضاء والعداوة ، إلا حبه وسعيه لأن يملك مظاهر الدنيا دون غيره ، وهو السبب أيضاً فى الكِبر والتعالى على الناس ، وكذلك فى سعيه الحثيث إلى أن يحتل مكان الرياسة بين بنى قومه ، ويتبوأ منزلة أعلى من أقرانه . لكن المحاسبى أفرد الحديث عن هذا الدافع ، فقال : « وما كان من حب الدنيا : أن ينال ما يرى بغيره من : حب ، أو بر ، من قرابة أو غيره ، كالإخوة يتحاسدون ، أو أخ يحاسد الأخ عند أبيهما ، أو أمهما ، أو قرابتهما . وكذلك الصاحبان ، أو الشريكان ، فيحسده على ما يرى من أبيهما أو أمهما ، أو برهما ، أو من صحبهما ، أو شاركهما ، ويحب أن يُؤْثَر بذلك ، فيحسده ، فيقع فيه ، ويبغضه ، ليصرف وجه أبيه ، أو غيره إليه بالبر والحب »[1] .

فكأنه أراد بهذا الإفراد بيان كثرة ظهور الحسد بين الأقارب ، والأصحاب والشركاء ، وأصحاب الحرف والمهن الواحدة .

ويظهر من الأمثلة التى أوردها على ذلك ، أنه لم يقصد بها التدليل على ظهور الحسد بين المتقاربين فى الجوانب المادية فقط ، بل شملت أيضاً ما يتمتع به المحسود من نعم روحية ، إذ تتمثل النعم الروحية فى تطلع الأخ إلى حب والديه ، الذى يسبغانه على أخ آخر له أو تطلع الإنسان إلى ود الأقارب ، الذى يمنحونه أحد أفراد العائلة .

أما النِّعم المادية ، فتظهر بوضوح عند كل من : التاجر ، والصانع ، وما شابههما من أصحاب المهن المختلفة ، إذ يحسد أحدهما الآخر ، ويحب أن يزول عن صاحبه ما يتمتع به من نِعم .

---

(١) المحاسبى ص ٣٩٧ .

وقد يحسد المرء آخر على كلتا النعمتين : المادية ، والروحية . ويظهر ذلك على سبيل المثال فى الضُّرتان ، إذ إن المرأة تحسد ضرتها على استئثار الزوج بها ، وتقربه منها ، كراهة محبته لها ، أو حسداً على ما ينالها منه من منافع مادية .

ولما كان حب الدنيا مسيطراً على مشاعر الناس ، ومتسلطاً على أحاسيسهم ، فقد يدفعهم الحسد ، الذى يكون من حب الدنيا ، كالمُلك والشرف إلى أن يقتل بعضهم بعضاً .

٦ ــ المشاكلة والمماثلة :

ترتب الحسد على حب الناس للمظاهر الدنيوية ، كراهة أن يتفوق عليهم فيها أقرانهم ، ولذلك كانت دوافع الحسد عند القرين ، أو الصاحب أو زميل المهنة أكثر مما لدى الغرباء ، فيقول المحاسبى :

« يتحاسد بنو الأم والأب ، وبنو الأعمام والإخوة أكثر .. دون سائر الناس » أى أن الأقرباء يحسد بعضهم بعضاً أكثر مما يحسدون غيرهم من الغرباء ، فقد يتمتع الغريب بمثل ما يتمتع به القريب ، لكن لا يحسده الحاسد ، ولا ينظر إلى ما فى يده بمثل ما ينظر إلى ما فى يد قريبه ، حتى ولو كان أقل مما فى يد الغريب .

« وكذلك العالِم يُحاسدُ العالِمَ ، ولا يكاد يحاسد غيره .. وكذلك أهل التجارات يسرى الحسد من أهل كل تجارة إلى مَنْ شاركهم فيها ، دون سائرهم من التجار كالبزازين[1] ، يحسد البزاز مثله .. ولا يكاد يحسد الجزارين ، والصيارفة ، وسائر الباعة »[2] .

٧ ــ القــــرب :

يرى المحاسبى أن الحسد يقع بين المتجاورين أسرع من وقوعه بين المتباعدين ، لأن كثرة رؤية المرء لمن يتفوق عليه فى جانب من جوانب الحياة ،

---

(١) البزار : تاجر الثياب .

(٢) المصدر السابق : ص ٣٩٨ ــ ٣٩٩ .

تدفعه إلى حسده ، وتمنى زوال نعمته ، فيقول :

« ومَنْ ضامَّهُ فى سوقه من أهل تجارته ، كان الحسد منه إليه أسرع ممن تباعد عنه ، وإن كان من أهل تجارته .. فالقرب من المجاورة وغيره أسرع ... يحسد القوم عالِمهم ، ويعظمون العالمَ الغريب .. ومن ذلك ما يروى : أن كعباً قال لأبى مسلم الخولانى : كيف أنت فى قومك ؟ قال : مطاع . قال كذبتنى إذن التوارة ، ما من حكيم فى قوم إلا حسدوه ، وكبروا عليه ..

وكذلك من دنا من القرابة أسرع إليه بالحسد ممن تباعد عنه ، ومن ذلك ما روى أن عمر رضى الله عنه ، كتب إلى أبى موسى : إن الأقرباء يتزاورون ، ولا يتجاورون »[1] .

(١) المصدر السابق : ص ٣٩٩ .

أضرار الحسد

يقع الحسد بين طرفين : حاسد ، ومحسود أو عائن ومعيون :

فهل يترتب على وجود الحسد وقوع ضرر بهما أو بأحدهما ؟

وما هو مصدر الضرر ، آلحاسد ، أم المحسود ؟

وعلى من يقع الضرر ، أعلى الحاسد ، أم يصيب المحسود ؟

يرى المحاسبى أن للحسد ضرراً ، وأن الحاسد هو مصدر ذلك الضرر ، لكنه ينفى أن يصيب المحسود من ذلك الضرر شيىء ، « لأن الله عز وجل ، لو أطاع الحاسدين فى المحسودين ، لما بقى عليهم نعمة ... ولو فعل بالمحسودين ما يحب الحاسدون ، لما بقى على النبيين صلوات الله عليهم أجمعين نعمة ، ولأفقر الأغنياء لحسدهم لهم ، ولأضل المؤمنين لحسد الكفار لهم . ولكن الحسد على الحاسد ضررُه ، والنعمة جارية على مَنْ أراد الله عز وجل أن يتمها عليه ، إلى الوقت الذى أراده وقدَّره ، ولا ينظر إلى حسد الحاسدين » .

ألا ترى إلى قوله عز وجل :

﴿ ودت طائفةٌ من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم ... ﴾[1] .

فالمحسود لا يلحقه ضرر ، إذ « لو كان يضر المحسودَ حسدُ الحاسد له ، فيزيل عنه بحسده النعم ؛ لدخل عليك أعظم الضرر ، لأنك لا تعرى أن يحسدك غيرك ، فلو كان الحسد يضر المحسود ، لما بقيت عليك نعمة ، إذ كنت لا تعرى أن يحسدك حاسد ، فيحب زوال النعمة عنك »[2] .

فالحاسد لا يضر إلا نفسه ، إذ هو ـــ بحسده ـــ يصاب بمرض نفسى ،

---

(١) سورة آل عمران الآية : ٦٩ .

(٢) المحاسبى : ص ٤٠٠ ، ٤٠٤ .

يجعله يتألم من جراء حسده لأخيه ، ويزداد ألمه وجزعه ، كلما استمرت النعم على المحسود ، ويكاد ينفجر من شدة الألم ، كلما رأى نعم المحسود فى ازدياد مطّرد ، « فمثل الحاسد فيمن عاداه ، أو باهاه ، أو تكبَّر عليه ، أو تعجَّب عليه ، أو تفضَّل عليه ، مثل رجل أراد أن يرمى عدواً له بحجر ، فلما رماه له ، رجع الحجر على عين الرامى فأصابها . وأعاد الرمى ، فرجع الحجر أيضاً على عينه فأصابها ، حتى فعل ذلك مراراً ، كل ذلك لا يصيب عدوه ويرجع الحجر عليه فيقع بعينه . وكذلك إنْ رماه بسهم أو بغير ذلك ، كل ذلك يرجع على عينه ، ولا يصيب عدوه ، فلم يكُ هذا أبداً ليرمى عدوه ، وقد علم وتبين أنه لا يصيب عدوه ، وإنما يصيب نفسه »[1] .

أى لا ينبغى للمرء أن يحسد عدوه ، بعد أن تيقن أنه لا يصيب عدوه بهذا الحسد ، بل يصيب نفسه .

لأنه « إن كان فى نعمة قبل أن يحسد مَنْ حسده ، وهى نعمة السلامة من الحسد ، فلما حسد ، وأحب زوال النعمة عنه ، زالت عن الحاسد النعمة التى كانت عليه ، وهى نعمة السلامة من الحسد ، فتزول عنه سلامته من الحسد ، ونصحه للمؤمنين ، وينزل به من المكروه والإثم أعظم مما أراده بمَنْ يحسده ، وتبقى النعمة على المحسود ، لم تزل عنه »[2] .

« فدع الحسد الذى لم يطع به غيرك فيك ، لو كان هو الحاسد لك . وارض بما قسم لعباده ، فإنك إن لم تفعل خالفت محبته ، وبارزته بالخلاف فيما أوجب ، وما آمن أن يزول عنك من النعم فى الدنيا والدين ، سوى مازال عنك من نعمة السلامة والنصيحة قبل أن تحسده ، فينزل بك ما تمنيت بغيرك ، عقوبة من الله عز وجل ، لأنه يقول فى كتابه الكريم :

﴿ .. **ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله** .. ﴾[3] .

وذلك كالماكر ، إنما أراد أن يفعل السوء بغيره ، فحاق به ما أراد بغيره ، وكذلك الحاسد ، لا يأمن أن ينزل به من البلاء وزوال النعم مثل ما أحب

(١) المصدر السابق ص ٤٠١ .
(٢) المصدر السابق ص ٤٠١ .
(٣) سورة فاطر الآية : ٤٣ .

للمؤمنين ...

فلو لم تدع الحسد ـــ خوفاً من عقوبة الآخرة ـــ إلا خوفاً من عقوبة فى الدنيا أن ينزل بك مثل ما تمنيت لمن حسدته ، وساءك ما أنعم عليه به ، فلا ينعم الله عليك مثل ما أنعم عليه به ، إذ ساءك تفضل الله عز وجل عليه ، فتخوَّف بلاء الدنيا ، وزوال النعم بها .

كان ينبغى لك أن تدعه ، لو أمنت عقوبة الآخرة . ومالك أن تأمن ذلك ، وقد ذمه الله عز وجل ، والرسول ﷺ . وسخطه الله عز وجل ، وسخط على من اعتقده .

أخبرك بذلك فى غير موضع فى كتابه : **بذم الحسد** .

ويخبرك أن الأمم الماضية :

هو الذى فرق بينها .

وألقى الاختلاف فى دينها .

ولو لم تخَفْ عليك عقوبة آخرة ولا دنيا ، ولم يكن عليك فيه إثم ، كان ينبغى عليك أن تدعه ، لتعذيب قلبك بالغم من غير أن تصير إلى ما أردت لمن حسدته . فلو لم تدعه إلا لذلك ، كان حَرِيّاً أن تدعه من أجل ذلك ، إلا أن تكون معتوها ، لا عقل لك ، إذا عذبت قلبك بالغم ، ولم تدرك ما تريد .

فلينظر الحاسد ، على من أُدخل الضرر ، ومن حُرِمَ الخير ، وزالت عنه النعم ، ومن غُبِن ، هو ، أم مَنْ حسده ؟

وجملة القول : إن المحسود لا يناله ضرر من عين العائن ، ولا يصيبه شيء من المحسود ، إلا إذا تجاوز الحسد القلب إلى الجوارح ، فسلك الحاسدُ مسالكَ تؤدى إلى إلحاق الضرر بالمحسود ، كتدبير المؤامرات ، لإفساد العلاقة بينه وبين مصادر نعمته ، أو اتخاذ تدابير تؤدى إلى زوال ما يتمتع به المحسود من النعم ، أو الاعتداء على الأنفس والأرواح ، بما يصيبها أو يهلكها .

لكن الحارث المحاسبى ينفى أن يكون هذا حسداً ، بل هو عمل دفع الحسد إليه ، يقول : « فإذا استعمله ـــ أى الحسد ـــ بالكذب عليه ، والغيبة

له ، أو الكلام ، أو الوقيعة فيه عند من يقبل منه ، فيحرمه الخير : من علم يعلمه ، أو صلة يصله بها ، أو معونة يعينه بها ، أو الدعاء عليه ، أو الأذى بالجوارح ، وذلك كله ليس بالحسد ، ولكن عمل الحسد . بعثه عليه الحسد ، حتى استعمل جوارحه بما يكره الله عز وجل فيمن حسده » . ولو كان هذا هو الحسد ، لكان هذا العمل :

لرغبة ،

أو خوف ،

أو طلب دنيا : **حسداً كله** .

فكان جميع إساءة العباد بعضهم إلى بعض حسداً .

فكانت معاصى العباد ، بعضهم فى بعض ، **حسداً**

فلم يعص أحد فى أحد **إلا بحسده** .

وهذا مالا يقول به أحد يعلم ، أو يعقل بالحسد .

فالحسد بالقلب !!! .

وكذلك وصفه الله عز وجل ، فقال تعالى :

﴿ إن تمسسكم حسنة تسؤهم ... ﴾(1) .

وقال تعالى :

﴿ ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم ... ﴾(2) .

وقال تعالى :

﴿ ودّت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم .... ﴾(3) .

وقال تعالى :

﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً .... ﴾(4) .

---

(1) سورة آل عمران الآية : ١٢٠ .

(2) سورة البقرة الآية : ١٠٥ .

(3) سورة آل عمران الآية : ٦٩ .

(4) سورة البقرة الآية : ١٠٩ .

فوصف الحسد بكراهية القلوب للحسنات التى يمن بها على المؤمنين : من نصر ، أو فتح ، أو خير وحب ، أن يزول عنهم إيمانهم ، وبذلك أضاف الله عز وجل الحسد إلى فعل القلب ، ووصفه به ، فهو بالقلب ، دون الجوارح .

ألا ترى أن الله عز وجل يقول :

﴿ ... **ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا** ... ﴾[1] .

فَدَلَّك بذلك : أن الحسد فى النفس ، دون الجوارح .

واستعماله بالجوارح عمل عن الحسد ، لا الحسد بنفسه[2] .

إن مما لا شك فيه أن الحاسد قد ارتكب إثماً بتمنيه زوال نعمة مَنْ حسده ، **فهل يعاقب على هذا الإثم ؟**

مادام الحسد شعوراً نفسياً ، وإحساساً داخلياً ، فذلك ذنب لا تعاقب السلطة الدنيوية عليه ، إذ لا يجوز لأحد أن يدعى بأن له حقاً فى أن يعاقب على معصية هذا شأنها ، مهما كان وضعه الاجتماعى ، أو الدينى ، أو السياسى ، لأنه :

أولًا : هذه معصية لا يمكن تحديدها ، فهى انفعال داخلى ، ولهذا استأثر الله بحقه فى العقاب عليها ، فلم يشرع لها أى إجراء تأديبى فى النصوص الدينية .

ثانياً : لم يحدث ضرر للمعيون من العائن ؛ لأن الحسد اقتصر على الجانب النفسى ، فلم يتجاوزه إلى عمل الجوارح .

لكن ، لو حدث للمعيون ما تمناه العائن ، **فهل يعاقب العائن ؟**

لو اقتصر الحسد على التمنى ، فهو ذنب لا عقاب عليه إلا من الله عز وجل ، أما لو كان ما حدث للمعيون بسبب تدخل العائن ، فيعاقب فيما ورد فيه نص يوجب ذلك . أما مالم يرد فيه نص ، فإنه يجب على العائن تصحيح ما وقع فيه من خطإ فى حق المعيون . ويدخل فى ذلك استرضاؤه ، وطلب

---

(١) سورة الحشر الآية : ٩ .

(٢) الحارث المحاسبى : ص ٤٠٨ .

العفو منه عما ارتكبه فى حقه ، مما سبب له الإساءة .

وقد بين الحارث المحاسبى هذه المسألة ، فقال :

قلت : فإن ساءنى ما رأيت من النعم ، وبمنيت زوالها ، فينزل به من البلاء ما يزول عنه ، كالغنى ، يزول عنه وينزل به الفقر ، وكالصحة ، فينزل به المرض ، أو العلم ، فيحل به الجهل ، أو العصمة ، فيحل به الخذلان ، أو الستر ، فيحل به هتك الستر ، ثم ندمت على ذلك ، أيكون للمحسود عندى مظلمة يجب علىّ التحلل منها ؟

قال : أما ما كان من عمل القلب ، ولم تستعمل به جوارحك ، فذلك ذنب بينك وبين الله عز وجل . عصيته به فى عباده . نهاك عنه وذمه إليك ، فليس عليك فى ذلك للمحسود تبعة ، ولا يجب عليك استحلاله .

فإن خرجت إلى غيبة ، أهاجك عليها الحسد الذى فى قلبك ، أو تكذب عليه ، أو تغتاله بغائلة تحرمه بها منفعة ، أو تنزل به مكروها ، أو أخذ مال لا يحل لك من ماله ، فعليك الاستحلال من ذلك وما أشبهه .

وأما مالم يَعْدُ القلب ، فهو ذنب عظيم ، لا يجرى مجرى المظالم ، التى فيها القصاص بين العباد فى عمل الجوارح ، فى النفس ، والأموال ، والأعراض . ولَرُبَّ شيء لا قصاص فيه أعظم من كثير مما فيه القصاص .

وقد جاء فى الحديث : « الحسد يأكل الحسنات ، كما تأكل النار الحطب » ويختم المحاسبى حديثه عن الحسد ، فيقول :

فالحسد ــ كما أخبرتك ــ بالقلب ، واستعماله بالجوارح عمل منه ، ولو كان استعماله بالجوارح حسداً ، لكانت الغيبة حسداً ، والكذب والضرب حسداً ، والقتل حسداً ، والسرقة حسداً ، وذلك كله معاص . وقد يكون عن الحسد ، وعن الكبر ، وعن الرياء ، وعن حب الدنيا ، وعن خوف الفقر ، فقد أخطأ من تأوَّل ذلك ، وخرج من معقول الدين[1] .

* * * *

(١) المصدر السابق : ص ٤٠٩ .

تناول الإمام الغزالى الحسد[1] ، فقسم الحديث عنه إلى تسع نقاط وهى :

١ ـــ ذم الحسد **٢** ـــ حقيقته .

٣ ـــ أقسامه **٤** ـــ حكمه .

٥ ـــ مراتبه **٦** ـــ أسبابه .

٧ ـــ سبب كثرته بين الأمثال والأقران .

٨ ـــ دواؤه **٩** ـــ القدر الواجب فى نفيه .

١ ـــ ذم الحسد : ذكر الغزالى فى حديثه عن ذم الحسد أنه من نتائج الحقد ، والحقد من نتائج الغضب . ويترتب عليه كثرة من الأفعال المذمومة ، كما أخبرت بذلك الأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ ، وأنبأت عنه الآثار المدونة فى كتب التراث .

فمن الأحاديث المروية فى ذلك قوله ﷺ :

« الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » .

وقوله ﷺ :

« كاد الفقر أن يكون كفراً ، وكاد الحسد أن يغلب القدر » .

وقوله ﷺ :

« إنه سيصيب أمتى داء الأمم » .

قالوا :

وما داء الأمم ؟

قال : « الأشر ، والبطر[2] ، والتكاثر ، والتنافس فى الدنيا ، والتباعد ، والتحاسد ، حتى يكون البغى ، ثم الهرج »[3] .

---

(١) راجع إحياء علوم الدين جـ ٣ ص ١٨٦ ـــ ٢٠٠ .

(٢) البطر = (الأشر) : بطره بَطَراً : أخذته دهشة وحيرة عند حصوله على النعمة ، فهو يطغى بها ، ويصرفها إلى غير وجهها ، ويقال : بطر النعمة = استخفها جهلًا وكبراً فلم يشكرها .

(٣) رواه الطبرانى فى المعجم الأوسط .

وروى : أن موسى عليه السلام لما تعجل إلى ربه تعالى ، رأى فى ظل العرش رجلًا ، فغبطه بمكانه ، فقال : إن هذا لكريمٌ على ربه . فسأل ربه تعالى أن يخبره باسمه ، فلم يخبره ، وقال : أحدثك من عمله بثلاث : كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله ، وكان لا يعق والديه ، ولا يمشى بالنميمة .

وقال زكريا عليه السلام :

« قال الله تعالى : الحاسد عدو لنعمتى ، متسخط لقضائى ، غير راض بقسمتى التى قسمت بين عبادى » .

ومما روى من الآثار فى ذم الحسد قولهم :

أول خطيئة هى الحسد ، حسد إبليس آدم عليه السلام على رتبته ، فأبى أن يسجد له ، فحمله على الحسد والمعصية .

وحكى : أن عون بن عبد الله دخل على الفضل بن المهلب ــ وكان يومئذ على واسط ــ ، فقال : إنى أريد أن أعظك بشيء ، فقال : وما هو ؟

قال : إياك والكِبر ، فإنه أول ذنب عُصِى الله به ، ثم قرأ :

﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ﴾[1] .

وإياك والحرص ، فإنه أخرج آدم من الجنة ، أمكنه الله سبحانه من جنة عرضها السموات والأرض ، يأكل منها ، إلا شجرة واحدة نهاه الله عنها ، فأكل منها ، فأخرجه الله تعالى منها ، ثم قرأ :

﴿ .... اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾[2] .

وإياك والحسد ، فإنما قتل ابن آدم أخاه حين حسده ، ثم قرأ :

﴿ واتلُ عليهم نبأ ابْنَىْ آدمَ بالحق إذ قرَّبا قرباناً فَتُقُبِلَ من أحدهما ولم يُتَقَبل من الآخر قال لأقتلنَّك قال إنما يتقبل الله من المتقين * لئن بسطتَ إلىَّ

(١) سورة البقرة الآية : ٣٤ .

(٢) سورة البقرة الآية : ٣٦ .

يدك لتقتلني ما أنا بباسطٍ يدىَ إليكَ لأقتلكَ إني أخاف اللهَ ربَّ العالمين * إني أريد أن تبوء بإثمى وإثمكَ فتكونَ من أصحاب النار وذلك جزاءُ الظالمين * فطَوَّعَتْ له نفسهُ قتلَ أخيهِ فقتله فأصبح من الخاسرين ﴾[1] .

وقال بعضهم :

« الحاسد لا ينال من المجالس إلا مذمة وذلًا ، ولا ينال من الملائكة إلا لعنةً وبغضاً ، ولا ينال من الخلق إلا جزعاً وغماً ، ولا ينال عند النزع إلا شدةً وهولًا ولا ينال عند الموقف إلا فضيحةً ونكالًا » .

٢ ــ **حقيقته** : لا حسد إلا على نعمة ، فإذا أنعم الله على أخيك بنعمة ، فلك فيها حالتان :

إحداهما : أن تكره تلك النعمة ، وتحب زوالها ، وهذه الحالة تسمى : حسداً . فالحسد هو كراهية النعمة ، وحب زوالها عن المنعم عليه .

الحالة الثانية : أن لا تحب زوالها ، ولا تكره وجودها ودوامها ، ولكن تشتهى لنفسك مثلها وهذه تسمى : غِبْطة .

٣ ــ **أقسامه** : إذا كره المرء نعمة أخيه ، وأحب زوالها ، فهذا يسمى حسداً ، أما إذا لم يكره وجودها لديه ، ولم يحب زوالها عنه ، بل تمنى أن يكون له مثلها فهذا ليس حسداً ، بل غبطة ، وقد تسمى : منافسة .

٤ ــ **حكمــه** : إذا كره المرء نعمة أخيه ، وأحب زوالها ، فقد ارتكب محرماً ، إلا إذا كانت تلك النعمة لفاجر ، أو كافر ، وهو يستعين بها على إذكاء روح الفتنة ، وإفساد ذات البين ، وإيذاء الخلق .

ويدل على تحريم الحسد ما ورد فى القرآن الكريم من ذم من يؤذيه ما أنعم الله به على الآخرين ، كقوله تعالى :

﴿ إن تمسسكم حسنةٌ تسؤهم وإن تصبكم سيئةٌ يفرحوا بها ﴾[2] .

فهذا الفرح شماتة ، والحسد والشماتة يتلازمان .

(١) سورة المائدة الآيات : ٢٧ ــ ٣٠ .

(٢) سورة آل عمران الآية : ١٢٠ .

وقوله تعالى :

﴿ **ودَّ كثيرٌ من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانِكُم كفاراً حسداً من عند أنفسهم ...** ﴾[1] .

أما المنافسة ، فليست حراماً ، بل تجرى عليها — كما قال الغزالى — الأحكام الثلاثة :

الوجوب ، والندب ، والإباحة .

فمما يدل على إباحتها قوله تعالى :

﴿ **وفى ذلك فليتنافس المتنافسون** ﴾[2] .

وقوله تعالى :

﴿ **سابقوا إلى مغفرة من ربكم** ﴾[3] .

فهى مباحة فى مجال التنافس على الخير ، على الرغم من إطلاق لفظ الحسد عليها ، كما ورد فى قول رسول الله ﷺ :

« لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله علماً ، فهو يعمل به ، ويعلمه للناس »[4] .

وعليه ، فلا حرج على من يغبط غيره فى نعمة ، ويشتهى لنفسه مثلها ، طالما لم يحب زوالها عنه ، ولم يكره دوامها له .

نعم ، إن كانت تلك النعمة نعمة دينية واجبة : كالإيمان ، والصلاة ، والزكاة ، فهذه المنافسة واجبة . وهو أن يحب أن يكون مثله ، لأنه إذا لم يكن يحب ذلك ، فيكون راضياً بالمعصية ، وذلك حرام . وإن كانت النعمة من الفضائل : كإنفاق الأموال فى المكارم والصدقات ، فالمنافسة فيها مندوب إليها . ويدخل فى ذلك : المنافسة فى جميع أنشطة الحياة ، سواء كانت رياضية

---

(١) سورة البقرة الآية : ١٠٩ .

(٢) سورة المطففين الآية : ٢٦ .

(٣) سورة الحديد الآية : ٢١ .

(٤) صحيح البخارى : كتاب العلم .

أو ثقافية ، أو علمية .

٥ ــ مراتبه : يستنتج مما تقدم أن للحسد مراتب أربع :

الأولى : أن يحب الحاسد زوال النعمة عن المحسود ، وإن كان ذلك لا ينتقل إليه ، وهذا غاية الخبث .

الثانية : أن يحب زوال النعمة إليه ، لرغبة فى تلك النعمة مثل : رغبته فى دار حسنة ، أو امرأة جميلة ، أو ولاية نافذة ، أو سعة نالها غيره ، وهو يحب أن تكون له . ومطلوبه تلك النعمة ، لا زوالها عنه . ومكروهه فقد النعمة ، لا تنعم غيره بها .

الثالثة : أن لا يشتهى عينها لنفسه ، بل يشتهى مثلها ، فإن عجز عن مثلها ، أحب زوالها كيلا يظهر التفاوت بينهما .

الرابعة : أن يشتهى لنفسه مثلها ، فإن لم تحصل ، فلا يحب زوالها عنه . وهذا الأخير هو المعفو عنه ، إن كان فى الدنيا . والمندوب إليه إن كان مباحاً .

والثالثة : فيها مذموم ، وغير مذموم .

والثانية : أخف من الثالثة .

أما الأولى : فمذموم محض .

وتسمية التمنى حسداً فيه تجوز وتوسع ، ولكنه مذموم ، لقوله تعالى :

﴿ ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ﴾[1] .

فتمنيه لمثل ذلك غير مذموم ، وأما تمنيه عين ذلك ، فهو مذموم .

٦ ــ أسبابه : ذكر الغزالى أن للحسد سبعة أسباب :

الأول : العداوة والبغضاء : وهذا أشد أسباب الحسد ، فإن مَنْ آذاه شخصٌ بسبب من الأسباب ، وخالفه فى غرض بوجه من الوجوه ، أبغضه قلبه ، وغضب عليه ، ورسخ فى نفسه الحقد . والحقد يقتضى التشفى والانتقام ، فإن عجز المبغض عن أن يتشفى ، أحب أن يتشفى منه الزمان ،

---

(١) سورة النساء الآية : ٣٢ .

وربما يحيل ذلك على كرامة نفسه عند الله تعالى ، فكلما أصابت عدوه بلية فرح بها ، وظنها مكافأة له من جهة الله على بغضه ، وأنها لأجله . وكلما أصابته نعمة ساءه ذلك ، لأنه ضد مراده .. وهذا مما وصف الله تعالى الكفار به ، أعنى الحسد بالعداوة ، إذ قال تعالى :

﴿ وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلَوْا عضُّوا عليكم الأناملَ من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليمٌ بذات الصدور * إن تمسسكم حسنةٌ تسؤهم وإن تصبكم سيئةٌ يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط ﴾[1] .

وكذلك قال:

﴿ ودوا ما عنتُّم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر ﴾[2] .

والحسد بسبب البغض ربما يفضى إلى التنازع والتقاتل ، واستغراق العمر فى إزالة النعمة بالحِيَل ، والسِّعاية ، وهتك السِّتر ، وما يجرى مجراه .

الثانى : **التعزز** : وهو أن يثقل عليه أن يترفع عليه غيره ، فإذا أصاب بعض أمثاله ولايةً ، أو علماً ، أو مالًا ، خاف أن يتكبر عليه ، وهو لا يطيق تكبره ، ولا تسمح نفسه باحتمال صلفه وتفاخره عليه ، وليس من غرضه أن يتكبر عليه ، بل غرضه أن يدفع كبره ، فإنه قد يرضى بمساواته مثلًا ، ولكن لا يرضى بالترفع عليه .

الثالث : **الكِبر** : وهو أن يكون فى طبعه أن يتكبر عليه ، ويستصغره ، ويتوقع منه الانقياد له ، والمتابعة فى أغراضه ، فإذا نال نعمةً خاف أن لا يحتمل تكبره ، ويترفع عن متابعته ، أو ربما يتشوف إلى مساواته ، أو إلى أن يرتفع عليه ، فيعود متكبراً ، بعد أن كان متكبراً عليه . ومن التكبر والتعزز كان حسد أكثر الكفار لرسول الله ﷺ ، إذ قالوا : كيف يتقدم علينا غلام يتيم ؟ وكيف نطأطىء رءوسنا ؟ فقالوا :

---

(١) سورة آل عمران الآيتان : ١١٩ ــ ١٢٠ .

(٢) سورة آل عمران الآية : ١١٨ .

﴿ لولا نُزِّلَ هذا القرآنُ على رجلٍ من القريتين عظيم ﴾[1] .

أى كان لا يثقل علينا أن نتواضع له ونتبعه ، إذا كان عظيماً . وقال تعالى يصف قول قريش :

﴿ أهؤلاء مَنَّ اللهُ عليهم من بيننا ﴾[2] .

كالاستحقار لهم ، والأَنَفة منهم .

الرابع : التعجب : كأن يتعجب المرء من حصول مَنْ هو أقل درجة منه ــ حسب زعمه ــ على نعمة ، ويرى أنه كان أَوْلَى بها ، فيحسده على هذه النعمة كما تعجب الكفار من نزول الرسالات السماوية على مَنْ اصطفاهم الله من عباده ، فقالوا :

﴿ إن أنتم إلا بشر مثلنا »[3] .

﴿ أنؤمن لبشرين مثلنا ﴾[4] .

﴿ ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون ﴾[5] .

فتعجبوا من أن يفوز برتبة الرسالة ، والوحى ، والقرب من الله ، بشر مثلهم ، فحسدوهم وأحبوا زوال النبوة عنهم ، جزعاً أن يفضل عليهم مَنْ مثلهم فى الخِلْقة .

الخامس : الخوف من فوات المقصود : وذلك يختص بمتزاحمين على مقصود واحد ، فإن كل واحد يحسد صاحبه فى كل نعمة تكون عوناً له فى الانفراد بمقصوده .

ومن هذا الجنس :

ــ تحاسد الضرات فى التزاحم على مقاصد الزوجية ، وتحاسد الإخوة فى التزاحم على نيل المنزلة فى قلب الأبوين ، للتوصل به إلى مقاصد الكرامة

(١) سورة الزخرف الآية : ٣١ .

(٢) سورة الأنعام الآية : ٥٣ .

(٣) سورة إبراهيم الآية : ١٠ .

(٤) سورة المؤمنون الآية : ٤٧ .

(٥) سورة المؤمنون الآية : ٣٤ .

والمال .

ــ وتحاسد التلميذين لأستاذ واحد على نيل المرتبة من قلب الأستاذ .

ــ وتحاسد ندماء الملك وخواصه فى نيل المنزلة من قلبه ، للتوصل به إلى المال والجاه .

ــ وتحاسد الواعِظَيْن المتزاحِمَيْن على أهل بلدة واحدة ، إذا كان غرضهما نيل المال بالقبول عندهم .

ــ وتحاسد العالِمَيْن المتزاحِمَيْن على طائفة من المتفقهة محصورين ، إذ يطلب كل واحد منزلة فى قلوبهم ، للتوصل بهم إلى أغراض له .

السادس : حب الرياسة ، وطلب الجاه لنفسه من غير توصل إلى مقصود : وذلك كالرجل الذى يريد أن يكون عديم النظير فى فن من الفنون ، إذا غلب عليه حب الثناء ، واستفزه الفرح بما يمدح به ، من أنه واحد الدهر ، وفريد العصر فى فنه ، وأنه لا نظير له ، فإنه لو سمع بنظير له فى أقصى العالم ، لساءه ذلك ، وأحب موته ، أو زوال النعمة عنه ، التى بها يشاركه المنزلة : من شجاعة ، أو علم ، أو عبادة ، أو صناعة ، أو جمال ، أو ثروة ، أو غير ذلك مما يتفرد هو به ، ويفرح بسبب تفرده، وليس السبب فى هذا عداوة ولا تعزز ، ولا تكبر على المحسود ، ولا خوف من فوات المقصود ، سوى محض الرياسة بدعوى الانفراد . وهذا وراء ما بين آحاد العلماء من طلب الجاه والمنزلة فى قلوب الناس ، للتوصل إلى مقاصد الرياسة . وقد كان علماء اليهود ينكرون معرفة رسول الله ﷺ ، ولا يؤمنون به ، خيفة من أن تبطل رياستهم .

السابع : خبث النفس وشحها : إذ يوجد من الناس من لايحب الخير لغيره ، فإذا رأى أو سمع أن لفلان نعمة ، كره ذلك ، وأحب زوالها . ويدخل السرور على قلبه ما يصيب الناس من كوارث ، وما يعتريهم من محن ، فهو أبداً يحب الإدبار لغيره ، ويبخل بنعمة الله على عباده ، كأنهم يأخذون من ملكه وخزانته .

ويقال :

البخيل : من يبخل بمال نفسه .

والشحيح : هو الذى يبخل بمال غيره .

فهذا يبخل بنعمة الله تعالى على عباده ، الذين ليس بينه وبينهم عداوة ولا رابطة . وليس لهذا التصرف سبب ظاهر ، إلا خبث فى النفس ، ورذالة فى الطبع ... ومن هنا ، فمعالجته شديدة ، لأن الحسد الثابت بسائر الأسباب ، أسبابه عارضة ، يتصور زوالها ، فيطمع فى إزالتها ، وهذا خبث فى الجِبِلَّة ، لا عن سبب عارض ، فتعسر إزالته ، إذ يستحيل فى العادة إزالته .

٧ ــ سبب كثرته بين الأقران : ذكر الغزالى أن الحسد يكثر بين أقوام تجمعهم روابط ، كالأقران ، والإخوة ، وبنى الأعمام ، والأقارب ، ذلك أن قرب المرء من زميله ، أو قريبه من العوامل الأساسية التى تدفعه إلى حب التفوق عليه ، سواء كان ذلك فى مجال المركز والجاه والسلطان ، أو فى مجال المال وما يترتب عليه من التمتع المادى بجميع أنواعه وصوره ، فإذا رآه متمتعاً بنعمة من هذه النعم ، نفر طبعه منه وأبغضه ، فيتولد من ذلك الحقد عليه ، وحسده على هذه النعمة ، فالتجاور فى السكن ، أو السوق ، أو فى مكان العمل والقرب بسبب القرابة ، أو المعرفة ، وما شابهها يولد الحسد بين القرينين . فالروابط بين الأشخاص ــ أياً كان نوعها ــ عامل أساسى فى وجود الحسد ، إذ لا يتصور وجود حسد بين شخصين لا يربط أحدهما بالآخر رابط .. وبالتالى يمتنع الحسد ، إذا لم يكونا متجاورين . ومن هنا نرى العالم يحسد العالم دون العابد ، والعابد يحسد العابد دون العالم ، والتاجر يحسد التاجر ، بل الإسكاف يحسد الإسكاف ، ولا يحسد البزاز إلا بسبب آخر ، سوى الاجتماع فى الحرفة .

ويحسد الرجل أخاه ، وابن عمه ، أكثر مما يحسد الأجانب . والمرأة تحسد أم الزوج وابنته .. وكذلك الشجاع يحسد الشجاع ، ولا يحسد العالم ، لأن مقصده أن يذكر بالشجاعة ويشتهر بها ، وينفرد بهذه الخصلة ولا يزاحمه العالم على هذا الغرض ، وكذلك يحسد العالِمُ العالِمَ ولا يحسد الشجاع . ثم حسد الواعظ للواعظ أكثر من حسده للفقيه والطبيب ، لأن التزاحم بينهما على

مقصود واحد أخص .

فأصل هذه المحاسدات العداوة ، وأصل العداوة التزاحم بينها على غرض واحد ، والغرض الواحد لا يجمع متباعدين ، بل متناسبين ، فلذلك يكثر الحسد بينهما .

فإذا انتفت هذه العلة ــ وهى كثرة المزاحمة على غرض واحد ــ فلا حسد ، ويبدو ذلك واضحاً فيما يتعلق بالآخرة ، إذ لا ضيق فيها ، فيوجد متسع للجميع ، وضرب الغزالى مثلًا لذلك بنعمة العلم ، « فمن يحب معرفة الله تعالى ، ومعرفة صفاته ، وملائكته ، وأنبيائه ، وملكوت سماواته ، وأرضه ، لم يحسده غيره ، إذا عرف ذلك أيضاً ، لأن المعرفة لا تضيق على العارفين ، بل المعلوم الواحد يعلمه ألف ألف عالم ، ويفرح بمعرفته ، ويلتذ به ، ولا تنقص لذة واحدة بسبب غيره ، بل يحصل بكثرة العارفين زيادة الأُنْس وثمرة الاستفادة والإفادة . فلذلك لا يكون بين علماء الدين محاسدة ، لأن مقصدهم معرفة الله تعالى ، وهو بحر واسع لا ضيق فيه ، وغرضهم المنزلة عند الله ، ولا ضيق أيضاً فيما عند الله تعالى ، لأن أجَلَّ ما عند الله سبحانه من النعيم لذة لقائه ، وليس فيها ممانعة ومزاحمة ، ولا يضيق بعض الناظرين على بعض ، بل يزيد الأُنْس بكثرتهم » .

« نعم ، إذا قصد العلماء بالعلم المال والجاه تحاسدوا ، لأن المال أعيان وأجسام ، إذا وقعت فى يد واحد ، خلت عنها يد الآخر . ومعنى الجاه ملك القلوب . ومهما امتلأ قلب شخص بتعظيم عالِم ، انصرف عن تعظيم الآخر ، أو نقص عنه لا محالة ، فيكون ذلك سبباً للمحاسدة » .

٨ ــ **دواؤه** : ليس الحسدُ مرضاً عضوياً يداوى بالأدوية الكيماوية ، بل هو مرض نفسى ، أو هو ــ كما عبر الغزالى :ــ

« من الأمراض العظيمة للقلوب ، ولا تداوى أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل ، والعلم النافع لمرض الحسد : هو أن تعرف تحقيقاً :

ــ أن الحسد ضرر عليك فى الدنيا والدين .

ــ وأنه لا ضرر فيه على المحسود فى الدنيا والدين ، بل ينتفع به فيهما .

وواضح من هذا التعبير أن الغزالى يرى : أن الحسد يضر الحاسد فى دينه ودنياه ، ولا يلحق المحسودَ ضررٌ إطلاقاً ، كما يعتقد العامة — بل وكثير من الخاصة — ذلك ، ولا سند لهذا الاعتقاد سوى ما يروى من خرافات وأساطير ، انحدرت إلينا من الشعوب البدائية ، كما وضحت ذلك سابقاً .

ثم يفسر الغزالى ضرره على الحاسد ، فيقول :

« أما كونه ضرراً عليك — أيها الحاسد — فى الدين ، فهو أنك بالحسد سخطت قضاء الله تعالى ، وكرهت نعمته التى قسمها بين عباده ، وعدله الذى أقامه فى ملكه بخفى حكمته ، فاستنكرت ذلك واستبشعته . وهذه جناية على حدقة التوحيد ، وقذى فى عين الإيمان . وناهيك بها جناية على الدين » .

« وأما كونه ضرراً عليك فى الدنيا ، فهو أنك تتألم بحسدك فى الدنيا ، أو تتعذب به ، ولا تزال فى كمدٍ وغم ، إذ أعداؤك لا يخليهم الله تعالى عن نعم يفيضها عليهم ، فلا تزال تتعذب بكل نعمة تراها ، وتتألم بكل بلية تنصرف عنهم ، فتبقى محروماً ، متشعب القلب ، ضيق الصدر ، قد نزل بك ما يشتهيه الأعداء لك ، وتشتهيه لأعدائك فقد كنت تريد المحنة لعدوك ، فتنجزت فى الحال محنتك وغمك نقداً ، ومع هذا فلا تزول النعمة عن المحسود بحسدك » .

« وأما أنه لا ضرر على المحسود فى دينه ودنياه فواضح ، لأن النعمة لا تزول عنه بحسدك ، بل ما قَدَّره الله تعالى من إقبال ونعمة ، فلا بد أن يدوم إلى أجل غير معلوم قَدَّره الله سبحانه وتعالى ، فلا حيلة فى دفعه ، بل كل شىء عنده بمقداره ، ولكل أجل كتاب .. فإذا لم تزل النعمة بالحسد ، لم يكن على المحسود ضرر فى الدنيا ، ولا يكون عليه إثم فى الآخرة . ولعلك تقول : ليت النعمة كانت تزول عن المحسود بحسدى . **وهذا غاية الجهل** ، فإنه بلاء تشتهيه أولًا .. لنفسك ، فإنك أيضاً لا تخلو عن عدو يحسدك ، فلو كانت النعمة تزول بالحسد ، لم يُبقِ الله تعالى عليك نعمة ، ولا على أحد من الخلق ، ولا نعمة الإيمان أيضاً ، لأن الكفار يحسدون المؤمنين على الإيمان ، قال تعالى :

﴿ ودَّ كثير من أهل الكتاب لوْ يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً

من عند أنفسهم ... ﴾[1] .

إذ ما يريد المحسود لا يكون.

وأما أن المحسود ينتفع به فى الدين فواضح :

أما منفعته فى الدين :

ــ فهو أنه مظلوم من جهتك ، لا سيما إذا أخرجك الحسد إلى القول والفعل بالغيبة ، والقدح فيه ، وهتك سِتْرِه ، وذكر مساويه .

فهذه هدايا تهديها إليه ، أعنى أنك بذلك تهدى إليه حسناتك ، حتى تلقاه يوم القيامة مُفْلِساً ، محروماً عن النعمة ، كما حرمت فى الدنيا عن النعمة ، فكأنك أردت زوال النعمة عنه فلم تزل .

وأما منفعته فى الدنيا :

ــ فهو أن أهم أغراضك مساءة الأعداء ، وغمهم ، وشقاوتهم ، وكونهم معذبين مغمومين . ولا عذاب أشد مما أنت فيه من ألم الحسد . وغاية أمانى أعدائك أن يكونوا فى نعمة ، وأن تكون فى غم وحسرة بسببهم ، وقد فعلت بنفسك ما هو مرادهم . ولذلك لا يشتهى عدوك موتك ، بل يشتهى أن تطول حياتك ، ولكن فى عذاب الحسد ، لتنظر إلى نعمة الله عليه ، فيتقطع قلبك حسداً .

ولذا قيل :

لا مات أعداؤك بل خلدوا ... حتى يروا فيك الذى يُكمِد
لا زلت محسوداً على نعمة ... فإنما الكامل من يُحْسَد

وعليه ، **فلا ضرر على المحسود ، وإنما الضرر كل الضرر على الحاسد ،** فعمله مردود عليه ، يصور الغزالى ذلك ، فيقول :

« لو كوشفت بحالك ــ أيها الحاسد ــ فى يقظة أو منام ، لرأيت نفسك فى صورة من يرمى سهماً إلى عدوه ، ليصيب مقتله ، فلا يصيبه ، بل يرجع إلى حدقته اليمنى فيقتلعها ، فيزيد غضبه ، فيعود ثانية ، فيرمى أشد من الأولى ،

---

(١) سورة البقرة الآية : ١٠٩ .

فيرجع إلى عينه الأخرى فيعميها ، فيزداد غيظه ، فيعود على رأسه فيشجه ، وعدوه سالم فى كل حال ، وهو إليه راجع مرة بعد أخرى ، وأعداؤه حوله يفرحون ، ويضحكون عليه » .

إذا فهم الحاسد هذه الحقيقة ، وفكر بذهن صاف فيما يحدث له من جَرَّاء الحسد ، لأدرك أنه مهلك نفسه ، ومفرح عدوه ، ومسخط ربه ، ومنغص على نفسه حياتها .

وليس له من سبيل إلى الخروج من ذلك إلا أن يحمل نفسه على مدح المحسود والثناء عليه ، كلما دفعه الحقد عليه ، وحدثته نفسه بما يدفعه إلى الحسد. ، فإن حمله الحسد « على التكبر عليه ، ألزم نفسه التواضع له ، والاعتذار له . وإنْ بعثه على كف الإنعام عليه ، ألزم نفسه الزيادة فى الإنعام عليه . إذ كلما فعل ذلك عن تكلف ، وعرفه المحسود طاب قلبه وأحبه . وكلما ظهر حبه ، عاد الحاسد فأحبه ، وتولد من ذلك الموافقة التى تقطع مادة الحسد ، لأن التواضع ، والثناء والمدح ، وإظهار السرور بالنعمة ، يستجلب قلب المنعم عليه ، ويسترقه ، ويستعطفه ، ويحمله على مقابلة ذلك بالإحسان . ثم ذلك الإحسان يعود إلى الأول ، فيطيب قلبه ، ويصير ما تكلفه أولًا : طبعاً آخر » .

« فهذه هى أدوية الحسد ، وهى نافعة جداً ، إلا أنها مُرَّة على القلوب جداً ، ولكن النفع فى الدواء المُرّ ، فمن لم يصبر على مرارة الدواء ، لم ينل حلاوة الشفاء » .

٩ ــ مدى إمكانية دفع الحسد : لا يستطيع الإنسان أن يتحكم تحكماً كلياً فى انفعالاته وغرائزه ، لأن ذلك خاضع لعوامل نفسية وبيولوجية ، لم يتوصل العلم بعد إلى اكتشاف ما يتمكن به الإنسان من توجيهها وفق ما يريد ، أو السيطرة عليها سيطرة تامة عند ما يشاء ، فما زالت القدرة البشرية عاجزة عن الوصول إلى مصادرها أو معرفة ينابيعها ، لصياغتها حسبما يريد المرء ، أو تشكيلها طبقاً لما تمليه عليه المبادىء والتقاليد ، ووفقاً لما تفرضه عليه الشرائع والواجبات الدينية ، بل غاية ما توصل إليه ــ عن طريق الثقافة

والتربية ، وبمساعدة تأدية الفروض الدينية ، والواجبات الشرعية ـــ هو تهذيبها وكبح جماحها ، إنْ بدا أنَّ آثارها ستصيبه بالضرر ، أو تلحق الأذى بالآخرين .

ومن المعروف أن الحسد من الظواهر الانفعالية ، فهو غريزة طبيعية فى الإنسان ، إذ من المُسَلَّم به أن من آذاك ، فلن تستطيع دفع غريزتك ، إنْ نازعتك إلى بُغضه . فإنْ رأيته فى نعمة ، فلن تستطيع الخلاص من غريزة الحسد ، وتمنى زوال نعمته ، لأن الحسد من عمل القلب ، ولا يستطيع المرء أن يتحكم فى قلبه ، أو يسيطر على غرائزه وانفعالاته إزاء ما يثيرها ، ويؤثر عليها تأثيراً خارجاً عن إرادة الإنسان ، وبعيداً عن دائرة قدرته . وهو فى هذا الحال لم يرتكب مظلمة يجب عليه الاستحلال منها وإن اعتبر عاصياً ، إلا أن معصيته بينه وبين الله تعالى ، فهو الذى يعلم بحاله ، وهو القادر على معرفة أبعاد هذه المعصية ، ومدى قدرة مرتكبها على التخلص منها ، إلا أنه ينبغى على من يصاب بهذه الحالة ألا يتجاوزها إلى عمل شىء يصيب المحسود بضرر ، يقول الإمام الغزالى فى هذا الصدد :

« ... محل الحسد القلب دون الجوارح ... فإذا كففت ظاهرك ، وألزمت مع ذلك قلبك كراهة ما يترشح منه بالطبع : من حب زوال النعمة ، حتى كأنك تمقت نفسك على ما فى طبعها فتكون تلك الكراهة من جهة العقل ، فى مقابلة الميل من جهة الطبع ، فقد أديت الواجب عليك ، ولا يدخل تحت اختيارك فى أغلب الأحوال أكثر من هذا . فأما تغيير الطبع ليستوى عنده المؤذى والمحسن ، ويكون فرحه ، أو غمه بما تيسر لهما من نعمة ، أو تنصب عليها من بلية سواء ، فهذا مما لا يطاوع الطبع عليه ، مادام ملتفتاً إلى حظوظ الدنيا ، إلا أن يصير مستغرقاً بحب الله تعالى ، مثل السكران الواله ، فقد ينتهى أمره إلى أن لا يلتفت قلبه إلى تفاصيل أحوال العباد ، بل ينظر إلى الكل بعين واحدة ، وهى عين الرحمة ويرى الكل عباد الله ، وأفعالهم أفعالًا لله ، ويراهم مسخرين ، وذلك إنْ كان ، فهو كالبرق الخاطف ، لا يدوم ، ثم يرجع القلب بعد ذلك إلى طبعه ، ويعود العدو إلى منازعته ـــ أى الشيطان ـــ ، فإنه ينازع بالوسوسة ، ولكنه كلما قابل ذلك بكراهته ،

وألزم قلبه هذه الحالة ، فقد أدى ما يمكنه عمله ، ولا يكلف أكثر من ذلك . وقد ذهب بعضهم إلى أنه لا يأثم إذا لم يظهر الحسد على جوارحه » .

وعليه ، فأحوال الحاسد إزاء أعدائه — فى نظر الغزالى — لا تخرج عن ثلاث :

أحدها : أن يحب مساءتهم بطبعه ، ويكره حبه لذلك ، وميل قلبه إليه بعقله ويمقت نفسه عليه ، ويود لو كان له حيلة فى إزالة ذلك الميل منه .

وهذا معفو عنه قطعا ، لأنه لا يدخل تحت الاختيار أكثر منه ..

ثانيها : أن يحب ذلك ، ويظهر الفرح بمساءته ، إما بلسانه أو بجوارحه . فهذا هو الحسد المحظور قطعاً .

ثالثها : وهو بين الطرفين ، بمعنى أن يحسد بالقلب من غير مقت للنفس على هذا الحسد ، ومن غير إنكار عقلى على ما يعتلج فى قلبه من حسد ، لكنه يحفظ جوارحه ، فلا يتركها تنال من المحسود .

وهذا محل خلاف ، لكن الأرجح أنه لا يخلو عن إثم بقدر قوة ذلك الحب وضعفه .

* * * *

الفصـــل الثالث

الحســد في الأحاديــث النبـويـة

الحسد فى الأحاديث النبوية

مدخـــل :

يكاد يكون الاعتقاد فى تأثير العين الشريرة على المعيون تأثيراً مباشراً ، عاماً وشاملًا لجميع المجتمعات الإنسانية ، إذ لا يخلو تراث من قصص وأساطير ، تتحدث عن ضحايا الحاسدين ، وعن مآسى المحسودين من جراء ما لحق بهم من ضرر ، نتيجة وقوعهم تحت لحظة من عين حسود ، أو نظرة خاطفة من عين شريرة ، بل إن من النادر ــ وخاصة فى المجتمعات النامية ــ أن يتخلص فرد من هذا الموروث الاعتقادى ، مهما كانت درجة ثقافته وعلمه ، وعلى أى شكل حضارى كانت حياته ومعيشته ، إذ يقع العالم والجاهل ، والمثقف وغير المثقف ، والبدائى والحضارى تحت تأثير هذا الاتجاه ، حيث يرى نفسه أمام الظواهر التى لا يستطيع لها تفسيراً ، أسيراً لهذا الاعتقاد ، وخاصة عندما تعجز قدرته عن معرفة أسباب ما يصيبه ، أو يصيب أحداً من أقاربه ، أو ممن يتصلون به ، ويختلط بهم فى حياته ، ولذلك نراه يميل إلى تصديق ما يروى له من أساطير ، تُبرِّر اعتقاده فى هذا المجهول ، وتؤكد له وقوع مثل هذه الظواهر فى قديم الزمان وحديثه ، فترتاح نفسه ويستقر فى قلبه ما يطمئنه على أن ما يعتقده فى هذا المجال ليس بعيداً عن الواقع ، بل هو حقيقة مؤكدة ، وإنْ لم يتوصل الإنسان بعد إلى سبب مادى يؤكدها . وكأن تلك المرويات الخرافية هى الدليل الذى لا ينقض ــ على الأقل فى وجدانه ــ على صحة ما يعتقده معظم الناس ــ إنْ لم يكن كلهم ــ فى تأثير عين العائن على المعيون ، فيطمئن قلبه ، وترتاح نفسه ، بل تراه ينبرى للدفاع عنه ، إذا ووجه بما يشكك فى صحته ، أو يزعزع الإيمان به ، فيظل يردد ما سمعه من أساطير العصور الماضية ، حول هذا الموضوع بأسلوب يوحى للسامع بأنه قد عاشها ، ورأى هذه الأحداث بأم عينه . وهذا يؤكد ما ذهب إليه بعض الباحثين من أن

أساطير المجتمعات البدائية لم تختف كلية من المجتمعات المعاصرة ، وخاصة إذا كانت أسباب ما تدور حوله لازالت مجهولة ، لم يكتشفها العلم بعد ، كتأثير عين العائن على المعيون .

ولم تسلم النصوص الدينية فى الأديان السماوية من تأثير هذا الاتجاه ، إذ نرى المفسرين يؤولونها بما يفيد تأكيد صحة هذا الاعتقاد ، فقد جاء فى التوراة هذا النص :

(يوسف غصن شجرة مثمرة ، غصن شجرة مثمرة على عين)[1] .

ومعنى العين هنا : عين الماء ..

ولكن بعض المفسرين أولوها تأويلًا آخر ، فذهبوا إلى أن المقصود من العين هنا هو : عين الحسود ، واستنتجوا من هذا أن عين الحسود لا تصيب أحداً من نسل يوسف ، لأنه كان غصن شجرة متسلط على العيون الشريرة ، فهى لا تصيب أحداً من نسله ، ورووا أسطورة فى التلمود تؤكد هذا التفسير ، وهى :

أن « فقيهاً » حذَّر رجلًا من ضرر عين الحسود ، فنصحه بأن يبتعد عنه ، كى لا تقع عينه عليه ، فيصيبه ضرر ، فرد عليه الرجل قائلًا : أنا من نسل يوسف ، لا تستطيع العين الشريرة أن تصيبنى بضرر[2] .

كذلك فسر بعض علماء المسيحية نصوصاً فى التوراة والإنجيل بما يفيد أنها تؤكد صحة ما يعتقده الناس فى تأثير العين الشريرة ، فما ورد فى تلك النصوص من أحاديث عن التطير والتفاؤل ، فسرها العلماء باحتمال أن يكون المقصود بهما ــ أى التطير والتفاؤل ــ أولئك الذين لديهم عين شريرة ، أى العائنون الذين يصيبون من يرونهم إصابات قاتلة[3] .

وتأثر الفكر الإسلامى أيضاً بهذه الظاهرة ، فرأينا علماء لهم قدم راسخة

---

(١) سِفْر التكوين : ٤٩ : ٢٢ .

(٢) Seligmamm : Bd - Is - I

(٣) قارن المصدر السابق جـ ١ ، ص ١٢ وما بعدها .

فى فهم النصوص وتأويلها ، يتأثرون بهذا الاتجاه ، فيميلون كل الميل إلى الاعتقاد فى قوة العين وتأثيرها على المعيون ، لدرجة أنهم يهاجمون المعارضين هجوماً عنيفاً ، فيصفونهم بقلة العقل والسمع ، وينعتونهم بالغفلة ، والجهل ويرون أنهم — أى المنكرين لتأثير عين الحسود على الحاسد — من أغلظ الناس حجاباً وأكثرهم طباعاً ، وأبعدهم عن معرفة ذلك الأثر الروحانى « اللامرئى » ، يقول ابن القيم :

« أبطلت طائفة ممن قل نصيبهم من السمع والعقل أمر العين ، وقالوا : إنما ذلك أوهام لا حقيقة لها ، وهؤلاء من أجهل الناس بالسمع والعقل ، ومن أغلظهم حجاباً ، وأكثفهم طباعاً ، وأبعدهم معرفة عن الأرواح والنفوس ، وصفاتها ، وأفعالها وتأثيراتها »[1] .

وليس من المستغرب ، ولا من المستبعد — عقلًا وواقعاً — أن يظهر هذا الاتجاه فى الفكر الإسلامى ، لأنه من الظواهر التى عمت جميع مناطق الكرة الأرضية ، فقد سيطر هذا الاتجاه على الفكر الإنسانى كله فى العصور القديمة والمتوسطة ، بل ظلت له السيادة على سلوكيات كثير من الناس فى العصر الحديث ، على الرغم من القفزة الهائلة فى المجالات المتعددة لعلم النفس ، وعلوم الاجتماع ، حيث كشفت الأبحاث والتجارب كثيراً مما كان غامضاً على الإنسان قبل عصر النهضة .

كان من الطبيعى أن ينتشر هذا الاعتقاد بين المسلمين ، لأن الإنسان بحكم تكوينه يميل إلى تصديق كل ما من شأنه أن يفسر له الغموض الذى يحيط به ، وخاصة إذا كان مرتبطاً بما يصيبه من ضرر وآلام ، وما يتصل به من نتائج لا يعرف مصدرها ، ولا يدرك أسبابها ، فدور الأساطير فى هذا المجال : هو التخفيف النفسى الذى يسبغ على الإنسان نوعاً من الهدوء والاطمئنان ، فهو يحس فى رواية هذه الأساطير والاطمئنان إليها بأنه قد انتشل من دوامة الحيرة والارتباك . فهى أشبه ما تكون بإحساس شارب الخمر ، ومتعاطى المخدرات : إحساس بالراحة الزائفة ، مع عدم الوصول إلى أسلوب نافع ، لمواجهة هذه

---

(١) زاد المعاد : جـ ٤ ص ١٦٥ .

الظاهرة مواجهة جادة ومؤثرة ، ولهذا نرى أن هذه الأساطير تزداد انتشاراً فى عهود الانحطاط والانحدار الفكرى ، فيصدقها الناس ، ويدافعون عنها بكل ما أوتوا ، حتى ولو كان ذلك عن طريق تأويل النصوص الدينية ، وترويج المرويات التى أقحمت على التراث الدينى تحت الضغط النفسى لهذه الظاهرة ، وانتشارها الواسع بين الناس ، لتأكيد صحتها ، وبيان أن مصادر الدين أقرتها ، فأعطتها جواز المرور إلى نفوس المتدينين ، فتكتسب بذلك قوة يصعب على المفكرين الجادين إضعافها ، لأنهم لن يقفوا أمام ظاهرة اجتماعية فحسب ، بل سيواجهون مبدأ ، لبس مسوح الدين ، المدعم بالنصوص المقدسة .

وعلى الرغم من الصعوبة البالغة فى مواجهة ظاهرة هذا شأنها ، إلا أننا وجدنا فى الفكر الإسلامى من يتصدون لهذا الاعتقاد المنحدر من عقائد الوثنيين ، وعادات البدائيين فينكرون تأثير المعين على المعيون بمجرد النظر ، يقول الحارث المحاسبى :

« ... ولو كان يضر المحسودَ حسدُ الحاسد له ، فيزيل عنه بحسده له النعم ، لدخل عليك أعظم الضرر ، لأنك لا تَعْرى[1] أن يحسدك غيرك ، فلو كان الحسد يضر المحسود ، لما بقيت عليك نعمة ، إذ كنت لا تَعْرَى أن يحسدك حاسد ، فيحب زوال النعمة عنك »[2] .

ويقول الإمام الغزالى :

فلو كانت النعمة تزول بالحسد ، لم يبق الله تعالى عليك نعمة ، ولا على أحد من الخلق ، ولا نعمة الإيمان أيضاً ، لأن الكفار يحسدون المؤمنين على الإيمان ، قال تعالى :

﴿ وَدَّ كثيرٌ من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم ... ﴾[3] .

---

(١) عرى ، يعرى : غَشِيَ ـــ وأَلَمَّ .

(٢) المحاسبى : الرعاية .. ص ٤٠٤ .

(٣) سورة البقرة الآية : ١٠٩ .

إذ ما يريد المحسود لا يكون .. وإن اشتهيت أن تزول النعمة عن الخلق بحسدك ، ولا تزول عنك بحسد غيرك ، **فهذا غاية الجهل والغباوة**[1] .

غير أنهم لم يتناولوا استدلال المؤيدين بالقرآن الكريم على صحة اعتقادهم فى إلحاق الضرر بالمحسود بمجرد النظر إليه ، إذ كان المقام يقتضى منهم أن يفسروا ما ورد فى القرآن الكريم عن الحسد على نحو يضعف الاستدلال بهذه الآيات على صحة ما يحاك حول هذه الظاهرة من أساطير ، ويوجهها إلى ما يقضى على هذه الخرافات ، لأن السهم الذى يبدو قاتلا للمعارض فى معرض المناقشات حول هذا الموضوع ، هو ما يردده المؤيدوين دائماً :

كيف تنكر الحسد وقد ورد فى القرآن الكريم ؟

وكأنهم يريدون بذلك التلميح بأن مَنْ ينكر هذا ، يكون قد أنكر نصاً من نصوص القرآن الكريم ، ومن يصل إلى هذا الحد ، فلا تسل عن نظرة الناس إليه ، وحكمهم على عقيدته .

وكذلك لم يبين المنكرون لنا رأيهم فيما ورد من أحاديث تثبت صحة رأى المؤيدين ، وخاصة أن من بينها أحاديث ، جاء الإخبار فيها بضرر المحسود من جراء نظرة الحاسد واضحاً لا لبس فيه ، ومن أشهر تلك الأحاديث ما حكاه الرواة من : أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « العين تدخل الرجل القبر والجمل القدر »[2] . بل إن الإمام الغزالى ذكر حديثاً قريباً من هذا المعنى فى معرض الاستدلال على وقوع الحسد وهو : « كاد الفقر أن يكون كفراً ، وكاد الحسد أن يغلب القدر »[3] .

ولهذا سوف نتناول بالدراسة : الآيات التى تحدثت أو أشارت إلى الحسد ، وكذلك ما ورد فى هذا الصدد من أحاديث ، لنلقى الضوء على هذا الموضوع ، وسنبدأ باستعراض الأحاديث التى ورد فيها ذكر الحسد ، ثم نختم بحثنا بتوضيح معنى الحسد الذى جاء ذكره فى القرآن الكريم ، ليكون الحديث

---

(١) الغزالى : إحياء علوم الدين جـ ٣ ص ١٩٧ .

(٢) الأصفهانى : حلية الأولياء .. جـ ٧ ص ٩٠ .

(٣) الغزالى : إحياء علوم الدين جـ ٣ ص ١٨٧ .

عن موقف القرآن الكريم عن الحسد هو البيان الأخير ، والختام المسك ، فهو القول الفصل ، ولا قول بعده :

﴿ **إنه لَقَوْلٌ فصل * وما هو بالهزل** ﴾[1] .

﴿ **إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم** ﴾[2] .

* * * *

عندما يتحدث المرء عن الحسد فى الأحاديث النبوية ، فإن منهج البحث يحتم عليه أن يحدد مفهوم ما يريد إثباته فى هذا المجال ، لأن زوايا البحث متعددة ، وصوره متنوعة ، فلو اختلط الأمر بينها ضاعت معالم الطريق التى تفصل بين المؤيدين والمعارضين .

ولو لم يحدد الباحث كل جزئية من جزئيات البحث ، ويلقى الضوء عليها من حيث إمكانية ثبوتها ونفيها ، لصارت الأحكام عامة ، يمتزج فيها الثابت بالمنفى ، فتضيع الفواصل التى تميز الحقائق من الأساطير ، وتختفى المنارات التى تكشف الخط الفاصل بين النصوص الدينية ، وأباطيل الأحاديث الخرافية ، وتوضح الفرق بين مفهوم التعاليم السماوية ، وبين ما توحى به مرويات الذين غُيِّبَت عقولهم ، فاستكانوا إلى أحاديث القرون الوسطى ، وتخاريف الوثنيات الأولى .

ومن هنا نفتح صفحة الأحاديث النبوية ، لنبحث فيها عن خمس نقاط محددة ، تتعلق بالحسد ، وهى :ـــ

١) إمكانية وجود الحسد ..

٢) ضرر عين العائن للمعيون ..

٣) التمائــم ..

٤) التعاويذ والرقى ..

٥) أساليب علاج المحسود ..

---

(١) سورة الطارق الآيتان : ١٣ ــ ١٤ .

(٢) سورة الإسراء الآية : ٩ .

١ ــ إمكانية وجود الحسد :

تتحكم فى الإنسان ــ بحكم وجوده داخل مجموعة من أمثاله ــ مجموعة من الغرائز تدفعه إلى الاصطدام مع أقرانه ، إذ عندما يستجيب لغرائزه ، فيسلك من الطرق ما يرى أنها تحقق له إشباعها ، يصطدم برغبات الآخرين فى حالة فقدان التوازن بين العرض والطلب ، فإن وجدت الوفرة التى تشبع رغبات جميع الساعين إلى التملك والاستيلاء على ما يشبع رغباتهم ، فلن تهدأ النزعة الإنسانية أيضاً ، قناعة بما تحقق لها . ولن تطمئن النفوس بما حصلت عليه من متع الحياة وزينتها ، لأن طبيعة الإنسان مفطورة ــ فى الغالب الأعم ــ على طلب المزيد ، حتى وإن لم تدع الحاجة الطبيعية إليه ، فالنفوس مشرئبة دائماً إلى طلب الاستحواذ على مافى يد الغير ، والقلوب متلهفة إلى اللحظة التى يحس المرء فيها أنه مميز على جميع أقرانه ، ومتفوق على من حوله ، فإذا عجزت نفسه عن الوصول إلى هذا المبتغى ، فلم تسعفه قدرته على امتلاك ما يتمتع به غيره من مال ، أو جاه ، أو غير ذلك من النعم ، نقم عليه ، وتمنى زوال هذه النعمة عنه ، **وذلك هو الحسد** .

فوجود الحسد فى المجتمع الإنسانى نتيجة لازمة لحياة الإنسان مع بنى جنسه، سواء كانت تلك الحياة بدائية ، أم بلغت من الحضارة شأواً بعيداً ، إذ لا تخلو تلك الحياة من وجود قدرات متفاوتة بين أفراد المجتمع ، وإمكانات لبعض الأشخاص دون بعض ، الأمر الذى يحتم ظهور تفاوت فى إمكانية الحصول على معطيات الحياة : من مال وجاه ، وعلم ومعرفة .. وغير ذلك مما يرفع شأن الفرد بين بنى جنسه ، ويضفى عليه هالة من الجاه والسلطان ، وبالتالى يحس بالحسرة والألم مَنْ لم تهبه الحياة هذه القدرة ، فكان نصيبه منها شذرات قليلة ، تمسك عليه حياته ، أو مكنته قدرته المحدودة من الوصول إلى درجة أعلى من ذلك ، ولكنها لم تساعده على الوصول إلى ما يراه عند الآخرين من مظاهر ، يرى أنه محروم منها ، فيعتصر الحزن قلبه ، ويكسر الألم نفسه ، فيتمنى زوال تلك النعمة بقلبه ، لأن وجودها لدى الآخرين مصدر ألمه ، وسبب بلائه وشقائه ، **وذلك هو الحسد** .

ومن هنا كان وجود الحسد ظاهرة حتمية لحياة المجتمعات البشرية ، وضرورة لازمة لطبيعة الإنسان المفطور على حب التفوق على الأقران والنظراء ، فطبيعته تدفعه إلى الحسد ، وظروفه الاجتماعية تساعده على ذلك ، والمناخ العام للحياة الإنسانية تربة خصبة لنمائه ، تمده بما يحتاج إليه للتمكن من نفوس الناس ، وتغذيه ليصبح ظاهرة عامة ، منتشرة بين أفراد المجتمعات الإنسانية ، لا فرق فى ذلك بين بدائيها ومتحضرها .... ولهذا لا ينكر أحد وجوده إلا إذا تجاهل طبيعة النفس الإنسانية ، وتجاهل معطيات الحياة الاجتماعية ، وغفل عن المردود المادى ، والمعنوى ، للتفوق ، والتميز على الإنسان فى أنظمة الحياة كلها ، سواء كانت سياسية ، أو اقتصادية . دينية ، أو اجتماعية . ثقافية ، أو علمية .

فإذا تصفحنا الأحاديث النبوية بحثاً عن هذا الجانب من الحسد ـــ وهو وجوده بين البشر ـــ لوجدنا العديد منها يخبر بوجوده بين الناس ، أو يحذر منه بطريق مباشر ، أو يبين أنه يأكل الحسنات ، فمما يخبر بوجوده قول رسول الله ـــ ﷺ ـــ « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله عز وجل مالا ، فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله عز وجل علماً ، فهو يعمل به ويعلمه للناس »[1] .

وقوله ﷺ :

« دب إليكم داء الأمم : الحسد والبغضاء »[2] .

وقوله ﷺ :

« ثلاثة لا ينجو منهن أحد : الظن ، والطيرة ، والحسد »[3] .

فهذه الأحاديث ـــ وأمثالها ـــ تثبت وجود الحسد بين الناس ، وهو

---

(١) صحيح البخارى ـــ كتاب العلم .

(٢) سنن الترمذى .

(٣) أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب ذم الحسد من حديث أبى هريرة ، وفيه يعقوب بن محمد الزمرى ، وموسى بن يعقوب الزمعى ، ضعفهما الجمهور ، والرواية الثانية رواها ابن أبى الدنيا أيضاً ، من رواية عبد الرحمن بن معاوية ، وهو مرسل ضعيف . وللطبرانى من حديث حارثة بن النعمان نحوه (انظر : الغزالى : إحياء علوم الدين جـ٣ هامش ص ١٨٧ .

ما بيّناه : من أنه ظاهرة لازمة لطبيعة الإنسان ، أو حتمية فى المجتمعات البشرية .

أما التحذير منه ، فقد جاء فى قوله ــ ﷺ ــ :

« ستة يدخلون النار قبل الحساب بسنة » ...

قيل : يارسول الله ! من هم ؟

قال :

« ــ الأمراء بالجور ،

ــ والعرب بالعصبية ،

ــ والدهاقين بالتكبر ،

ــ والتجار بالخيانة ،

ــ وأهل الرستاق بالخيانة ،

ــ والعلماء بالحسد »[1] ...

وقوله : ﷺ :

« أخوف ما أخاف على أمتى : أن يكثر فيهم المال فيتحاسدون ويقتتلون »[2] .

وقوله ﷺ :

« لا تحاسدوا ، ولا تقاطعوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا »[3] .

وجاء الإخبار بأنه يأكل حسنات الحاسد ، ويرزؤه فى دينه ونفسه فى قوله ــ ﷺ ــ : « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب »[4] ..

---

(١) أخرجه أبو منور والديلمى من حديث ابن عمر وأنس بسندين ضعيفين (المصدر السابق جـ ٣ ص ١٨٨) .

(٢) رواه البخارى ومسلم والطبرانى .

(٣) رواه مسلم ، والترمذى ، وأبو داوود .

(٤) رواه الترمذى وأحمد .

وقوله ﷺ :

« دب إليكم داء الأمم : الحسد والبغضاء » والبغضاء هى : الحالقة لا أقول : حالقة الشعر ، ولكن حالقة الدين »[1] .

لم نُخَرِّج هذه الأحاديث لنبين درجتها : من حيث ضعف الرواية وصحتها ، لأنها ـــ حتى وإنْ كانت ضعيفة ـــ تخبر عن ظاهرة بشرية ، لا ينكرها أحد ، ولذا فلسنا بحاجة إلى بيان ضعفها وقوتها ، لأن ضعفها لا تأثير له على حقيقة وجودها كظاهرة إنسانية ، فهو لا يضعف أدلة وجودها ، حيث إنها واضحة لكل ذى عقل وبصيرة .

* * * *

٢ ـــ ضرر عين العائن للمعيون :

انتشرت ظاهرة الاعتقاد فى تأثير عين العائن على المعيون تأثيراً مباشراً فى جميع المجتمعات الإنسانية ، ومما ساعد على انتشارها وتمكنها من نفسية الإنسان البدائى : اعتقاده بأن هناك قوى غيبية ، لها اتصال بأصحاب العين الشريرة ، تمده بالقوة التى تؤثر فى المعيون عن طريق النظر إليه ، بل أحياناً يصل الضرر إلى المحسود ـــ حسب اعتقاده ـــ عن طريق مدحه ، وأحيانا بمجرد الحديث عنه ، دون أن يراه الحاسد .

استولى هذا الاعتقاد على مشاعر الناس ، وتغلغل فى وجدانهم ، فنسبوا إلي الحسد كل مايرونه من آثار ضارة ، دون أن يكون لديهم مبررات عقلية ، أو تفسير منطقى ، يوضح العلاقة بين الأثر والمؤثر ، بل كان مرد هذا إلى أساطير وخرافات غامضة ، تناقلتها الأجيال ، دون أن يفكر أحد منهم فى البحث عن كيفية وصول الضرر من عين الرائى إلى المرئى ، الذى أصيب ـــ حسب ما يعتقدون ـــ بمجرد نظر صاحب العين الشريرة إليه ، أو الحديث عنه ، سواء كان مدحاً أو إعجاباً ، أو كان مجرد وصف ، أو تقريراً لهيئته

---

(١) رواه ابن ماجه .

وشكله . ومما يصور مدى تصورهم لتأثير العين الشريرة : أنهم كانوا يعتقدون أن ٩٩ ٪ ممن يرقدون فى القبور ما توا بسبب الحسد .

وعلى الرغم من أن تجارب الشعوب ، وأبحاث العلماء كشفت كثيراً مما كان غامضاً من الأسباب والعلل ، فظهر للناس أسباب ما كانوا ينسبونه إلى الحسد ، إلا أن هذه الظاهرة لم تختف كلية من المجتمعات الإنسانية ، لأن بعض المرويات الدينية ساعدت على بقائها فى المجتمع ، ليس فقط فى مرحلة تخلفه وجموده ، بل صحبته أيضاً فى فترات تقدمه وازدهاره الفكرى والثقافى ، إذ نرى فى كثير من الأحيان مفكراً يدافع عن المنهج العقلى ، ويستخدم المنطق فى إنتاجه الفكرى ، وينقب عن الأسباب والعلل لما يصادفه فى تخصصه ، لكنه فى سلوكه الاجتماعى يرتد إلى الأفكار التى انحدرت إليه من آلاف السنين ، فتراه أسير هذه المعتقدات ، خاضعاً لها كما يخضع أخوه الأمى . وماذاك إلا بسبب تلك المرويات التى تُثبِّت هذا الاعتقاد فى وجدانه ، وتُمكِّنه من أحاسيسه ، فيظن أنه لو رفضه ، فإنما يرفض مسلمات دينية ، الأمر الذى يوحى إليه بأن من تمام دينه : الاعتقاد فى تأثير عين العائن فى المعيون .

ولو علم أن هذه المرويات ليست صحيحة لاختلف الوضع ، ولهذا سوف نبين عدم صحة ما جاء من أحاديث نبوية حول الضرر الذى يقع على المحسود مما تملكه عين الحاسد من قوة وتأثير .

فمن أشهر ما روى فى هذا الصدد :

ـ ما نسب إلى الرسول ـ ﷺ ـ من أنه قال : « إن العين لتدخل الرجل القبر والجمل القِدر » ...

هذا حديث ضعيف ، ولهذا لم يذكر فى أى من كتب الحديث التسعة التى فهرسها« ونسك »[1] وإنما أخرجه الأصفهانى فى الحلية[2] ، وابن عدى والخطيب فى تاريخه[3] من حديث جابر بن عبد الله بلفظ : « العين تدخل الرجل القبر ،

---

(١) وهى : صحيح البخارى وصحيح مسلم ، وسنن أبى داود ، وسنن الترمذى ، وسنن ابن ماجه وسنن الدارمى ، والجامع الصحيح للنسائى ، ومسند أحمد بن حنبل ، والموطأ للإمام مالك .

(٢) الأصفهانى : حلية الأولياء .. جـ ٧ ص ٩٠ .

(٣) الخطيب جـ ٩ ص ٢٤٤ .

وتدخل الجمل القِدر » ..

وقد تفرد به شعيب بن أبى أيوب الأنصارى ، عن معاوية[١] عن هشام .. قال الصابونى[٢] : « وبلغنى أنه قيل له : ينبغى أن تمسك عن هذه الرواية ، ففعل » ...

وقال الذهبى فى ترجمة شعيب بن أبى أيوب :

« .. وله حديث منكر ، ذكره الخطيب فى تاريخه »[٣] .

ــ ونسب أيضاً إلى رسول الله ــ ﷺ ــ أنه قال :

« كاد الفقر أن يكون كفراً ، وكاد الحسد أن يغلب القدر » ..

لم أعثر على هذا الحديث فى الكتب التسعة السالفة الذكر ، ولكن أخرجه البيهقى فى الشعب من رواية يزيد الرقاشى . ويزيد ضعيف .

ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط من وجه آخر ، بلفظ :

« كادت الحاجة أن تكون كفراً ، وكاد الحسد أن يغلب القدر » .. وفيه ضعف أيضاً ..

ــ كما ذكر عبد الرزاق فى (المصنف) ، عن معمر ، عن ابن طاوس ، عن أبيه مرفوعاً : « العين حق ، ولو كان شىء سابق القدر لسبقته العين ، وإذا استغسل أحدكم فليغتسل » وعقب عليه بأن : إسناده صحيح ، لكنه مرسل[٤] .

---

(١) ولفظ الأصفهانى : غريب من حديث الثور ، تفرد به معاوية .

(٢) الصابونى (٣٧٣ ــ ٤٤٩ هـ = ٩٨٤ ــ ١٠٥٧ م) هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن أحمد ابن إسماعيل ، أبو عثمان الصابوني ، مقدم أهل الحديث فى بلاد خراسان ، لقبه أهل السنة فيها : شيخ الإسلام .. ولد ومات فى نيسابور ، وكان فصيح اللهجة ، واسع العلم ، عارفاً بالحديث والتفسير (انظر : الأعلام للزركلى) .

(٣) ذكر الذهبى : « .. وقال أبو داود : إنى أخاف الله تعالى فى الرواية عنه ، قلت : ما أخرج عنه فى سننه غير حديث ، وله حديث منكر ، ذكره الخطيب فى تاريخه ، علقته عندى . مات سنة إحدى وستين ومائة » . (ميزان الاعتدال جـ ٢ ص ٢٧٥) .

(٤) وصله مسلم فى « صحيحه » ونص روايته : حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى ، وحجاج ابن الشاعر ، وأحمد بن خِرَاش (قال عبد الله : أخبرنا ، وقال الآخران : حدثنا) مسلم بن إبراهيم ، قال حدثنا وُهَيْب عن طاوس ، عن أبيه ، عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « العين حق ، ولو كان شىء سابق القدر ...إلخ » .

وهذا يجعلنا نرفض الاحتجاج به ، اعتماداً على ما يحكى عن بعض المحدثين : أنهم لا يقبلون المرسل ، ويعدونه من قبيل الضعيف الذى لا يحتج به ، لجواز أن يروى الصحابى عن تابعى ، فيكون المحذوف هو التابعى ، وسقوط التابعى قادح ، وسبب من أسباب رد الحديث[1] .

فإذا أضفنا إلى ذلك : أن من علماء الحديث من يُعرِّف المنقطع بأنه « ما سقط منه راو واحد من أول السند ، أو من وسطه ، أو من آخره »[2] ، فيكون هذا الحديث منقطعاً أيضاً ، لأنه سقط منه راو من أول السند . ولما كان الحديث المنقطع من قبيل الضعيف الذى لا يحتج به ، فلا يجوز الاحتجاج بهذا الحديث .

ومن هذا يتبين أن الأحاديث التى جاء فيها ذكر إمكانية إلحاق الضرر بالمحسود بمجرد رؤية العائن ضعيفة ، لا يحتج بها ، فضلا عن أن هذا الاعتقاد ينافى العقل والمنطق ، ويصطدم مع الواقع الذى أثبتته العلوم التجريبية على اختلاف فروعها ، وتنوع طرق إثباتها .

وهو فوق هذا كله مخالف لمفهوم كثير من مبادىء الإسلام وتعاليمه ، بل يهدم الأساس الذى يقوم عليه الحوار مع المنكرين لوجود الله ، ألا وهو أنهم لا يملكون الدليل الواضح الذى يؤيد ما ذهبوا إليه من إنكار وجود الله ، بل يتبعون الظن وما تهوى الأنفس ، إذ ليس عند من يعتقد فى ضرر العائن للمعيون بمجرد النظر إليه دليل واضح على ذلك ، بل هى معتقدات بدائية ، ترسبت فى نفوس المجتمعات الإنسانية ، وتمكنت من عواطف الأفراد ، فوجهت سلوكهم تحت ضغط الخوف من المجهول ، فركنوا إليها ، واطمأنت نفوسهم بهذا التفسير الهلامى ، لما يرونه من أحداث لا يدركون أسبابها .

* * * *

---

(١) لاشين جـ١ ص ٤٩ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٩ .

٣ ـ التمائـــم :

استخدم الإنسان أنواعاً مختلفة من الطقوس والتعاويذ ، لدفع الأضرار التى لا يعرف لها سبباً مادياً عن نفسه ، ولحماية ممتلكاته مما قد يصيبها من الآفات والكوارث التى تجتاحها ، ولا يعرف لها سبباً مرئياً ، ولا مصدراً يشاهده بعينه ، أو يستدل عليه بمظاهر ملموسة . فإذا غرست معتقدات آبائه وأجداده فى نفسه تصوراً معيناً لمصدر ما يصيبه من آلام ، وما يحل به وبممتلكاته من كوارث ، فإنه يمارس طقوساً معينة لدفع هذا الضرر بعيداً عنه . وتختلف تلك الطقوس من مجتمع لآخر ، وتتفاوت فى المجتمعات الإنسانية بتفاوت عقائدها ، وتقاليدها ، وعاداتها ، غير أن الطقوس التى مارسها الإنسان للحماية من أثر العين الشريرة ظهرت فى مختلف المجتمعات البشرية متشابهةً تقريباً ، على الرغم من تعدد صور المعتقدات الدينية ، وتباين أشكال نظم الحياة الإنسانية ، بما فيها من عادات وتقاليد ، سواء كان لهذه العادات والتقاليد ، صلة مباشرة بمبادىء وأحكام تلك المعتقدات ، أو كانت دخيلة على ما تعارف عليه المجتمع ، وتمسك به كدين له ، وعقيدة يتخذها أساساً لحياته ، ونبراساً لرؤيته لهذه الحياة ، ومصدراً لتوجيه سلوكه وتعامله مع مَنْ يعيشون معه ، أو يتصلون به .

ومن الأشياء التى استخدمها الإنسان ــ منذ العصور الأولى حتى وقتنا الحاضر ــ لدفع العين الشريرة ــ أى الحسد على اختلاف أنواعه وأشكاله ــ ما يعرف باسم :

(**التميمة**) : « وهى شيء يُلبس ــ أو يُعلق ــ على أنه تعويذة سحرية ، تطرد الشر . فقد استعمل الإنسان تمائم متعددة » ، وكانت أكثر شيوعاً بين الناس من حبوب الدواء لعلاج الأمراض ، أو الوقاية منها . وكان المرض فى اعتقادهم هو تقمص الشياطين الجسم ، وعلاجه هو تلاوة العزائم ، فقد كان الزكام مثلًا يعالج بمثل هذه العبارات السحرية : (اخرج أيها البرد ، يا ابن البرد ، يا من تهشم العظم ، وتتلف الجمجمة ، وتمرض مخارج الرأس السبعة

اخرج على الأرض .. دفر.. دفر .. دفر)[1] .

كذلك استخدمها أتباع الأديان السماوية ، إذ كان عند العبرانيين أحجبة ، فيها نصوص من التوراة ، كما علق المسيحيون صلباناً وتمائم ، احتوت على أشياء مقدسة ، ونصوص دينية .

أما نوعية المواد التى تحتوى عليها التمائم فكانت متعددة ، مثل :

أسنان الحيوان ، والأحجار الكريمة ، والمعادن ، وأجزاء من نباتات مختلفة ، وكذلك نقوش لها صلة بالمقدسات ، كالصليب ، وعجلات (إلٰه الشمس) ، وصور الكتاب المقدس .

واحتوت أيضاً على أشكال مختلفة من الطواطم ، أو رسوم لما يعتقد أنه يملك القوة على دفع العين الشريرة ، بعيدة عمن يحمل التميمة ، مثل :

صورة الأسد ، أو الحية ، وغير ذلك مما يتوفر فيه ــ حسب الاعتقاد السائد فى المجتمع ــ خصائص طرد كل ما من شأنه أن يضر الإنسان أو الحيوان ، وكل ما يملك المرء من متاع ومال .

ومن عادة من يستخدم التميمة أن يعلقها فى عنقه ، أو يثبتها فى أى مكان من ثوبه ، كما تعلق أيضا على الحوائط ، والأبواب ، والنوافذ ، وفى فروع الأشجار ، سواء كانت فى الحقول ، أو فى الحدائق ، وتدفن أحياناً فى أساسات المنزل ، وتحت عتبة أبواب المنازل ، وحظائر المواشى ... إلخ .

يذهب بعض الباحثين إلى أن كلمة : (تميمة) التى يستخدمها العرب والإيرانيون مأخوذة من الكلمة اليونانية « توتيليسما » (totelesma) التى كانت تدل فى اللغة اليونانية على : « الكمال » ، أو « الشىء الفاخر » . ثم استخدمت بعد ذلك للدلالة على الوسيلة السحرية التى يباشرها المرء للحماية مما قد يصيبه من ضرر ، وانتقلت بهذا المفهوم إلى اللغة العربية ، وإلى اللغات الشرقية كلها ، كما دخلت بنفس المعنى أيضاً إلى اللغات الأوربية .

ويرى آخرون أن أصلها يرجع إلى الكلمة الهندية : « تاليسمانا »

(١) ول ديورانت جـ٢ ص ١٢٣ .

(talismana) معللا ذلك بأن من عادة الهند أن يعلق العريس قلادة فى رقبة عروسه ليلة الزفاف ، ويطلق على هذه القلادة بالذات كلمة : « تالى » (tali)[1] .

وربما يذكرنا هذا بما ورد فى التوراة عن الأهداب ، التى فُرِض على بنى إسرائيل أن يعلقوها فى أذيال ثيابهم ، فقد جاء فى سفر العدد مايلى :ــ

« وكلم الرب موسى قائلًا : كلم بنى إسرائيل ، وقل لهم أن يصنعوا لهم أهداباً فى أذيال ثيابهم فى أجيالهم ويجعلونها على هدب الذيل عصابة من أَسْمَانْجُونِيٍّ[2] فتكون لهم هدباً فترونها ، وتذكرون كل وصايا الرب ، وتعلمونها ولا تطوفون وراء قلوبكم وأعينكم التى أنتم فاسقون وراءها »[3] ..

إذ من المحتمل أن يكون لهذه الأهداب صلة بالتميمة[4] ..

فاستخدام التميمة شائع بين الشعوب كلها ؛ فاعتقد البابليون أن من المستطاع اتقاء شر « العين الحاسدة » باستعمال التمائم والطلاسم ، وما إليها من الرقى والأحاجى . وكانت صورة الآلهة إذا حملها الشخص معه تكفى فى الغالب لإخافة الشيطان (الذى أدخلته العين الحاسدة فى جسد المحسود) وإبعاده .

وكانت من أقوى التمائم أثراً قلادة من حجارة صغيرة تسلك فى خيط أو سلك ، وتعلق فى العنق ، على أن يراعى فى الحجارة أن تكون من النوع الذى تربط الأقوال المأثورة بينه وبين الحظ الحسن ، وفى الخيط أن يكون أسود ، أو

(١) Seligmamm : Bd I, S . 3 ff .

(٢) أسمانجونى = أرجوانى .

(٣) ١٥ : ٣٧ ــ ٣٩ .

(٤) كانت الصلاة عند اليهود المتمسكين بالدين عملًا شديد التعقيد ، لا تؤدى على الوجه الصحيح ، إلا إذا غطى المصلى رأسه دليلا على الخشوع ، وربط على ذراعيه وجبهته علباً صغيرة ، تحتوى فقرات من سفر الخروج (الآيات : ١ ــ ١٦ من الإصحاح الثالث عشر ، تثنية الاشتراع ، والآيات : ٤ ــ ٩ من الإصحاح السادس ، و ١٣ ــ ٢١ من الإصحاح الثالث عشر) وثبت فى أطراف ثيابه أهداباً نقشت عليها أهم وصايا الرب . وكان رجال الدين يفسرون هذه الإجراءات الشكلية ، على أنها أمور لا بد منها لتذكير اليهود بوحدانية الله ، ووجوده ، وشرائعه . أما السذج من اليهود فقد أصبحوا يحسبونها تمائم سحرية ذات قوى معجزة خارقة للطبيعة .

أبيض ، أو أحمر ، حسب الغرض الذى يريد منه صاحبه . وكان من أشد الخيوط أثراً : الخيط الذى يغزل من عنزة لم يقربها تيس . وكان من الحكمة أن يستعان ـــ فضلًا عن هذه الوسائل ـــ بالرقى الحارة ، والطقوس السحرية ، لإخراج الشيطان من الجسم ، كرشه بالماء المحمول من أحد المجارى المقدسة ، كدجلة والفرات[1] ..

وتضمنت معانى الكلمات التى تدل عليها (أى التميمة) فى جميع لغات الشعوب : معنى الحماية من العين الشريرة[2] ، فاللاتينيون أطلقوا عليها كلمة : « فاسينوس » (fascinus) أو « فاسينوم » (fascinum) التى كانت تطلق فى بادىء الأمر على السحر ، أو الشعوذة ، ثم أطلقت على ما يستعمل للحماية من السحر والشعوذة ، ... وأخيراً أصبحت علماً على التميمة ، التى تحمى حاملها من العين الشريرة .

كما وردت فى الأدب الشعبى اليهودى كلمة : (kenea) علماً للتميمة ، إذ كان المقصود بها : كل ما يربط ، أو يعلق حول العنق ، أى الأحجبة ، التى تعلق حول الرقبة ، فقد جاء فى التلمود : أن أحد الملوك أعطى ابنته ليلة زفافها ما يعرف عندهم بـ : (kenea) وقال لها : البسى هذا الحجاب ، ولا تنزعيه من عنقك أبداً ، وإلا أصابتك العين الشريرة .

ويحرص حاملو التميمة على عدم إخفائها تحت الملابس ،أو فى مكان

---

(١) (ول يورانت جـ ١٤ ـــ ٢٢٧) .

(٢) تكاد الشعوب البدائية كلها تجمع على الاعتقاد فى قوة الكلمات ، وشر « العين الحاسدة » ، فلم يشك الاستراليون الأصليون فى أن الكلمات التى ينطق بها الساحر لها من القوة ما يجعلها قادرة على إصابة الشخص المعنى بها ، حتى ولو كان على بعد مائة ميل . وبدأت العقيدة فى السحر فى أوائل مراحل التاريخ الإنسانى ، ولم يَزُل عن الإنسان قط زوالًا تاماً . وعبادة الأصنام وغيرها مما يكون له قوة سحرية ، كالتمائم ، أرسخ فى القِدَم من السحر نفسه ، وأثبت منه جذوراً فى النفس . ولما كانت التمائم تُحَدَّد لها مناطق القوة ، بمعنى أن يكون لكل تميمة أثر فى ناحية معينة دون غيرها ، فإنك ترى بعض الشعوب تثقل أنفسها بأحمال منها ، لكى يكونوا على أهبة الاستعداد لكل ما عسى أن تفاجئهم به الأيام . والأحجبة إنْ هى إلا صورة متأخرة فى الظهور ، ومثل من الأمثلة التى تعاصرنا من الأصنام ، أو ما إليها من ذوات القوة السحرية ، فنصف سكان أوربا يلبسون المُدَلَّيات والتمائم ، ليستمدوا بواسطتها الوقاية والمعونة من وراء الطبيعة (ول ديورانت جـ ١ ص ١١٥) .

خفى ، فهم يتعمدون إظهارها بقدر الإمكان ، لأن حمايتها لا تتحقق إلا إذا رآها الحسود ، إذ عندما تقع عينه عليها ، يرتد بصره إلى نفسه ، فينجو حاملها من آثار عينه الشريرة ، ولذلك سماها بعض الناس : أداة تحويل النظر ، ولذا كان من صور حملها أن توضع فى علبة صغيرة ، وتعلق فى سلسلة حول العنق ، أو يخاط عليها قطعة من القماش ، وتعلق على الجسم فى مكان ظاهر ، أو توضع فى فص خاتم ، ويلبسه من يطلب حمايتها فى أصبعه .

تعددت أشكال وهيئات التمائم ، بدرجة لا يستطيع باحث حصرها على المستوى العالمى ، فقد حصر « يوسف بيلوسشى » (Joseph Belucci) فى إيطاليا وحدها أربعة آلاف نوع من التمائم ، وعرضها فى المعرض العالمى الذى أقيم فى باريس عام ١٨٨٩ م[1] .

وكذلك تنوعت المواد التى توضع فى التميمة ، فمن الأشياء التى تؤخذ من الأرض لاستخدامها تميمة :

أ) **المعادن ، وخاصة** : الذهب والفضة ، إذ انتشر تعليق التمائم الذهبية والفضية حول الرقبة عند جميع الشعوب ، للحفظ والوقاية من الحسد ، وخاصة فى رقبة الوليد ، والعروس ، وكل من يتمتع بنوع من نضارة المنظر ، وحسن الهيئة ، وغير ذلك من الأمور التى يظن أنها تثير انتباه الحساد .

ومن المعادن التى تستخدم أيضاً : الحديد ، والصلب ، فكثيراً ما نرى حوافر الحصان المصنوعة من أحد هذين المعدنين معلقة على الأبواب ، وفى مخادع الأطفال ، لتقوم بعملية طرد العين الشريرة .

ب) **النباتات** : فقد شاع الاعتقاد فى المجتمعات البشرية أن أنواعاً معينة من الأشجار قادرة على الحماية من عين العائن ، فالرومان اعتقدوا : أن الأشجار التى ليس فى ثمارها بذور أو نوى ، هى التى تحمى من العين الشريرة ، كما اعتقد سكان بورما : أن قدر الإنسان مرتبط بالخشب الذى يستخدمه فى بناء بيته ، ويحرص النساء فى مدغشقر على حمل قطعة خشب من أشجار معينة ، يثبتنها فى السلاسل التى يعلقنها فى رقابهن ، أو يلبسنها على هيئة

(١) Seligmamm : Bd.II S . 6 .

إسورة حول معاصمهن ، فتحفظهن من أعين الحساد .

وقد انتشر استخدام الشعوب للخشب بأشكال وصور متعددة لهذا الغرض ، وهو يفسر التعبير الشائع بين كل الشعوب — حتى التى قطعت شوطاً كبيراً فى مجال الرقى والتقدم : « امسك الخشب » ، حيث يصيح المرء بهذه الجملة ، عندما يسمع كلمة مدح ، أو إعجاب ، لحماية الممدوح مما قد يصيبه من جراء ذلك المديح .

وفى بعض البلاد يعلق فى رقبة الطفل تميمة ، تحتوى على قطعة من نبات الثوم ، أو اليانسون ، أو الكراوية أو الشبة ، أو القرنفل ، أو بعض حبات من البقول ، أو قطعة خشب ، أو مجموعة من سيقان الأعشاب . وبعضهم يضع التميمة تحت الوسادة ، أو يعلق خرزة فى منديل الرأس .

وكل نوع من النبات يستخدم فى مناسبة خاصة ، كذلك يختلف أيضاً باختلاف من يستخدمها ، فالطفل غير البالغ ، والبنت غير المتزوجة ، حيث تعلق أشياء لا تعلقها المتزوجة ، وكذلك الزوج ، له نباتات خاصة ، كما أن عدد حبات البقول التى توضع فى التميمة تختلف حسب اختلاف الأحوال والأشخاص .

جـ) ويعتبر **الحيوان** كله ، أو أجزاء منه من الأشياء التى تستخدم للحماية من العين الشريرة ، وكذلك صورته ، فمثلاً :

استخدم قدماء المصريين صورة جناح النسر محفورة على صفحة رقيقة من الذهب كـ « تميمة » ، يلبسها المرء للوقاية من الحسد ، ولنفس الغرض يثبت الفنلنديون صورة النسر على أبواب حظائر الماشية ، كما يعلق البناءون فى آسيا الصغرى جمجمة قرد على كل بيت يبنونه ، فتحميه وأصحابه من الحسد ..

ولم يقتصر استخدام الشعوب للحيوان وأجزائه — وكذلك صورته — على نوع واحد ، أو على عدد معين منه ، بل شمل كل أنواع الحيوان تقريباً ، وكذلك الطيور ، نذكر منها على سبيل المثال :

الجاموس ، والبرص ، والذئب ، والحمار ، والضفدع ، والثعلب ، والكلب ، والتمساح ، والصدف ، والسلحفاة ، والنمر ، والكبش ، والتيس ،

والطاووس ، والقنفد ، والعنكبوت ، والباز (الصقر) ، ونقار الخشب ، وفرس النهر ، وكلب البحر ، والجعران ، والأوز العراقى ، والحلزون ، والأفعى ، والغراب ، والحصان ، وعصفور الجنة ، والثور ، والبقرة ، والفأر ، والبغل ، وضفدع البر ، وسمك الكابوريا ، والأرنب ، والديك ، والفرخة والذباب .. وغير ذلك مما لا يستطيع المرء حصره ، ويستخدم الإنسان هذه الحيوانات ، أو أجزاء منها ، كما يستخدم صورها مرسومة ، أو منحوتة على أشكال وهيئات متعددة ، كما يلبسها بطرق مختلفة : كسلاسل ، وخواتم ، ومعاصم ... إلخ ، ويضعها فى الحقول ، والبساتين ، والبيوت ، وحظائر الماشية .. وغير ذلك من الأماكن التى يريد دفع العين الشريرة عنها ، أو عما بداخلها .

ومن هذا العرض الموجز ، يتبين لنا أن الاعتقاد فى أن التمية تحمى من يحملها من عين العائن قد تمكن من نفسية الإنسان ، سواء كان مثقفاً أم أمياً ، وسواء كان فى مجتمع بدائى ، أم يحيط به هذا الكم الهائل من نتائج الأبحاث التجريبية .. حتى ولو كان أحد الباحثين البارزين فى مجالاتها ، أو الفلاسفة المحللين لنتائجها ، للتوصل إلى الكليات والنظريات ، إذ تبين لنا مما سبق ذكره : أن هذا الاعتقاد قد سيطر على عقول الناس جميعاً ، على اختلاف مستوياتهم الثقافية والعلمية ، فليس من النادر أن ترى مفكراً يدافع عن المنهج العقلى ، ويستخدم المنطق فى إنتاجه الفكرى ، وينقب عن الأسباب والعلل فى تخصصه ، ولكنه فى سلوكه الاجتماعى يرتد إلى الأفكار التى انحدرت إليه من آلاف السنين ، فتراه أسير هذه المعتقدات ، خاضعاً لها ، كما يخضع لها أخوه الأمى . إنه يلغى عقله ، فيندفع وراء معتقدات لا يقرها منطق ، ولا يستسيغها فكر ، ولا تنسجم مع مركزه الثقافى والعلمى بل إن الإنسان يغفل وسط هذا التيار الجارف ، المنحدر من عقائد البدائيين عن كثير من النصوص الدينية التى توضح له سخف هذه المعتقدات ، وتحذره من الخضوع لها ، وتنذره بالعقاب الأليم ، لو مارس ما توحى به هذه العقائد الباطلة ، فقد ورد فى حديث رسول الله ـــ ﷺ ـــ ما يبين بطلان الاعتقاد فى تأثير التميمة ، ويتوعد من يصدق هذه الخرافات ، فيعلق تميمة للحماية من عين العائن

بالعقاب الأليم ، ألا وهو عقاب المشرك ؛ فعن زينب ؛ امرأة عبد الله بن مسعود ، قالت : كان عبد الله إذا جاء من حاجة ، فانتهى إلى الباب ، تنحنح ، وبزق[١] كراهية أن يهجم منا على شيء يكرهه . قالت : وإنه جاء ذات يوم فتنحنح ، قالت : وعندى عجوز ترقينى من الحُمَّرة[٢] ، فأدخلتها تحت السرير ، فدخل ، فجلس إلى جانبى ، فرأى فى عنقى خيطاً قال : ما هذا الخيط ؟ قالت : قلت : خيط أرقى لى فيه ، قالت : فأخذه ، فقطعه ثم قال : إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك ، سمعت رسول الله — ﷺ — يقول : « إن الرقى ، والتمائم ، والتِّوَلة[٣] شرك ، قالت : فقلت له : لم تقول هذا ، وقد كانت عينى تقذف ، فكنت أختلف إلى فلان اليهودى يرقيها ، وكان إذا رقاها سكنت قال : إنما ذلك من عمل الشيطان ، كان ينخسها بيده ، فإذا رقيتها كف عنها ، إنما كان يكفيك أن تقولى كما قال رسول الله ﷺ : «أذهب الباس رب الناس ، اشف أنت الشافى ، لا شافى إلا شفاؤك ، شفاء لا يغادر سقماً »[٤] .

وعن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من علق تميمة فلا أتم الله له ومن تعلق وَدَعة[٥] فلا ودع الله له »[٦] .

وعنه أيضاً : أن رسول الله — ﷺ — أقبل عليه رهط ، فبايع تسعة ، وأمسك عن واحد ، فقالوا : يارسول الله .. بايعت تسعة ، وتركت هذا ؟ قال : « إن عليه تميمة » ، فأدخل يده ، فقطعها ، فبايعه ، وقال : « من علق تميمة فقد أشرك »[٧] .. قال أبو السعادات : إنما جعلها شركاً ، لأنهم أرادوا

(١) بزق : بصق .

(٢) الحُمَّرة : مرض وبائى يسبب حمى وبقعاً حمراء فى الجلد ، ولا تدخل جراثيمه الجسم إلا من خدش أو جرح .

(٣) التِّوَلة : ما يحبب المرأة إلى الرجل من السحر .

(٤) البنَّا : جـ ١٧ ص ١٨٦ — ١٨٧ .

(٥) الوَدْع : بالفتح والسكون جمع ودعة : هو شيء أبيض يجلب من البحر ، ويعلق فى حلوق الصبيان (أى أعناقهم) وغيرهم ، وإنما نهى عنها ، لأنهم كانوا يعلوقنها مخافة العين .

(٦) أى لا جعله فى دعة وسكون ، وقيل : هو لفظ مبنى من الودعة ، أى لا خفف الله عنه ما يخافه .

(٧) وليس هذا قاصراً على تعليق تميمة فى رقبة إنسان فقط ، بل لا يجوز أيضاً تعليق تميمة فى رقبة حيوان ، ففى الصحيح عن أبى بشر الأنصارى : أنه كان مع رسول الله ﷺ فى بعض أسفاره فأرسل رسولاً =

دفع المقادير ، وطلبوا دفع الأذى من غير الله الذى هو دافعه[1] .

ولهذا منع فريق من العلماء تعليق التميمة ، حتى ولو كانت من القرآن الكريم[2] .

وعلى الرغم من هذا نجد كثيراً من المسلمين لا زالوا يعتقدون فى حماية التمائم من العين الشريرة ، كما كان يعتقد فيها أجدادهم الأوائل ، ويعلقونها بمختلف الأشكال والألوان ، كما كان يفعل البدائيون من قبلهم . ولم يقتصر هذا العمل على الأميين منهم ، بل يمارسه المثقفون أيضاً ، ولا أكون مغالياً إذا قلت : إن عدداً كبيراً من علماء الدين لم يستطيعوا تحرير أنفسهم من أسر هذه المعتقدات ، فهم إنْ لم يمارسوا هذه الطقوس مع الأميين سكتوا عن معارضتها :

— خوفاً على مراكزهم الأدبية ، ومكاسبهم المادية .
— أو عجزاً عن التخلص من سيطرة الخرافات على عقولهم وأفئدتهم .
— أو ركوناً إلى الدعة والراحة ؛ لأن التصدى لتغيير المعتقدات البالية يحتاج إلى جهد ومثابرة ، لايستطيعون تحملها .
— أو ليس عندهم من الإيمان ما يحملهم على اختيار العمل الشاق ، مع قلة المال ، وانصراف الدهماء والجهال عن التصفيق لهم ، والتمسح بأذيال ثيابهم .

إذ من المعروف أن طريق المصلحين وعر وطويل ، ومحفوف بالمكاره من جميع الأنواع ، ولذلك لا يسلكه إلا من أدرك أسباب التخلف فى أمته ، وأصر على الإسهام فى عمل جاد ، لتخليصها منه ، وتوجيهها إلى ما يصلح عقيدتها ، ويُقوِّم سلوكها ، ويدفعها إلى التقدم والرقى ، مهما كانت العقبات التى تعترض طريقه ، ومهما كانت النتائج التى تعكر عليه صفو حياته ، بحرمانه من حقوقه الأدبية والمادية ، تأديباً له على رفع صوته ضد عقائد يتمسك بها

= «أن لا يبقين فى رقبة بعير قلادة من وَتَر ، أو قلادة إلا قطعت » ، إذا كان أهل الجاهلية يعلقون أوتاراً على الدواب ، اعتقاداً منهم أنها تدفع العين عن الدابة (فتح المجيد — شرح كتاب التوحيد ص ١٣٣) .

(١) فتح المجيد ص ١٢٩ .

(٢) المصدر السابق ص ١٤٣ .

العامة ، ويدافع عنها أنصاف العلماء ومن يجرى فى ركابهم .

* * * *

٤ ــ التعاويذ والرقى :

تحدثنا فى الفقرة السابقة عن التميمة التى تأخذ أشكالًا معينة ، أو تحتوى على مادة من المواد التى اعتقد الإنسان فى قدرتها على درء الحسد ، سواء كانت هذه المادة من : جماد ، أو نبات ، أو حيوان ، غير أن هناك نوعاً آخر من التمائم ، لا يضم مواد سحرية ، بل كلمات ، اعتقد الإنسان فى تأثيرها فى مجال حمايته من عين العائن ، ... فاستخدمها فى صورتين :

الأولى : ترديد كلمات معينة ، لطرد الشياطين ، ودفع أثر العين الشريرة ، وهو ما يعرف : (بالرُّقْيَة)[1] .

الثانية : كتابة صيغ معينة على أوراق ، أو ما يشبهها ، ثم تغلف ، وتعلق فى رقبة من ــ وما ــ يعتقد أنه هدف للحساد ، ويعرف هذا النوع : (بالتعويذة) .

ويرجع استخدام الشعوب لهاتين الصورتين إلى العصور القديمة ، فقد ذكرنا سابقاً : أن أقدم تعويذة وصلت إلينا هى تعويذة كلدانية ، وصيغتها :

أعيذك من :

ــ ذلك الذى يسحر الصورة الكاملة ..

ــ الوجه الشرير ..

ــ النظرة الشريرة ..

ــ الفم الشرير ..

ــ اللسان الشرير ..

---

(١) كان الفرس « يعتمدون فى علاج المرضى على الرقى أكثر من اعتمادهم على العقاقير ، وحجتهم فى هذا أن الرقى ، إن لم تشف من المرض ، لا تقتل المريض ، وهو مالا يستطاع قوله عن العقاقير » (ول ديورانت جـ ٢ ص ٤٤٥) .

ـــ السم المميت ..
ـــ روح السماء ..
أعيذك من :
ـــ روح الأرض ..
أعيذك ..

كما يوجد فى قسم « الميداليات » بالمكتبة الوطنية الفرنسية تعاويذ مكتوبة على ميداليات بصيغ مختلفة منها :

ـــ« أنا لا أحبك ، ولا أشك فى هذا ، فكلما نظرت إليك ضحكت » ..

ـــ « أنا لا أحبك ، ولا أشك فى هذا ، كلما نظرت إليك ، أضحك ، عش سعيداً أيها الحامل (يعنى حامل التعويذة) سنوات عديدة » ..

ـــ « أنا لا أبالى بما يراد أو يقال » .

ـــ « ينبغى أن تحبنى ، فذلك فى صالحك » ..

ومن العادات المنتشرة عند الشعوب : وضع صورة لما يعتقد أنه قادر على الحماية ـــ سواء كان حيواناً أو نباتاً ، أو جماداً ـــ فى مدخل المسكن ، مكتوب تحتها :

« ممنوع دخول الأشرار » ..

ولم يقتصر الاعتقاد فى تأثير هذه الكلمات على العصور القديمة ، بل لازال منتشراً حتى الآن ، فكثيراً ما نرى حوائط المحلات أو المنازل ـــ وكذلك المركبات ـــ مزدانة بلوحات مكتوب عليها كلمات من هذا القبيل ، مثل :

ـــ « فليهلك الحقد ، ومعه العين الشريرة » ..
ـــ « مهما حاولتم ، أيها الحساد ، فلن تستطيعوا غزو الحصن » ..
ـــ « هذا مدخل ، ولكن ليس لأعدائنا الحساد » ..
ـــ « الحسود لا يسود » ..
ـــ « ياناس ياشر كفاية أرّ » ..

ومن أوضح الأدلة على اعتقاد الناس فى تأثير بعض الكلمات ضد الحسد ، ما نراه منتشراً فى المجتمعات المعاصرة ، حيث تعلق السلاسل فى الرقاب ، وبها أشكال وأحجام مختلفة ، مكتوباً عليها عبارات شتى ، بعضها مما توارثوه من العصور القديمة ، والبعض الآخر من نصوص الكتب المقدسة .

فالاعتقاد السائد فى قوة الكلمة فى مجال الحسد ظاهرة اجتماعية قديمة ، وهى من الظواهر التى لم تختفِ من المجتمعات الإنسانية فى أى عصر من العصور . قد تضعف أمام تعاليم الأديان ، أو تخضع للتعاليم الدينية ، فتغلف بطابع دينى ، وقد تنحسر أمام النقد العلمى والوعى الثقافى ، ولكنها لا تغيب كلية عن السلوك الاجتماعى . فكثير من المسلمين ــ على الرغم من تأكيد التعاليم الإسلامية الواضح فى رد كل ما يحدث فى الكون إلى إرادة الله ومشيئته ــ يتوجهون إلى مَنْ يكتب لهم مثل هذه الكلمات ، لتحميهم من العين ، أو تقيهم من الشرور ، وغالباً ما تكون هذه الصيغ غير مفهومة ؛ فهى عبارة عن طلاسم لا يستطيع أحد أن يفهم منها شيئاً ، حتى الذين يكتبونها . وقد أحاط كاتبو هذه التعاويذ أنفسهم بجو من الغموض ، للتأثير النفسى على من يتوجهون إليهم ، كما تفننوا فى اختيار المادة التى يكتبون عليها تعاويذهم ، إذ ليس بلازم أن يكتبوها دائماً على ورق ، بل يحفرونها أحياناً على معادن نفيسة ، أو يستخدمون الجلود الرقيقة ، أو الصلصال ، أو أوراق الأشجار ... أو ... أو ... غير ذلك مما يصلح للكتابة . كذلك لا يستخدمون الأحبار العادية دائماً ، فأحياناً يكتبون تعاويذهم بالزعفران ، أو ماء الورد ، أو المسك ، أو دم الضحية التى يطلبون ممن يريد التعويذة تقديمها لهم .. و ... و ... إلخ . وتختلف أيضاً نوعية القلم الذى يكتبون به ، كما تختلف طريقة لبس التعويذة ، تبعاً لاختلاف الأهداف والعلل ، وإن كان الغالب الأعم تثبيتها فى سلسلة تعلق فى الرقبة .

- ما رأى الإسلام فى التعويذة والرقية ؟
- وهل يجوز إسلامياً تعليق التعويذة والرقية ؟
- وهل ورد فى الحديث ما يفيد جواز ذلك إسلامياً ؟

لا يجوز تعليق الرقى ، لما ورد فى حديث زينب ، امرأة عبد الله ابن مسعود ، ولما رواه عقبة عن عامر مِنْ أنَّ مَنْ عَلَّقَ تميمة فقد أشرك ، سواء كانت هذه التميمة عبارة عن شكل ، أو كانت ورقة ، كتبت فيها بعض الكلمات والصيغ التى يعتقد الناس أنها تحميهم من العين ، **حتى ولو كان المكتوب فيها آيات من القرآن الكريم على رأى بعض العلماء** ، كما بينَّا ذلك سابقاً ، وقد روى البخارى حديثاً ، يفيد أن رسول الله — ﷺ — وصف أناساً من أمته يدخلون الجنة بغير حساب : بأنهم كانوا لا يسترقون ، ونصه :

حدثنا عمران بن ميسرة ، حدثنا ابن فضيل ، حدثنا حصين بن عمران ابن حصين رضى الله عنهما قال : « لا رقية إلا من عين ، أو حُمَةٍ »[1] . فذكرته لسعيد بن جبير فقال : حدثنا ابن عباس قال : قال رسول الله — ﷺ — : « عُرِضت علىّ الأمم ، فجعل النبى ، والنبيان يمرون ، معهم الرهط ، والنبى ليس معه أحد ، حتى رفع لى سواد عظيم . قلت : ماهذا ؟ أمتى هذه ؟ قيل : هذا موسى وقومه ، قيل : انظر إلى الأفق ، فإذا سواد يملأ الأفق ، ثم قيل لى : انظر هٰهنا ، وهٰهنا فى آفاق السماء ، فإذا سواد ، وقد ملأ الأفق ، قيل : هذه أمتك ، ويدخل الجنة من هؤلاء سبعون ألفاً بغير حساب » .. ثم دخل ، ولم يبين لهم ، فأفاض القوم ، وقالوا : نحن الذين آمنا بالله ، واتبعنا رسوله ، فنحن هم ، أو أولادنا الذين ولدوا فى الإسلام ، فإنَّا ولدنا فى الجاهلية ، فبلغ النبى — ﷺ — ، فخرج فقال : « هم الذين لا يسترقون ، ولا يتطيرون ، ولا يكتوون ، وعلى ربهم يتوكلون » فقال عكاشة بن مِحْصَن : أمنهم أنا يارسول الله ؟ قال : « نعم » فقام آخر ، فقال : أمنهم أنا ؟ فقال : « سبقك عكاشة »[2] .

٥ — علاج أضرار الحسد :

تقتضى طبيعة الأشياء التناسق بين المتجاورات أو المتداخلات ، فلا يمكن عقلًا ، ولا واقعاً أن يتجاوز متناقضان ، فضلًا عن تداخلهما ، ولا يقتصر هذا

---

(١) الحُمَة : السم ، والمراد بها ذوات السموم ، وقيل : حمة العقرب : سمها وضرها .
(٢) صحيح البخارى جـ ٢٠ ص ٢١٧ — ٢٢٠ .

على الماديات ، بل هو من لوازم المعنويات أيضاً ، فوحدة النسق الفكرى ضرورة لازمة فى بناء الشخصية المستوية ، وإلا ظهر الانفصام الذى يترتب عليه اضطراب فى السلوك ، وتضارب فى الأهداف ، وتنافر فى نغم الحياة واتساقها ، ولذا نلاحظ أن الطابع العام فى المجتمعات التى سيطرت عليها الأساطير والخرافات ، هو تعليل الأحداث بأسلوب بعيد عن العقل ، أسلوب يعكس غموض الخرافات وأساطيرها ، ويرتكز على مسلمات نبتت فى إطارها ، وترعرعت فى محيطها ، فإذا ما أراد المرء التخلص مما أصابه ، فإن أسلوبه فى هذا المجال لا يخرج عن إطار تصوره لسبب حدوث ما يريد الخلاص منه ، أى إنه إذا اعتقد أن ما أصابه مادى ، يخضع للعقل والمنطق ، وقابل للرؤية البصرية ، أو البحثية ، سلك فى علاج ما أصابه سلوكاً عقلياً ، فاستخدم ما توصى به نتائج التجارب العلمية ، وإن طغى الجانب اللاعقلى على ثقافته وسلوكه ، فإنه ينفذ فى التخلص من علته ، ما توصى به الأساطير والخرافات .

ومن هذا المنطلق نرى أن من يعتقد فى تأثير عين العائن على المعين ، يلجأ إلى أساليب تتنافى مع العقل والمنطق فى علاج أثر عين الحسود ، فقد كان الإنسان البدائى يذهب إلى الساحر ليخرج المرضى من جسمه ، ولم يفكر فى أن فى هذا العمل انتقاصاً من إيمانه ، بمعبوده ، بل ربط فى كثير من الأحوال بين عمل الساحر وبين الكاهن ، فغالباً ما كان يقوم بهما واحد ، حتى الأطباء الذين كانوا يعالجون بالأعشاب ، خلطوا عملهم هذا بطقوس ، توحى للمريض بأن سبب هذا المرض يرجع إلى مصدر غير مرئى ، — أو روحى — ، وما الأعشاب التى يتناولها إلا وسيلة لإخراج هذه الروح الخبيثة منه . وفى العصور التالية اكتسبت الأعشاب هذه الخاصية من الطقوس التى يجريها الكاهن عليها ، سواء كانت تلاوة نصوص مقدسة عليها ، أو مسها — وأحياناً خلطها — بمادة من المواد المقدسة فى المعابد ، كالماء وما أشبهه .

كاد الاعتقاد فى قدرة الساحر والعَرَّاف على شفاء المريض أن يختفى فى العصر الحديث ، فقد زاد الوعى الصحى فى معظم المجتمعات الإنسانية ،

وعرف الناس طريق الذين يعالجون المرضى بأساليب علمية ، تَوصَّل إليها الفكر الإنسانى بواسطة التجارب العلمية ، لكن لازال الكثير يعتقد فى إصابة العين ، غير أنهم لا يذهبون إلى العَرَّاف ، أو الساحر لعلاج أثر هذه الإصابة ، وإنما يتوجهون إلى القسس والرهبان ، ظناً منهم أنهم بقربهم من الله ، ومعرفتهم للنصوص المقدسة ، قادرون على معالجتهم من أثر عين الحسود ، وتأثر المسلمون بهذه الظاهرة أيضاً ، فنراهم يسألون الدراويش ومعلمى الصبية فى مكاتب تحفيظ القرآن أن يكتبوا لهم تمائم تزيل عنهم ما أصابهم من عين الحسود ، وخاصة صداع الرأس . ونلاحظ أن الأمر لم يقتصر على وضع حجاب على الرأس ، بل يشتمل فى بعض الأحيان على طقوس أخرى يجريها الدرويش ، كوضع يده على الرأس مع التمتمة بكلمات غير مفهومة ، أو نقش بعض الكلمات التى لا تقرأ بحبر معين على ورقة ، ثم توضع هذه الورقة فى قليل من الماء ، يشربه المصاب بعد أن يذوب الحبر ، أو يضعه فى ماء استحمامه .

ولا شك أن مايقوم به هؤلاء الناس من الشعوذة ـــ أو ما يطلقون عليه : جلا جلا ـــ يؤثر تأثيراً كبيراً على البسطاء ، نظراً لما يتمتع به الدراويش ، ومعلمو الصبيان من مكانة دينية عند العامة من المسلمين ، الذين ليس لديهم من القدرة الفكرية ما يمكنهم من التمييز بين هذه الخرافات وبين التعاليم الدينية ، وخاصة أن الدرويش ومعلم الصبيان يوهمان الناس أن ما يقومان به فى هذا المجال لا يخرج عن الدين ، فهم يتبعون فى ذلك ما ورد فى الأحاديث الصحيحة .

- فما مدى صحة هذا الادعاء ؟
- وهل ورد فى الحديث ما يفيد جواز علاج المحسود بمثل هذه الأساليب ؟

قبل البحث فى الأحاديث عن إجابة لهذه الأسئلة ، نحب أن نوضح أن المسألة ذات شعبتين منفصلتين :

الأولى : التعوّذ ..

الثانية : العلاج بما استعمله الحاسد ، كما يمارسه بعض المدعين ..

أما التعوّذ : فقد ورد فى أحاديث كثيرة ، منها ما رواه ابن ماجه ، قال : حدثنا محمد بن بشار ، وجعفر بن عمر ، قالا : حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان ، عن عاصم بن عبيد الله عن زياد بن ثويب ، عن أبى هريرة ، قال : جاء النبى — ﷺ — يعودنى ، فقال لى : « ألا أُرقيكَ برقية جاءنى بها جبريل ؟ » قلت : بأبى وأمى . بلى يارسول الله . قال : « بسم الله أرقِيك والله يَشْفِيك من كل داء فيك ، من شر النفاثات فى العقد ، ومن شر حاسد إذا حسد » .. ثلاث مرات[1] .

وعلى الرغم من ضعف هذا الحديث ، لأن فى إسناده : عاصم بن عبيد الله بن عاصم العمرى ، وهو ضعيف ، كما ذكر ذلك الهيثمى فى « مجمع الزوائد » إلا أننا لن نركز على هذا الجانب ، لأن التعوذ من الحسد — وليس العلاج من « آثاره » — مذكور فى القرآن الكريم ، حيث أمرنا الله أن نتعوذ من شر حاسد إذا حسد . فيجب علينا أن نؤمن به — كتعوذ فقط — وإلا أنكرنا نصاً من نصوص القرآن الكريم ، ومن ينكر حرفاً واحداً منه فقد كفر ، إلا أن هذا لا يمنع أن يكون لنا رأى فى مفهوم هذا النص ، وبيان الغرض منه ، بما لا يوقعنا فى إشكالات الاستسلام للخرافات والأساطير التى انحدرت إلينا من ثقافات المجتمعات البدائية ، وسوف يحين بيان ذلك عند الحديث عن الحسد فى القرآن الكريم .

ومن أشهر الأحاديث التى وردت فى مجال الشعبة الثانية — وهى العلاج عن طريق الغسل بما استعمله الحاسد — ما رواه ابن ماجه ، قال :

حدثنا هشام بن عمّار، حدثنا سفيانُ ، عن الزهرى ، عن أبى أمامة ابن سهل بن حُنَيْف قال : مر عامرُ بن ربيعة بسهل بن حنيف وهو يغتسل ، فقال : لَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ ، ولا جِلْدَ مُخَبَّأةٍ ، فما لبث أن لُبِط به[2] . فأُتِى به النبى ﷺ ، فقيل له : أدْرِك سهلا صريعاً . قال : « من تتهمون به ؟ » قالوا : عامرَ بن ربيعة . قال : « علام يقتل أحدكم أخاه ؟ إذا رأى أحدكم من أخيه

---

(١) سنن ابن ماجه .

(٢) لُبِط به : صُرِع وسقط على الأرض .

ما يعجبه ، فليدع له بالبركة » ، ثم دعا بماء ، فأمر عامراً أن يتوضأ[1] ، فغسل وجهه ويديه إلى المرفقين ، وركبتيه وداخلة إزاره[2] ، وأمر أن يُصب عليه . قال سفيان ، قال مَعْمَرٌ عن الزهرى : « وأمره أن يَكْفَأ الإناء من خلفه » ..

وفى رواية مالك : « فغسل عامر وجهه ، ويديه ، ومرفقيه ، وركبتيه ، وأطراف رجليه ، وداخلة إزاره ، فى قدح ، ثم صب عليه ، فراح مع الناس » ..

وذكر البيهقى فى السنن عقب هذا الحديث : أن الزهرى قال : يؤمر الرجل العائن بقدح ، فيدخل كفه فيه ، فيتمضمض ، ثم يمجه فى القدح ، ويغسل وجهه فى القدح ، ثم يدخل يده اليسرى فيصب على ركبته اليمنى فى القدح ، ثم يدخل يده اليمنى فيصب على ركبته اليسرى ، ثم يغسل داخلة إزاره ، ولا يوضع القدح فى الأرض ، ثم يصب على رأس الرجل الذى تصيبه العين من خلفه صبة واحدة .

وتعليقنا على هذا الحديث من جانبين :

الأول : إسناده ضعيف من عدة وجوه :

١) لم يرد هذا الحديث فى الصحيحين : صحيح البخارى ، وصحيح مسلم ، بل رواه مالك وأحمد وابن ماجه والطبرانى . كما نص الهيثمى : أن هذا الحديث رواه أحمد والطبرانى ، وفى أسانيد الطبرانى ضعف[3] .

---

(١) قال النووى : وَصْف وضوء العين عند العلماء : أن يؤتى بقدح ماء ولا يوضع القدح على الأرض ، فيأخذ العائن غرفته فيتمضمض ، ثم يمجها فى القدح ، ثم يأخذ منه ماء يغسل به وجهه ، ثم يأخذ بشماله ماء يغسل به كفه اليمنى ، ثم بيمينه ماء يغسل به مرفقه الأيسر ، ولا يغسل ما بين المرفقين والكعبين ، ثم يغسل قدمه اليمنى ، ثم اليسرى على الصفة المتقدمة ، وكل ذلك فى القدح ثم داخلة إزاره ، وهو الطرف المتدلى الذى يلى حقوه الأرض ، فإذا استكمل هذا صبه من خلفه على رأسه (شرح صحيح مسلم جـ ٥ ص ٣٣) .

(٢) داخلة الإزار هنا : المئزر ، والمراد بداخلة : مايلى الجسد منه ، وقيل : المراد موضعه من الجسد ، وقيل : مذاكيره ، كما يقال : عفيف الإزار ، أى الفرج ، وقيل : المراد وركه ، إذ هو معقد الإزار (المصدر السابق جـ ٥ ص ٣٣) .

(٣) الهيثمى : مجمع الزوائد جـ ٥ ص ١٠٧ .

٢) سلسلة رواته عن ابن ماجه هم :

أ ــ هشام بن عمار السلمى (١٥٣ ــ ٢٤٥ هـ) ، وقد ذكر الذهبى ، أن له ما ينكر[١] ، وقال ابن حجر حديثه القديم أصح[٢] .

وهذه عبارة عامة لا تحدد زمنا يفصل بين القديم والحديث ، إذ من المحتمل أن يكون الحد الفاصل عندما بلغ السبعين ، أو أكثر ، أو أقل مما يجعل الأخذ بروايته التى لا يعرف تاريخها ضعيفاً ، لا يمكن أن تكون دليلًا يعتمد عليه .

ب ــ سفيان بن عيينة (١٠٧ ــ ١٩٨ هـ) ذكر الذهبى عنه ما يلى :

قال يحيى بن سعيد القطان : أشهد أن سفيان بن عيينة اختلط سنة سبع وتسعين ومائة فمن سمع منه شيئاً فسماعه لا شىء[٣] .

ولما كان تحديد زمن سماع هشام بن عمار منه هذا الحديث غير معروف ، فاحتمال أن يكون سماع هشام بن عمار منه هذا الحديث فى هذه السنة وارد ، خاصة وأن هشام كان عمره آنذاك ثلاثاً وأربعين سنة .

وقيل : إنه ــ أى سفيان ــ كان يُدَلِّس[٤] ، وقيل : إنه كان يخطىء عن الزهرى ، وَعَدُّوا له فى ذلك عشرين حديثاً عن الزهرى[٥] .

جـ ــ الزهرى (٥٨ ــ ١٢٤ هـ) ..
ذكر الذهبى عنه : أنه كان يُدَلِّس فى النادر[٦] .

---

(١) الذهبى : ميزان الاعتدال جـ ٤ ص ٣٠٢ .

(٢) ابن حجر العسقلانى : تقريب التهذيب جـ ٢ ص ٣٢٠ .

(٣) الذهبى : ميزان الاعتدال جـ ٢ ص ١٧١ .

(٤) التدليس : أن يروى عمن لقيه مالم يسمعه منه ، أو عمن عاصره ، ولم يلقه ، موهما أنه سمعه منه ، وهو أنواع كثيرة ، وحكمه : أنه مذموم كله على الإطلاق ، وقد كره التدليس جماعةٌ من العلماء ، وكان شعبة من أشد الناس إنكاراً لذلك ، حتى قال : لأن أزنى أحب إلى مِنْ أنْ أدلس .. وقال أيضاً : التدليس أخُ الكَذِب . ومن الحُفَّاظ من جَرَّحَ من عُرِفَ بهذا التدليس من الرواة ، فرد روايته مطلقاً ، وإنْ أتى بلفظ الاتصال ، ولو لم يعرف أنه دَلَّسَ إلا مرةً واحدة ، كما نص على ذلك الشافعى .

(٥) الذهبى : المصدر السابق : جـ ٢ ص ١٧١ .

(٦) المصدر السابق : جـ ٤ ص ١٧٢ .

د ــ أبو أمامة ، أسعد بن سهل بن حنيف (٨ ــ ١٠٠ هـ) ..
لم يسمع من النبى ــ ﷺ ــ هذا الحديث لأنه ولد فى السنة الثامنة من الهجرة ، ولم يرفعه إلى صحابى ، فيكون الحديث مُرْسلًا مقطوعاً .

حتى لو فرضنا جدلًا أن هذا الحديث صحيح الرواية ، فإننا نرى أن به عللًا قادحة ، تكفى علة واحدة منها فى سلب وصف الصحة عنه[١] . إذ يكفى أن يعرف المسلم أنه مخالف لما ورد فى القرآن الكريم من أمر المسلمين بأن يتطهروا ، فقد قال تعالى عقب بيان ما يجب غسله كشرط لصحة الوضوء :

﴿ **ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم** ﴾[٢] .

ومعلوم أن الماء المستعمل لايصح به الوضوء ، لأنه غير مطهر ، فكيف يستخدم المرء ماء ، اختلطت به أوساخ من استعمله قبله ؟

وقوله تعالى :

﴿ **وثيابك فطهر** ﴾[٣] .

ولا يمكن أن تطهر ثيابك بماء فيه قاذورات ، فإن من يستخدم الماء المستعمل فى غسل ثيابه ، فإنه يضيف إليها قذارة فوق قذارتها ، بل إن من الواضح لأبسط الناس فكراً وثقافة : أن مَنْ يستخدم فى الغُسل ماء ، به عوالق وشوائب ، تسربت هذه العوالق والشوائب إلى المغسول ، فكدرت نضارته ونقاءه ، فكيف يضاف إلى بدن المحسود ما علق بالماء من بدن الحاسد ؟

وقوله تعالى :

﴿ **فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المُطَّهِرِينَ** ﴾[٤] .

قال ابن كثير فى شرحه لهذه الآية :

---

(١) قال البيهقى : لا يلزم من صحة الإسناد صحة المتن ، لاحتمال صحة الإسناد مع أن فى المتن شذوذاً ، أو علة تمنع صحته .

(٢) سورة المائدة الآية : ٦ .

(٣) سورة المدثر الآية : ٤ .

(٤) سورة التوبة الآية : ١٠٨ .

« .... دليل على استحباب الصلاة ، مع العباد العاملين المحافظين على إسباغ الوضوء والتنزه عن مُلابسة القاذورات » ..

وقوله تعالى :

﴿ **وإن كنتم جُنُباً فاطَّهروا ...** ﴾[1] .

وغير ذلك من الآيات التى تدل على أن الإسلام دين يدعو إلى النظافة والطهارة من الدَّنَس ، والبعد عن القاذورات ، وعدم ملامسة ما يمكن أن يدنس البدن والثوب ، بل إن الله يحب مَنْ يحافظ على نظافة البدن ، والثوب ، والمكان :

﴿ **... فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين** ﴾[2] .

﴿ **إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين** ﴾[3] .

فكيف تقبل رواية راوٍ تتنافى مع منطوق القرآن الكريم ، ومفهوم التعاليم الإسلامية ، وتصطدم مع روح الوحى ، الذى جاء موافقاً للطبيعة الإنسانية ، ومنسجماً مع ما تقبله النفوس ، وتُقِرُّه الأفهام ، وتحث على الالتزام به مبادىء الحضارة ، وقوانين التقدم والرقى ؟

الثانى : هذا من الجانب النظرى ، أما الجانب العملى ، فعلل القدح كثيرة لا تحصى ، منها :

● هل يقبل أحد أن يصب على جسده ماء ، غسل به آخر أعضاء من جسمه ، تتراكم عليها القاذورات : من إفرازات العرق ، مختلط بها مافى الجو من غبار وبكتريا ، ومافى أثوابه من هوام ، لا يعرف عددها ولا جنسها ، إلا الله سبحانه وتعالى ؟

● وكيف ينسجم هذا مع ما أمره به رسول الله ﷺ : من عدم وضع يده هو فى الماء عقب قيامه من النوم ، خشية أن تكون يده حاملة لجراثيمه هو ، أى أنها ليست جراثيم غيره ؟

---

(١) سورة المائدة الآية : ٦ .

(٢) سورة التوبة الآية : ١٠٨ .

(٣) سورة البقرة الآية : ٢٢٢ .

وذلك فيما روى : أن رسول الله ــ ﷺ ــ قال : « إذا استيقظ أحدكم فلا يغمس يده فى الإناء ، فإنه لا يدرى أين باتت يده » .

● فإذا منع من نقل الجراثيم العالقة فى يده عن طريق الماء على عضو آخر من جسمه ، ألا يكون من الأولى ، ألا يقدم على الاستحمام بماء استعمله آخر ، خوفاً من نقل جراثيم غيره إليه ؟

إن التجارب العلمية أثبت أنَّ كثيراً من الجراثيم والبكتريا تنقل العدوى من مريض إلى آخر ، بطرق عدة ، من أشهرها :

ــ الملامسة : ولذلك جاء فى الإرشادات الصحية :

ــ عدم استخدام الأكواب المستعملة قبل غسلها ..

ــ وعدم استخدام مناشف الآخرين ..

ــ وتجنب ملامسة مناطق من البدن ، تتجمع فيها العوالق الناقلة للعدوى . وغير ذلك من الأمور المسلم بها اجتماعياً وحضارياً فى المجتمع المعاصر ..

● فهل يجوز لنا ممارسة ما جاء فى هذا الحديث فى عصر تطلب فيه من إنسان ذى فكر واع بالأمور الصحية ، أن يقتنع بتعاليم الإسلام ، فيؤمن به ديناً ، ويترك مالديه من عقائد وفلسفات ؟

إنه لن يفهم ما نقوله ، لأنه متعارض مع نمط تفكيره ، فلن يقبل فكراً يرتد به إلى الماضى ، حيث يتنكر للعلم ، ويرفض نتائجه .

وهذاالرفض فى حقيقته ليس موجهاً للإسلام ، بل لفكر ارتكز على مرويات غير صحيحة ، فلو قام الفكر الإسلامى على أساس القرآن الكريم ، والأحاديث الصحيحة التى لا تصطدم مع نص من نصوص الكتاب الكريم ، ولا تخرج عن تعاليمه ، لآمن بالإسلام كثير من المعاصرين الذين يبحثون عن الدين الحق ، حيث يجدون منهجاً للحياة ، يلبى مطالبهم من غير عنت ولا شطط ، وتنسجم تعاليمه مع ما تتطلبه الطبيعة الإنسانية ، وتتناغم أحكامه مع العقل ، وما يتوصل إليه ، فى مجالات المعرفة المختلفة . إذ من المسلم به أنه

عندما يعرض الإسلام من هذا الجانب ــ بعيداً عما لحق بالفكر الإسلامى من خرافات وأساطير ــ فإنه يجد قبولًا لدى الناس ، وخاصة عند المفكرين منهم ، فلا يملكون إزاء الحجج العقلية الواضحة إلا الاقتناع ، فيؤمنون به ، ولذا ينبغى على الدعاة أن يلتزموا بهذا المنهج ، إن أرادوا خدمة الإسلام ، لأنه المنهج المؤثر فى مجتمعات سيطر العقل فيها على جميع مجالات الأنشطة الإنسانية .

* * * *

الفصـل الرابـع

الحسد فى القرآن الكريم

الحسد فى القرآن الكريم

الحسـد والبغـى

تختلف المصادر التى يعتمد عليها الباحث باختلاف أهميتها ، وموقعها بالنسبة لموضوع البحث ، فقد يحتل مصدرا ما ، المركز الأول فى مجال ، بينما تتلاشى أهميته فى مجالات أخرى ، فيضطر الباحث ــ طبقا للقواعد المنهجية ــ إلى اعتباره مصدرا ثانويا ، أو أقل من ذلك . وأحيانا يهمله كلية[1] إذا ما لحقه ضعف لعدم الثقة فى روايته ، أو لتناقضه مع سنة

---

(١) ذكر المحققون أمورا كلية ، يعرف بها أن الحديث موضوع ، منها :

ــ مخالفته لظاهر القرآن ..

ــ أو السنة المتواترة ..

ــ أو الإجماع القطعى ..

ــ أو القواعد المقررة فى الشريعة ..

ــ أو للبرهان العقلى ..

ــ أو الحس والعيان ، وسائر اليقينيات ..

ــ أو اشتمال الحديث على مجازفات فى الوعد والوعيد ..

ــ والثواب والعقاب ..

ــ أو كان مناقضا لما جاءت به السنة الصريحة ..

ــ أو كان باطلا فى نفسه ..

ــ أو ما تقوم الشواهد الصحيحة على بطلانه ..

ــ أو لا يشبه كلام الأنبياء ..

ــ أو كان بكلام الأطباء أشبه ..

ــ أو يشتمل على تواريخ الأيام المستقبلة ..

الكون وطبيعة الحياة ، أو لتعارضه مع العقل السليم ، والمنطق المقبول ، وغير ذلك مما يجعل الاعتماد عليه فى الاستدلال واهيا ، لا يدعم رأيا ولا يقنع معارضا . وقد يكون المصدر مقبولا فى جملته ، فلا يمكن لباحث أن يهمله ، وإلا أهدر جانبا كبيرا من أساسيات البناء العلمى والثقافى ، وقوَّض كثيرا من الفروض والواجبات ، التى يقوم عليها بناء الفرد دينيا واجتماعيا . لكن تسرب الضعف فى رواية بعض أجزائه يحتم على الباحث الوقوف عندها لفحص طرق إثباتها ، رواية ونصا ، حتى لا يتسبب هذا الجزء فى هدم مبدإ عام أو التشكيك فى مصداقية البناء الكلى ، الذى اعتمده المجتمع أساسا لنظام حياته .

لم يخرج منهجنا فى البحث عن هذا الإطار حيث اتخذنا الحديث ، فى جملته ، كمصدر نعتمد عليه فى بيان مما يتعلق بالجسد ، لكن عندما وجدنا نصوصا تتنافى مع العقل والمنطق ، عالجناها بطريقة ترفع هذا التناقض ، كما وضع ذلك فى الفصل السابق .

ولم نخرج فى ذلك عما قاله بعض كبار السلف ممن يعتمد عليهم فى الاستدلال ، فقد ذهبوا إلى أن الكتاب مقطوع به ، والسنة مظنونة ، والقطع بها إنما يصح بالجملة ، لا فى التفصيل ، بخلاف الكتاب ، فإنه مقطوع به فى الجملة والتفصيل(١) .

وكان المقام يقتضى منا ـــ بناء على هذا ـــ أن نقدم الحديث عن الكتاب أولا ، ثم نُثَنِّى بالسنة ، لكننا رأينا أن المنهج يحتم أن يكون المقطوع به هو خاتمة البحث ، لأنه المُهيْمن على كل المصادر ، فهو المرجع الأول الذى نعتمد عليه فى تحرير القضايا الفكرية وتحديدها ، فلا مجال للعقل إزاء ما نص عليه إلا فى الفهم

ـــ أو يكون سمجا ..

ـــ أو يسخر منه ..

وغير ذلك ، ومنها :

ـــ أن تقوم الشواهد الصحيحة أو تجارب العلم الثابتة على بطلانه ..

ـــ أو يكون ركيكا فى معناه ..

(١) قارن : الشاطبى : مقدمة الموافقات

والتأويل ، إذ لا يعقب عليه بمقال ، مهما كان مصدره ، ولا مكان بعده لأى استدلال ، إلا إذا كان مفصلا لمجمل ، أو مبينا لغامض ، أو شارحا لما يحتاج فى فهمه إلى توضيح وتفسير .

فاذا تصفحنا القرآن الكريم ــ بعد هذا التجوال فى المصادر المتعددة ــ باحثين عن موقفه من الحسد ، لرأينا أن حديثه عنه جاء متعددا لفظا وموضوعا ، إذ انقسم من الناحية اللفظية إلى قسمين :

الأول : آيات ورد فيها الحسد نصّا ، بحروفه الثلاثة : الحاء والسين والدال ، وهى قوله تعالى :

١ ــ ﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردُّوَنكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ﴾(١) .

٢ ــ ﴿ أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما ﴾(٢) .

٣ ــ ﴿ سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانو لا يفقهون إلا قليلا ﴾(٣) .

٤ ــ ﴿ ومن شر حاسد إذا حسد ﴾(٤) .

الثانى : آيات ورد فيها ألفاظ تتضمن معنى الحسد ، وهى قوله تعالى :

١ ــ ﴿ بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن يُنزّل الله من فضله على من يشاء من عباده ﴾(٥) .

٢ ــ ﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا

---

(١) سورة البقرة الآية : ١٠٩

(٢) سورة النساء الآية : ٥٤

(٣) سورة الفتح الآية : ١٥

(٤) سورة الفلق الآية : ٥

(٥) سورة البقرة الآية : ٩٠

الذين أوتُوهُ من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم ﴾[1] .

٣ ــ ﴿ إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أُوتُوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ﴾[2] .

٤ ــ ﴿ وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ﴾[3] .

٥ ــ ﴿ وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ﴾[4] .

إذ فسر العلماء (**البغى**) فى هذه الآيات بالحسد ..

فما معنى الحسد فى هذه الآيات ؟

هل تدل هذه الآيات على ما يعتقده الناس : من قدرة عين الحاسد على إصابة المحسود ؟

أو :

هل تشير إلى ما للتمائم والتعاويذ من قوة سحرية فى مجال شفاء المصابين ، أو حمايتهم من إصابات عين العائن ، كما هو شائع بين الناس ؟

ليس فى هذه الآيات ما يدل على أن لعين العائن تأثيرا غير مرئى ، يصيب المعيون إصابة عضوية ، أو نفسية . كما أنه لم يرد فيها شىء عن التمائم ذى القوى السحرية التى تشفى المريض مما حل به من أمراض ، وما أشبهها من جراء وقوعه تحت تأثير عين الحاسد ، كما هو شائع فى المجتمعات الإنسانية . ولم تشتمل أيضا على تبريكات ، أو تعويذات ، يردِّدُها المرء لحمايته ــ وحماية ما يتعلق به ــ من عين العائن ، أو تحصينه ضد كل ما يمكن أن يصيبه من ضرر وإضرار ، اللهم إلا ما جاء من الأمر بالتعوذ من شر الحاسد فى سورة الفلق ، وسوف نرجىء بيان مفهوم هذا التعوذ وأغراضه إلى ما بعد توضيح وشرح الآيات التى تحدثت عن الحسد .

لو نظرنا إلى ما ذكره القرآن الكريم عن الحسد نصا ــ أى بلفظ الحسد ــ

---

(١) سورة البقرة الآية : ٢١٣

(٢) سورة آل عمران الآية : ١٩

(٣) سورة الشورى الآية : ١٤

(٤) سورةالجاثية الآية : ١٧

لوجدنا أنه ورد فى ثلاث آيات ــ باستثناء آية سورة الفلق ــ ، اثنان منهما توضحان الحالة النفسية عند اليهود ، عندما رأوا من الآيات ما يؤكد صدق النبى ﷺ فى دعوته ، وهما آية البقرة : ١٠٩ ، وآية النساء : ٥٤ ، إذ ذكر المفسرون أن المقصود من أهل الكتاب فى آية البقرة ، هم : اليهود ، فالقرآن الكريم لم يسند الحسد إلى غيرهم ، لأنهم ــ وقد سلب منهم الملك ــ يتمنون عودته إليهم ، وقد كَبُرَ عليهم أن تسبقهم العرب إلى ذلك ، ولم يكن النصارى يومئذ يحسدون المسلمين ، لأنهم متمتعون بملك واسع ، ولا مشركو العرب ، لأنهم ما كانوا يظنون أن النبوة التى قام بها واحد منهم حق ، ولا أنها تستتبع ملكا ، فان من ظهر له حقيقة الدعوة ، صار مسلما ، وأما اليهود ، فإنه لم يكن يؤمن ممن ظهرت لهم حقيقة دعوة الإسلام إلا نفر قليل ، ومنع الحسد باقى الرؤساء أن يؤمنوا ، وتبعهم العامة تقليدا لهم . وقلما يمنع الناس من اتباع الحق بعد ظهوره لهم مثل الحسد والكبر . فالحسود يؤثر هلاك نفسه على انقيادها لمن يحسده ، لأن الحسد يفسد الطباع .

فهو بيان لما يضمرونه ، وما تكنه صدورهم للمسلمين من الحسد على نعمة الإسلام ، التى عرفوا أنها الحق ، وأن وراءها السعادة فى الدارين ، ولكن شق عليهم أن يتبعوهم ، فتمنوا أن يحرموا هذه النعمة ويرجعوا كفارا كما كانوا ، وذلك شأن الحاسد يتمنى أن يسلب المحسود النعمة ، ولو لم تكن ضارة به .

فكيف إذا كان يعلم أن تلك النعمة ، إذا تمت وثبتت يكون من أثرها سيادة المحسود عليه ، وإدخاله تحت سلطانه ، كما كان يتوقع علماء اليهود فى عصر النبوة ؟

وقد جاء هذا التنبيه تتمة لقوله تعالى :

﴿ ما يَوَدُّ الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾[١] .

(١) سورة البقرة الآية : ١٠٥

وكذلك الحال فى آية سورة النساء ، فقد صورت ما اعترى اليهود من حالات نفسية تجاه الدعوة الإسلامية ، أخرج أحمد ، عن ابن عباس ، قال : لما قدم كعب بن الأشرف مكة قالت قريش : ألا ترى هذا الصنَيْبر ، المنبتر من قومه ، يزعم أنه خير منا ، ونحن أهل الحجيج وأهل السدنة ، وأهل السقاية . قال : أنتم خير منه ، فنزلت فيه :

﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالْجبْتِ والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا * أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا ﴾[1] .

وأخرج ابن اسحاق ، عن ابن عباس ، قال : كان الذين حزبوا الأحزاب من قريش ، وغطفان ، وبنى قريظة : حيجا بن أخطب ، وسلام بن أبى الحقيق ، وأبو عمارة ، وهودة بن قيس ، وكان سائرهم من بنى النضير ، فلما قدموا على قريش ، قالوا : هؤلاء أحبار اليهود ، وأهل العلم بالكتب الأولى — فاسألوهم ، أدينكم خير أم دين محمد ؟ فسألوهم ، فقالوا : دينكم خير من دينه ، وأنتم أهدى منه ، وممن اتبعه .. فأنزل الله تعالى :

﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجِبْتِ والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا *أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا *أم لهم نصيب من الملك فإذاً لا يُؤتون الناس نقيرا * أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما ﴾[2] .

وذهب الشيخ محمد عبده في تفسير هذه الآية إلى : أن الحسد والغرور دفع اليهود إلى أن يحكموا بأن المشركين أهدى سبيلا من المؤمنين ، مع أنهم — أى المشركين — يؤمنون بالجبت والطاغوت .. فالله يقول : إن هؤلاء يريدون أن يضيق فضل الله بعباده ، ولا يحبون أن يكون لأمة فضل أكثر مما لهم ، أو مثله ، أو قريبا منه ، لِما استحوذ عليهم من الغرور بنسبهم ، وتقاليدهم ، مع

---

(١) سورة النساء الآيتان : ٥١ — ٥٢

(٢) سورة النساء الآيتان : ٥١ — ٥٤

سوء حالهم ، فكأنه قال : هل غرّ هؤلاء بأنفسهم تغريرا ، أم لهم نصيب من الملك فى هذا الكون ، فهم يمنعون الناس ، فلا يؤتونهم منه نقيرا ، أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله (أى العرب) ، فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة ، وآتيناهم ملكا عظيما ..

فالحسد فى هذه الآية لا يخرج عن كونه : تمنى زوال النعمة عن صاحبها المستحق لها ، إذ تَمنَّى اليهود زوال نعمة الرسالة من العرب .

أما الآية الثالثة ، وهى قوله تعالى :

﴿ سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا ﴾[1] .

فقد نزلت فيمن تخلفوا عن الخروج مع النبى ﷺ فى الحديبية ، فلما أبرم الصلح مع قريش ، وعقد الرسول ــ ﷺ ــ العزم على التوجه إلى خيبر ، أراد المخلفون أن ينضموا إلى المسلمين ، فأمر الله رسوله ــ ﷺ ــ أن يخبرهم بعدم السماح لهم بالذهاب معه إلى خيبر ، فكان ردهم أن ذلك المنع بدافع الحسد ، أى فسيقول هؤلاء المخلفون لك (يا محمد) ، ولأصحابك ــ إذا قلت لهم : قال الله : لن تتبعونا إلى الجهاد وقتال العدو ــ : بل تحسدوننا ، أن نصيب معكم مغنما ، إن نحن شهدنا معكم ، فلذلك تمنعوننا من الخروج معكم .

فالحسد ــ فى هذه الآية ــ أريد به الحرص على الانفراد بالمغانم ، وكراهية المشاركة فيها ، لئلا ينقص سهام الكارهين ، فهم (أى المخلفون) ظنوا أن منع المؤمنين لهم ليس بدافع الحفاظ على تنفيذ أمر الله ، بل بدافع الخوف أن يقاسموهم فى المغانم ، حسدا للمخلفين على ما يمكن أن يأخذوا من المغانم ، لو شهدوا خيبر معهم [2] .

* * *

---

(١) سورة الفتح الآية : ١٥

(٢) انظر : ابن عاشور جـ ٢٦ صـ ١٦٩

فإذا انتقلنا إلى بيان مفهوم الآيات التى ورد فيها لفظ : (البغى) حيث فسره العلماء بالحسد ، لوجدنا أنها جاءت للذين اختلفوا بعد أن أنزل الله كتابه على محمد ـ ﷺ ـ : وهم اليهود .

إذ يسفه الله رأيهم ، إذ رضوا لأنفسهم الكفر بالقرآن ، وبمحمد ـ ﷺ ـ، وأعرضوا عن النظر فيما اشتملت عليه كتبهم : من الوعد بمجىء رسول بعد موسى ، إرضاءً لداعية الحسد ، وهم يحسبون أنهم مع ذلك قد استبْقوا أنفسهم على الحق ، إذ كفروا بالقرآن ، بل اختلفوا بعد نزول القرآن ، فذهب كل فريق منهم إلى تحريف نصوص الكتاب ، فصاروا أسوأ حالا من المختلفين فى الحق قبل مجىء الشرائع ، لأن أولئك لهم بعض العذر ، بخلاف الذين اختلفوا بعد ما آتاهم الله الكتاب ، وبين لهم أصول العقيدة ، فكان موقفهم هذا (بغيا) منهم ، أى حسدا لمن اصطفاه الله ، وأنزل عليه الكتاب بالحق ، وحسداً لمن اتبعه على توفيق الله لهم ، فآمنوا بالله وصدقوا رسوله .

والبغى هنا : مصدر بغى يبغى ، إذا ظلم . وأراد هذا ظلما خاصا وهو الحسد ، وإنما جعل الحسد ظلما ، لأن الظلم هو المعاملة بغير حق ، والحسد : تمنى زوال النعمة عن المحسود ، ولا حق للحاسد فى ذلك ، لأنه لا يناله من زوالها نفع ، ولا من بقائها ضر ، ولقد أجاد أبو الطيب ، إذ أخذ هذا المعنى فى قوله :

وأظلم خلق الله من مات حاسدا * لمن بات فى نعمائه يتقلب

فاليهود كفروا حسداً على خروج النبوة منهم إلى العرب ، وهو المشار إليه بقوله تعالى :

﴿ بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن يُنَزِّلَ الله من فضله على من يشاء من عباده ﴾[1] .

وعليه : فليس فى هذا الآيات أيضا ما يدل على أن الحاسد قادر على إصابة المحسود بالضرر بمجرد النظر إليه .

* * *

(١) سورة البقرة الآية : ٩٠

ورد فى القرآن الكريم آيات صوَّرت بعض سلوكيات الحاسد إزاء من أنعم الله عليهم :

ـــ إذ دفعه رفض استحقاق المُنعَم عليه بهذه النعمة إلى حسده ، وبالتالى : عدم الاعتراف بما تتطلبه هذه الظروف من مواقف والتزامات ، فقد بين القرآن الكريم أن بشرية الرسل كانت من أسباب رفض دعواتهم ، لأن أقوامهم حسدوهم على اصطفاء الله لهم ، فكانت مساواتهم لهم فى البشرية حاجزا نفسيا ، منع كثيرا منهم ـــ وخاصة رؤساءهم ومن يدور فى فلكهم ـــ من تصديقهم ، يقول تعالي :

﴿ قال الملأ من قومه إنا لنراك فى ضلال مبين * قال ياقوم ليس بى ضلالة ولكنى رسولٌ من رب العالمين * أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم وأعلم من الله مالا تعلمون * أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون ﴾(1) .

ويقول تعالى :

﴿ ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب * قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد أباؤنا فأتونا بسلطان مبين * قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا باذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾(2) .

ويقول تعالى :

﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذْ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا ﴾(3) .

---

(1) سورة الأعراف الآيات : ٦٠ ـــ ٦٣

(2) سورة إبراهيم الآيات : ٩ ـــ ١١

(3) سورة الإسراء الآية : ٩٤

ويقول تعالى :

﴿ **وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون * ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذاً لخاسرون** ﴾[1] .

ويقول تعالى :

﴿ **ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين * إلى فرعون وملئه فاستكبروا وكانوا قوما عالين * فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون** ﴾[2] .

ـــ كما حمله الحسد إلى أن يفرح عندما يصاب المحسود بأذى ، أو ضرر ، ويحزن إذا نال المحسود ما يبعث فى النفس سعادة ، وفى القلب طمأنينة ، يقول تعالى :

﴿ **إن تمسَسْكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعملون محيط** ﴾[3] .

ويقول تعالى :

﴿ **إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل وتولوا وهم فرحون** ﴾[4] .

ـــ ويود عدم حصول المحسود على خير ، يقول الله تعالى :

﴿ **ما يودُّ الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم** ﴾[5] .

ـــ وأخيرا ينبىء الله تعالى رسوله بما يعتلج فى صدور الكفار من غل وحقد ، عندما سمعوا كلام الله ، حسدا ، لبغضهم إياه ، يقول الله تعالى :

---

(١) سورة المؤمنون الآيتان : ٣٣ ـــ ٣٤

(٢) سورة المؤمنون الآيات : ٤٥ ـــ ٤٧

(٣) سورة آل عمران الآية : ١٢٠

(٤) سورة التوبة الآية : ٥٠

(٥) سورة البقرة الآية : ١٠٥

﴿ **وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون** (بدافع الغل والحقد الذى ملأ صدورهم بسبب الحسد) **إنه لمجنون** ﴾[1] .

أى أنهم لشدة عداوتهم ينظرون إليك سرا ، حتى ليكادون يزلون قدمك فتصدع ، حين سمعوك تتلو كتاب الله ، حسدا لك وبغضا ، وفى هذا المعنى قال الشاعر :

يتقارضون إذا التقوا فى مجلس * نظرا يزل مواطىء الأقدام

ويرى بعضهم أن المراد :

(أنهم يكادون يصيبونك بالعين)[2] .

وذهب قوم من المفسرين إلى أن المعنى :

(يأخذونك بالعين) ..

وقيل :

(يهلكونك بإصابة العين)[3] .

وليس فى هذه الآيات ما يدل على وقوع ضرر — من أى نوع — بالمحسود ، بمجرد رؤية العائن ..

وفى ختام الحديث عن الآيات التى ورد فيها الحسد بطريق مباشر — سواء كان ذلك بلفظه ، أو بلفظ آخر يتضمن معناه — نحب أن نلقى الضوء على ظاهرة لها صلة بموضوعنا ، ألا وهى :

---

(١) سورة القلم الآية : ٥١

(٢) المراغى : جـ ٢٩ — ٤٧

يقول المراغى : « وسر هذا أن من خصائص بعض النفوس أن تؤثر فى غيرها بواسطة العين لما فيها من كهربية خاصة ، يكون فيها تأثير فيما تنظر إليه ، والله يخص ما شاء بما شاء » (جـ٢٩ صـ ٤٨) ..
وليس له على ذلك دليل واضح .

(٣) قال القشيرى :

كانوا إذا أرادوا أن يصيبوا شيئا بأعينهم ، جاءوا ثلاثة أيام ، ثم نظروا إلى ذلك الشىء ، وقالوا : ما أحسنة من شىء . فيسقط المنظور إليه فى الوقت (البقاعى جـ ٢٠ صـ ٣٣٤) .
وليس له على ذلك دليل.

ما جرت العادة به أن يتلفظ المرء بنص ورد فى آية قرآنية ، وهو :

﴿ ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله ﴾ ..

وذلك عندما يرى المرء شخصا ــ وخاصة عندما يقع نظره على طفل رضيع ــ أو شيئا ثمينا ، وعلى الأخص ، عندما يدخل بيتا ، أو مزرعة ، تفتحت براعم نباتاتها ، أو بستانا ازدان بالورود ، وتجمل بالثمار .

اعتقادا منهـــم :

(أن ترديد هذه الكلمات يحمى المعين من عين العائن) ..

ويستشهدون على ذلك بقوله تعالى :

﴿ ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله ﴾

وهذا استشهاد فى غير محله ، ذلك أن هذه الآية وردت فى سياق بيان :

١ ــ أن أفضلية إنسان على آخر لا تكون بالمال ..

٢ ــ أن من يعتقد أن امتلاكه للمال يجعله أفضل من غيره ، فهو ظالم لنفسه .

٣ ــ أن من يكفر بالله ، أو يشرك به ، أو ينكر الحياة الآخرة ، فهو ظالم لنفسه أيضا .

٤ ــ أن من يغتر بقوته الاقتصادية ، وينسى ربه ، فيظن أن ما حصل عليه كان بسبب جده واجتهاده فقط ، ولن تستطيع قوة ــ مهما كانت ــ أن تبيدها أبدا ، سوف يندم على هذا كله ، عندما يهلك الله ثماره التى يعتمد عليها فى إظهار قوته ، والتى كانت سببا فى كفره بالله ، وإنكاره لليوم الآخر .

٥ ــ أنه لن يجد له نصيرا عندما يجرده الله من هذه القوة التى كانت سبب افتخاره وجبروته ، فإن الأمر لله وحده ، وسوف يُثَبِّت من آمن وينزل العقاب الأليم بمن كفر .

يقول تعالى :

﴿ واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنيتن من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا * كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا وفجرنا خلالهما نهرا * وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا * ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا * وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا *

قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا * لكنا هو الله ربى ولا أشرك بربى أحدا * ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله إن تَرنِ أنا أقل منك مالا وولدا * فعسى ربى أن يؤتين خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا * أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا * وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ويقول ياليتنى لم أشرك بربى أحدا * ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا * هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا ﴾[1] .

فليس فيها ما يشير من قريب أو بعيد إلى الحسد ..[2] .

وعليه : فالاستدلال بها على تأثير عين العائن فى المعين ، أو على وقاية المعين بترديد هذه الجملة :

(**ما شاء الله لا قوة إلا بالله**) ..

غير صحيـــح .

* * *

آدم وإبليـــــس :

تلعب الظروف والملابسات دورا كبيرا فى تداعى الخواطر ، وتوارد

(١) سورة الكهف الآيات : ٣٢ ــ ٤٤

(٢) يقول الرازى فى تفسير هذه الآية :

« اعلم أن المقصود من هذا : أن الكفار افتخروا بأموالهم وأنصارهم على فقراء المسلمين ، فبين الله تعالى أن ذلك مما لا يوجب الافتخار ، لاحتمال أن يصير الفقير غنيا ، والغنى فقيرا . أما الذى يجب حصول المفاخرة به ، فطاعة الله وعبادته ، وهى حاصلة لفقراء المؤمنين ، ويبين ذلك بضرب هذا المثل .. ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله .. أى هلا قلت عند دخول جنتك : الأمر ما شاء الله ، والكائن ما قدره الله ، اعترافا بأنها ، وكل خير فيها بمشيئة الله وفضله ، فإن أمرها بيده ، إن شاء تركها ، وإن شاء خربها ، وهلا قلت : لا قوة إلا بالله ، إقرارا بأن ما قويت به على عمارتها ، وتدبير أمرها ، فهو بمعونة الله وتأييده ، لا يقوى أحد فى بدنه ، ولا فى ملك يده إلا بالله .. » .

جـ ٢١ صـ ١٢٧

الأفكار بعضها مع بعض ، كما تؤثر الأحداث إلى حد كبير فى حمل الفكر على تذكر اسمين مع بعضهما ، وإن اختلفت طبيعة مسميهما ، وتباعدت اتجاهاتهما ، بحيث أصبح كل منهما عدوا لدودا للآخر ، إذ قد تكون هذه العداوة سببا مباشرا فى تلازم أحدهما للآخر ، فى الفكر والسلوك ، تلازما يحمل من يرتكب إثما على إلقاء اللوم على الآخر فى اقترافه هذا الإثم ، كأن يعلل ذلك بأنه زين له هذا العمل ، أو دفعه إليه ، عن طريق الخداع والغواية ، أو حمله على فعله ، عن طريق المؤامرات والدسائس .

ومن أشهر الأمثلة على ذلك :

آدم وإبليـــــس

إذ كلما ذكر الخير والشر ، أو الضلالة والهداية ، قفزت إلى الذهن ــ وبالتالى يأخذ الحديث ــ صورة ما حدث بينهما . وكذلك عندما يدور الحديث حول استقامة الأفراد فى مجال التربية والسلوك ، أو صلاح المجتمع فى مسيرة حياة الأمم والشعوب .. بل إن محور أحاديث رجال الدين يدور فى معظم الأحيان على إبليس ــ أو الشيطان ــ وعداوته لبنى آدم ، التى تحمله على دفعهم إلى ارتكاب الآثام ، واقتراف الموبقات ، حتى يضلهم عن سبيل الله ، فيدخلون معه فى نار جهنم .

ولكى نفهم أسباب العداوة التى نشأت بين إبليس وآدم ــ وبالتالى بينه وبين بنيه ــ نستعرض ما ورد فى القرآن الكريم عنهما ، يقول الله تعالى :

﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم مالا تعلمون * وعلّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين * قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم * قال ياآدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون * وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر

وكان من الكافرين ﴾[1] .

يخبرنا الله فى هذه الآيات بأنه أنعم على آدم :

ــ بالخلافة فى الأرض ،

ــ بالعلم الواسع ،

ــ وبالتمييز فى هذا الجانب ، بحيث صارت الملائكة عاجزة عن بلوغ درجته العلمية ،

ــ وبسجود الملائكة له ،

مما جعل إبليس يغار منه ، ويحقد عليه ، لدرجة عصيانه أمر الله بالسجود له ، فقد دفعته الغيرة إلى الحقد عليه ، فنسى مركزه المرموق بين الملائكة ، ولم يقدِّر عواقب ما سيترتب عليه مخالفته أمر الله ، فكانت النتيجة :

ضياع كل ما يتمتع به من منزلة بين الملائكة ، فهوى إلى الحضيض ..

يخبرنا الله بذلك ، فيقول تعالى :

﴿ إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين * فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين * فسجد الملائكة كلهم أجمعون * إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين * قال ياإبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى أستكبرت أم كنت من العالين * قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين * قال فاخرج منها فإنك رجيم * وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين ﴾[2] .

ماذا يفعل إبليس مع آدم الذى فضله الله عليه ؟

وكيف ينتقم من آدم الذى كان سببا فى طرده وإنزال اللعنة عليه ؟

فالحاقد الحسود ــ كما يقول فيكتور بوشيه ــ يظل طوال وقته لا يفكر إلا فى النيل من الذى يحقد عليه ، فقد يكذب عنه ، وقد يتقول عنه مالم يقله ، وقد يضر به ، ولا يهاب فى سبيل ذلك ما يفعل .. والغيور ، وهو الذى تعمى الغيرة بصره وبصيرته ، لا يرى فى لوحة أفقه إلا من يغار منه ، وهو لا يهدأ

(١) سورة البقرة الآيات : ٣٠ ــ ٣٤

(٢) سورة ص الآيات : ٧١ ــ ٧٨

حتى يسلبه ما يغار منه بسببه .. أكان عملا .. أم مالا .. أم مركزا[1] .

ولم يهدأ إبليس إلا بعد أن سمح له الله بغواية آدم ، وأمهله إلى يوم البعث ، يقول الله تعالى :

﴿ قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون * قال فإنك من المنظرين * إلى يوم الوقت المعلوم * قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين * قال فالحق والحق أقول * لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾[2] .

كان حسد إبليس لآدم على ما أنعم الله به عليه أول حادثة من نوعها تقع بعد خلق الإنسان : حسده على مكانته ، فأبى أن يسجد له ، وحمله حسده على معصية الله . حكى أن عون بن عبد الله دخل على الفضل بن المهلب ، وكان يومئذ على واسط ، فقال :

إنى أريد أن أعظك بشىء .. فقال :ما هو ؟

قال :

إياك والكبر[3] فإنه أول ذنب عُصِىَ الله به ، ثم قرأ :

﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ﴾[4] .

وإياك والحرص ، فانه أخرج آدم من الجنة ، أمكنه الله سبحانه من جنة عرضها السموات والأرض ، يأكل منها ، إلا شجرة واحدة ، نهاه الله عنها ، فأكل منها ، فأخرجه الله تعالى منها ، ثم قرأ قوله تعالى :

﴿ فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضُكم لبعض عدوٌّ ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾[5] .

وإياك والحسد ، فإنما قتل ابن آدم أخاه حين حسده ، ثم قرأ قوله تعالى :

﴿ واتل عليهم نبأ ابنَىْ آدم .... ﴾[6] .

---

(١) الجمل : ص ٩٠

(٢)سورة ص الآيات : ٧٩ ــ ٨٥

(٣) والكبر يدفع إلى الحسد

(٤) سورة البقرة الآية : ٣٤

(٥)سورة البقرة الآية : ٣٦

(٦) الغزالى : إحياء علوم الدين جـ ٣ ص ١٨٨

لم يذكر القرآن الكريم فى سرده لهذه الأحداث شيئا عن إصابة العين للمعيون بمجرد النظر إليه ، إذ لم يصل ضرر من عين إبليس الحسود إلى آدم المحسود ، بل إن ما ذكره القرآن الكريم من غواية إبليس لآدم ، لدليل على أن الحسد لا يضر إلا إذا دفع الحاسد إلى إيذاء المحسود بطريقة أخرى غير العين ، كالكذب عليه ليحرمه من الخير الذى هو فيه ، وهو ما فعله إبليس مع آدم .

وعليه فليس فى قصة إبليس مع آدم دليل — أو إشارة — على أن لعين العائن أثرا ضارا للمعيون .

* * *

هابيل وقابيـــل :

يدور اهتمام القرآن الكريم حول إصلاح الفرد بوصفه إنسانا ، لأن ذلك أبلغ وأعمق فى التجريد ، وأعم وأشمل فى التأثير ، وأكثر دواما واستمرارا فى توجيه الإنسان إلى ما يقوّم تفكيره ، ويصلح سلوكه ، لأن ربط الأحداث بالأشخاص — أو بالزمان والمكان — وإن كانت له فائدة كبيرة على قطاعات واسعة من المجتمع ، وخاصة محدودى الإدراك والتفكير ، إلا أنه قد يوحى — فى بعض الأحيان — إلى النفس بخصوصية الأحداث بأبطالها ، وقصرها على الظروف والملابسات التى عاشت فيها الشخصية التى تدور حولها تلك الأحداث ، مما قد ينتج عنه شعور لدى الفرد ببعده عن هذا الجو ، فيحس بأن وضعه مخالف لما كان عليه صاحب الحدث ، وبالتالى فلا يؤثر فيه التأثير المرجو ، فهو يقرؤه على أنه تاريخ رجال بعيدين عنه فى الزمان والمكان ، فلا شأن له به إلا مجرد معرفة ما حدث لهم ، أما إذا كانت الأحداث مجردة عن الخصوصية ، وصيغت بأسلوب يوحى للقارىء بإمكانية حدوث مثل هذا الحدث له ولغيره ، فإن مما لاشك فيه أن تأثيره يكون أعمق ، وتصبح فائدته أعم وأشمل .

ولهذا خلت أخبار القرآن الكريم من ذكر أسماء أبطالها — إلا ما دعت الضرورة إلى ذكره ، وهو قليل بالنسبة لما أغفلت أسماء أبطالها — لتجريدها من الخصوصية ، فيتلقاها الإنسان كناموس مطرد ، مجرد عن الزمان والمكان ، غير

مرتبط بشخص معين ، فيحس إمكانية حدوث مثله له ، لو حاد عن المبادىء التى صور الحدث أن البعد عنها كان سبب الكارثة .

أضف إلى ذلك أن ذكر الأسماء لا يتعلق به فائدة كبيرة ، مادام الغرض من الأخبار يدور حول هدف أسمى من ذكر الأسماء ، وخاصة إذا كان ذكرها لا يضيف شيئا ذا أهمية فى عملية تهذيب النفس وإصلاحها ، أو يتطلب تقويم المجتمع وسلامته من الآفات المهلكة ، والكوارث المدمرة .

ومن هنا لم يذكر القرآن الكريم ابنَىْ آدم باسميهما : هابيل وقابيل ، كما جاء فى التوراة[1] ، لأن الأسماء لا تضيف شيئا فى تحقيق الغرض الذى من أجله سيقت هذه القصة ، يقول الله تعالى :

﴿ واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين * لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يَدِىَ إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين * إنى أريد أن تبوأ بإثمى وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين * فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين ﴾[2] .

قص الله على نبيه هذه القصة بعد القصة السابقه[3] لما بينهما من التماثل ،

---

(١) اشتهر ابنا آدم فى الفكر الإسلامى باسميهما : هابيل وقابيل ، وهما الاسمان اللذان وردا فى التوارة وتحقيق الاسم الثانى هو : قايين ، كما ذكر بنص التوراة :

« وعرف آدم حواء امرأته فحبلت وولدت قايين . وقالت : اقتنيت رجلا من عند الرب ، ثم عادت فولدت أخاه هابيل . وكان هابيل راعيا للغنم ، وكان قايين عاملا فى الأرض ، وحدث من بعد أيام أن قايين قدم من أثمار الأرض قربانا للرب ، وقدم هابيل أيضا من أبكار غنمه ومن سمانها ، فنظر الرب إلى هابيل وقربانه . ولكن إلى قايين وقربانه لم ينظر . فاغتاظ قايين جدا وسقط وجهه . فقال الرب لقايين : لماذا اغتظت ، ولماذا سقط وجهك . إن أحسنت أفلا رَفْعٌ ، وإن لم تحسن فعند الباب خطية ، رابضة ، وإليك اشتياقها وأنت تسود عليها . وكلم قايين هابيل أخاه ، وحدث إذ كانا فى الحقل أن قايين قام على هابيل أخيه وقتله » ..

(سفر التكوين : ٤ : ١ — ٩)

(٢) المائدة : ٢٧ — ٣٠

(٣) وهى قوله تعالى :

=

والتضاد(١) ، فأما التماثل :

فإن فى كلتيهما عدم الرضا بما حكم الله تعالى : فإن بنى إسرائيل عصوا أمر رسولهم إياهم بالدخول إلى الأرض المقدسة ، وأحد ابنَىْ آدم عصى حكم الله تعالى بعدم قبول قربانه لأنه لم يكن من المتقين .

وفى كلتيهما جرأة على الله بعد المعصية ، فبنو إسرائيل قالوا : إذهب أنت وربك فقاتلا ، وابن آدم قال : لأقتلن الذى تقبل الله منه قربانه .

وأما التضـــــاد :

فإن فى إحداهما اتفاق أخوين ، هما : موسى وأخوه هارون على امتثال أمر الله تعالى ، وفى الأخرى اختلاف أخوين ــ هابيل وقابيل ــ بالصلاح والفساد .

ومعنى « ابنَى آدم » هنا : ولداه . وأما ابن آدم مفردا ، فقد يراد به : واحد من البشر ، نحو : « ياابن آدم . إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك » .

أو مجموعا ، نحو :

﴿ يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾(١) .

= «وإذ قال موسى لقومه ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين * ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين * قالوا ياموسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون * قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين * قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبدا ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون * قال رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين * قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين » ..

(سورة المائدة الآيات : ٢٠ ــ ٢٧)

(١) اعتمدنا فى تفسير هذه الآيات على ابن عاشور جـ ٦ ص ١٦٨ و . ب

(٢) سورة الأعراف الآية : ٣١

وتنص التوراة على أن اسميهما : قايين — والعرب يسمونه : قابيل — وهابيل . وكان قابيل فلاحا فى الأرض ، وكان هابيل راعيا للغنم ، فقرب قابيل من ثمار حرثه قربانا ، وقرب هابيل من أبكار غنمه قربانا . ولا ندرى ، هل كان القربان عندهم يعطى للفقراء ، أو كان يترك للناس عامة(١) . فتقبل الله قربان هابيل ، ولم يتقبل قربان قابيل . والظاهر أن قبول قربان أحدهما دون الآخر حصل بوحى من الله لآدم . وإنما لم يتقبل الله قربان قابيل ، لأنه لم يكن رجلا صالحا ، بل كانت له خطايا ، وقيل : كان كافرا ، وليس ذلك صحيحا ، لأنه ينافى كونه يقرب قربانا ، إذ المنكر للإلٰه لا يقدم قرابين له .

لم يقدم المفسرون دليلا مقنعا على أن القربان كان أضحية ، أو ثمارا مما أنتجته الأرض ، فهم اعتمدوا فى تفسيرهم هذا على التوراة ، وهى لم تخرج عن كونها تصويرا لثقافة اليهود الدينية ، التى كانت متأثرة بالصور العديدة لتقديم القرابين عبر مسيرة التاريخ ، ومنها ما هو مسطور فى صفحات التارخ الدينى عن تقديم القرابين للآلهة على اختلاف صورها وتعدد أشكالها .

كذلك ليس لدى علماء الأديان ما يؤكد أن صورة تقديم قربان ابنَىْ آدم تمثلت فى حرقه ، لأن رأيهم هذا متأثر بما كان يمارسه كثير من المجتمعات البشرية فى تقديم قربانها لآلهتها .

وما ذكر فى التوارة بعيد عن حقيقة ما حدث فى تقديم قربان ابنَىْ آدم ، لأن هدف تقديم القرابين على هذا النحو هو تعويد الإنسان على العطاء والبذل للمحتاجين ، ولم يوجد هذا النوع — وهم المحرومون من بنى الإنسان — آنذاك ، لأنه لم يكن موجودا من البشر سوى آدم وأولاده ، وهم بطبيعتهم كانوا يعيشون بأسلوب أقرب ما يكون إلى شيوع الموارد والأطعمة ، إذ لم تكن غريزة الملكية الخاصة قد ظهرت بعد . ومن هنا يصبح تفسيرالقربان بأنه : تقديم ثمار ، أو أضحية لغوا لا معنى له ، لأنه لا يوجد هدف يرمى إليه .

---

(١) لم يكن هناك أناس غيرهم ، لأن نص التوراة يفيد بأنهما — أى ابنَىْ آدم — كانا أول أولاد آدم ، إذ ورد فيها أن حواء حملت بقابيل بعد الطرد من الجنة مباشرة ، ولذلك نرجح — اعتمادا على ما ورد فى تاريخ الأديان — أن عملية تقديم القربان كانت منحصرة فى إسالة دم الضحية ، وحرق القربان .

وكذلك أخطأ علماء الأديان حين قالوا : إن تقديم القربان فى هذه القصة ، هو حرقه ، لأن حرق القربان ـــ الذى ظهر فى المجتمعات البشرية بعد ذلك ـــ كان للآلهة ، بهدف الوصول على رضاها، حتى لا تؤذى مقدم القربان، أو يمنع عنه ما يحتاج إليه فى حياته . ولم يكن هذا التصور عند ابنَىْ آدم ، بل وجد فى عصور متأخرة .

وما دام القرآن الكريم لم يحدد نوع القربان ، ولا صورة تقديمه ـــ لأنه ليس عنصرا رئيسيا في تحقيق الهدف من سرد القصة ـــ فلا ينبغى لنا أن نجزم بشيء ، سوى أن كل واحد من ابنى آدم قدم قربانا . أما حقيقة هذا القربان ، وصورة تقديمه ، فليس لدى أحد ـــ مهما بلغ من قوة العقل والإدراك ما يمكنه من تحليل النصوص ، وتفسير الآثار ، وحصل من العلم والمعرفة ما يساعده على فهم الروايات التاريخية بظروفها وملابساتها ـــ دليل يجعلنا نجزم بتحديد نوع القربان ، ورسم صورة تقديمه .

وليست هذه دعوة إلى إنكار إعمال العقل فى تفسير مثل هذه العموميات فى القرآن الكريم ... لا .. بل العكس، هو الصحيح ، فقد يكون سرد القرآن الكريم لهذه الأخبار على هذا النحو دعوة إلى شحذ الفكر ، حتى لا يطمس فيموت ، وتوجيها لتدريب العقل ، حتى لا يفقد حيويته ، فيعجز عن حل مشاكل الحياة ... وإنما أردت بيان أن هذه الآراء احتمالية ، ولا يرجح رأى على آخر ، ويتأكد إلا بصحة أدلته ، وقربه من نص القرآن الكريم . وليس فيما عرضه علينا المفسرون ، وأدلى به علماء الأديان فى نوع القربان ، وتحديد شكل تقديمه ، ما يتفق مع عقيدة ابنَىْ آدم ، ويناسب الظروف المحيطة بهما .

ولم يذكر القرآن الكريم شيئا مما ذكره المفسرون فى سبب قبول الله قربان أحدهما ، وعدم قبوله من الآخر مما نقلوه عن التوراة والفكر اليهودى ، ولذا يجب الالتزام بما صرح به القرآن الكريم ، ألا وهو أن القبول يكون من المتقين ، فقد قال الله تعالى :

﴿ **إنما يتقبل الله من المتقينَ** ﴾

إذ يشير هذا النص إلى أن القبول فعل الله ، لا فعل غيره ، وهو يتقبل من

المتقين ، لا من غيره، وفيه إشارة إلى أن من لم يقبل قربانه ، فليس بتقى .

ثم نصح التقى أخاه ، وذكره بخطر هذا الجرم الذى يريد أن يقدم عليه . فقال له :

﴿ لئن بسطت إلىّ يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يَدَى إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين * إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين ﴾(1) .

والأظهر فى معنى قوله (بإثمى) ماله من الآثام الفارطة فى عمره ، أى أرجو أن يغفر لي ، وتُحْمَل ذنوبى عليك . وفى الحديث : « يؤتى بالظالم والمظلوم يوم القيامة فيؤخذ من حسنات الظالم فيزداد فى حسنات المظلوم حتى ينتصف ، فإن لم يكن له حسنات ، أخذ من سيئات المظلوم فتطرح عليه »(2) .

لم يستجب ابن آدم لموعظة أخيه ، لأن حسده له على تقبل الله لقربانه حال بينه وبين الاستماع إلى صوت الضمير ، وحكمة العقل ، فتغلب الحسد على حواسه ، ودفعه إلى قتل أخيه ، فأصبح من الخاسرين ، أى غدا خاسرا فى الدنيا ، والمراد بالخسارة : ما يبدو على الجانى من الاضطراب وسوء الحال ، وخيبة الرجاء .

وجملة القول : أن ابن آدم عدا على أخيه ، فقتله بغيا له ، وحسدا عليه ، لأن الله وهبه من النعمة ، وتقبل القربان ، ما جعل أخاه يحسده على مكانته عند الله ، فدفعه الحسد إلى قتله ، لأن الحاسد يعانى من آلام الغيرة والحقد ما يجعله يفكر فى التعجيل بالتنكيل بمن يحسده ، فإذا ما فقد الحاسد جانبا من طاقته وحيويته من جراء ما يغلى فى صدره ، اعتل فى تفكيره ، وهذا الاعتلال فى التفكير يكون مرحلة من مراحل الجنون ، الذى لا يدرى فيها الإنسان : ماذا يفعل ، فقابيل لم يكن فى وعيه حين قتل أخاه ، لأن الحسد شل تفكيره ، وأعمى بصيرته ، ولذلك عندما عاد إليه وعيه ، ندم على ما فعل ، كما صور لنا

---

(1) سورة المائدة الآيتان : ٢٨ ــ ٢٩

(2) راجع : صحيح البخارى : كتاب المظالم

القرآن الكريم ذلك فى قوله تعالى :

﴿ فأصبح من النادمين ﴾ ..

ومما لا شك فيه أن هذه الحالة تتكرر كل يوم ــ بل كل لحظة ــ فى أرجاء المعمورة ، إذ لازال بين الناس من يتنعمون بالنعم ، سواء كانت مادية ، أم معنوية ، وبالتالى يوجد من يحسدهم ، فإذا لم يسيطر الحاسد على مشاعره ، ويتحكم فى جوارحه ، دفعه الحسد إلى ارتكاب مالا يحمد عقباه ، حتى لو وصل الأمر إلى قتل من يسبب له هذه الآلام ..

فالحسد مضر للمحسود ، إذا ضعف الحاسد نفسيا وفكريا ، فاندفع بجوارحه إلى إلحاق الضرر بالمحسود ، كأن يدبر له من المؤامرات والدسائس ما يحرمه من هذه النعم ، أو يعتدى عليه بالسرقة ، إذا كان موضوع الحسد شيئا ماديا يمكن أن يسلب ، وقد يصل فى بعض الأحوال إلى القتل .

أما إذا اقتصر عمل الحاسد على ما يعتريه من انفعالات ، فلن يصل إلى المحسود أى ضرر ، لأن عين العائن لا تملك قوة تأثير على المعين ، كما يدعى كثير من الناس .

ولا دليل فى هذه القصة على هذا الادعاء ، إذاً فلا محل للاستشهاد بها على وجود الحسد بالمعنى المشهور بين عامة الناس : ألا وهو ضرر المحسود بمجرد رؤية الحاسد له ، أو ذكر محاسنه ، فإن هذا من باب الخرافات التى انتشرت بين الشعوب البدائية ، وتأثرت بها المجتمعات الإسلامية .

* * *

يوسف وإخوتـــه :

تصور قصة يوسف ــ عليه السلام ــ جانبا من جوانب ضعف النفس الإنسانية ، حيث يؤدى هذا الضعف إلى أن يرتكب المرء سلسلة من الأعمال اللاأخلاقية ، ضد أقرب الناس إليه ، فقد بدأت السورة ببيان مافى النفس الإنسانية من جرَّاء النزغات الشيطانية التى توسوس للإنسان بما يدفعه إلى الحقد على أخيه ، ويوقظ فيه كوامن الغيرة ، فيحسده على ما يمتلكه من نعم ، وما يحيط به من فضائل ، يرى نفسه ــ أى الحاسد ــ محروما منها .

يصور الله تعالى تلك النعم التى دفعت إلى حسد أقرب الناس إلى المحسود ، فيقول تعالى :

﴿ إذ قال يوسف لأبيه ياأبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين ﴾[1] .

فينصحه أبوه بكتمان أمر هذه الرؤية عن إخوته ، خشية أن يسيئوا إليه ، حقدا وحسدا عليه ، فكل إنسان له هواه ، وشيطانه يوسوس له بالشر ضد من ينعم الله عليه بفضل لم يصل هو إليه ، يقول تعالى :

﴿ قال يابنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين ﴾[2] .

لم تكن هذه الرؤية هى التى دفعت إخوة يوسف إلى الحقد عليه وحسده ، لأنه كتمها عنهم بأمر أبيه ، ولكن إيثار أبيهم ليوسف عليهم ، لما له من صفات كريمة ، ولما لهم هم من سلوك ، لا يرضى عنه أبوهم — فوق أنهم مجموعة من الإخوة الأشقاء[3] ، تتوثق الروابط بينهم دونه — دفعهم إلى حسده ، يقول الله تعالى :

﴿ لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين * إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفى ضلال مبين ﴾[4] .

فوقوع الحسد بين الإخوة ظاهرة إنسانية ، لأن تفوق فرد ما ، فى أى مجال من مجالات الحياة ، يدفع أقرانه — سواء كانوا أقرباء ، أو قرناء فى المجتمع — إلى الحقد عليه وحسده ، فالإخوة يتحاسدون ، وكذلك الصاحبان

---

(١) سورة يوسف الآية : ٤

(٢) سورةيوسف الآية : ٥

(٣) درج المفسرون على تقسيم أولاد يعقوب إلى أشقاء وغير أشقاء ، فيذكرون أن يوسف لم يكن له أخ شقيق سوى « بنيامين » وأمهما : راحيل . أما الآخرون الذين دبروا المؤامرة فكانوا أشقاء ، وليس هذا صحيحا ، فهم كانوا من امرأته الأخرى ليئة ، ومن جاريتيه : بلهة ، وزلفة . وليس فى القرآن الكريم ما يشير من قريب أو بعيد إلى هذا ، وإنما استقاه المفسرون من التوراة (انظر : سفر التكوين ، الإصحاح التاسع والعشرون وما بعده) .

(٤) سورة يوسف الآيتان : ٧ — ٨

والشريكان ، فيحسد المرء أخاه على ما يرى :
ـــ من حب أبيهما وأمهما ، أو برّهما ،
ـــ أو مَنْ صحبهما ،
ـــ أو شاركهما .
ويحب أن يُؤثر بذلك دونه ، فيحسده ، فيقع فيه ويبغضه ، ليصرف وجه أبيه ، أو غيره إليه بالبر والحب . فلو وقف الحسد عند هذا الانفعال النفسى ، مالحق المحسود ضرر ، إذ الضرر لا يقع بمجر الانفعال النفسى ، ولا بواسطة نظرة الحاسد إلى نعم المحسود ، بل يصيب المحسود ضرر ، عندما يشتد حقد الحاسد عليه ، فيستعمل جوارحه لإلحاق الضرر به . وذلك هو ما أخبر القرآن الكريم به فى قصة يوسف مع إخوته ، إذ بين ما فعله الحاسدون ـــ وهم إخوة يوسف ـــ بواسطة جوارحهم ـــ وليس بمجرد نظرهم ـــ بالمحسود ـــ وهو يوسف ـــ، فيقول تعالى :

﴿ اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين * قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه فى غيابت الجُبِّ يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين ﴾[1] .

فقد دفعهم الحسد إلى تدبير مؤامرة ، لإزاحة يوسف من حياتهم ، ظنا منهم أنهم سيحصلون بذلك على عطف من أبيهم أكثر مما يحصلون عليه فى وجود يوسف ، وسوف يتمتعون ببره وحنانه ، عندما يغيب يوسف عن ساحة أسرتهم .

ولم يقتصر تأثير الحسد فى جوارح إخوة يوسف على تدبير هذه المؤامرة ، وتنفيذها بإلقائه فى الجب ، بل تلاها جرم آخر ، ألا وهو : الكذب على أبيهم ، باختلاقهم قصة لا أساس لها من الصحة ، يخفون بها ما ارتكبوه من جرم فى حق أخيهم ، يصور لنا الله ذلك فيقول تعالى :

﴿ وجاءوا أباهم عشاءً يبكون * قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين *

(١) سورة يوسف الآيتان : ٩ ـــ ١٠

وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ﴾[1] .

فأحداث القصة تشير ــ بل تؤكد ــ إلى أن حسد إخوة يوسف لم يضره ، إلا عندما تحول إلى عمل من أعمال الجوارح ، ولو اقتصر الأمر على الانفعالات الداخلية التى أصابتهم من جراء تفضيل يعقوب ليوسف عليهم ، ما أصابه ضرر على الإطلاق ، لأن نظرات الحاسد المعبرة عما فى داخله من حقد على المحسود ، لا يترتب عليها ضرر بأى حال من الأحوال .

* * *

يعقوب وبنـــــوه :

إن من أشهر الأدلة التى يستدل بها المعتقدون فى إصابة عين العائن للمعين ما ذكره القرآن الكريم على لسان يعقوب (عليه السلام) لبنيه ، حين أمرهم بعدم الدخول من باب واحد ، يقول الله تعالى :

﴿ وقال يابَنِىَّ لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أُغنى عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون * ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يُغنى عنهم من الله من شيء إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها وإنه لذو علم لما علّمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[2] .

إذ يرون أن يعقوب خاف على أولاده من الحسد ، ولذلك نصحهم بعدم الدخول من باب واحد ، حتى لا يتعرضوا لنظرة من عين حسود ، فيصيبهم ضرر .

وهذا دليل يحتاج إلى توضيح ، وسوف يقوم منهجنا فى توضيحه على ثلاثة أسس :

الأول :آراء المفسرين ..

الثانى : دوافع الحسد ..

---

(١) سورة يوسف الآيات : ١٦ ــ ١٨

(٢) سورة يوسف الآيتان : ٦٧ ــ ٦٨

الثالث : حقيقة الحاجة التى دفعت يعقوب لأن ينصح بنيه بعدم الدخول من باب واحد ..

آراء المفسريـــن

يقول الـــرازى :

(اعلم أن أبناء يعقوب لما عزموا على الخروج إلى مصر ، كانوا موصوفين بالكمال ، والجمال ، وأبناء رجل واحد قال لهم :

﴿ لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة ﴾ ..

وفيه قولان :

الأول : قول جمهور المفسرين : أنه خاف عليهم من العين .. فقال لهم : لا تدخلوا من تلك المدينة من باب واحد ، على ما أنتم عليه من العدد والهيئة ، فلم يأمن عليهم حسد الناس .

الثانى : أنكر على الجبائى إصابة عين العائن للمعين ، فذهب إلى أن يعقوب لم يأمن على أولاده أن يخافهم الملك العظيم على ملكه فيحبسهم .

ثم يُعقِّب الرازى على ذلك بقوله : واعلم أن هذا الوجه محتمل لا إنكار فيه ، إلا أن القول الأول لا امتناع فيه بحسب العقل[1] .

وجاء فى تفسير ابن كثير :

يقول تعالى إخبارا عن يعقوب (عليه السلام) : إنه لما أمر بنيه ـــ لما جهزهم مع أخيهم (بنيامين) إلى مصر ـــ أن لا يدخلوا من باب واحد ، وليدخلوا من أبواب متفرقة ، فإنه ـــ كما قال ابن عباس والسدى ، وغير واحد ـــ خشى عليهم العين ، وذلك أنهم كانوا ذوى جمال وهيئة حسنة ، ومنظر وبهاء ، فخشى عليهم أن يصيبهم الناس بعيونهم ، فإن العين حق ، تستنزل الفارس عن فرسه ..

ثم يرى : أن الحاجة فى قوله تعالى :

(١) الرازى : التفسير الكبير جـ ١٨ صـ ١٧٢ ـــ ١٧٤

﴿ **إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها** ﴾ ..

هى دفع إصابة العين لهم[1] .

ويقول الزمخشـــرى :

« وإنما نهاهم أن يدخلوا من باب واحد ، لأنهم كانوا ذوى بهاء ، وشارة حسنة ، اشتهرهم أهل مصر بالقربة عند الملك ، والتكرمة الخاصة التى لم تكن لغيرهم ، فكانوا مظنة لطموح الأبصار إليهم من بين الوفود ، وأن يشار إليهم بالأصابع ، ويقال : هؤلاء أضياف الملك ، انظروا إليهم !! ما أحسنهم من فتيان !! وما أحقهم بالأكرام ، لأمر ما أكرمهم الملك وقربهم ، وفضلهم على الوافدين عليه ، فخاف ذلك أن يدخلوا كوكبة واحدة ، فيعانوا لجمالهم ، وجلالة أمرهم فى الصدور ، فيصيبهم ما يسوءهم »[2] .

ويقول الطبـــرى :

« يقول تعالى ذكره : قال يعقوب لبنيه ، لما أرادوا الخروج من عنده إلى مصر ليمتاروا الطعام : يابنى لا تدخلوا مصر من طريق واحد ، وادخلوا من أبواب متفرقة »

وذكر أنه قال لهم ذلك ، لأنهم كانوا رجالا لهم جمال وهيأة ، فخاف عليهم العين[3] ، إذا دخلوا جماعة من طريق واحد ، وهم ولد رجل واحد ،

(١) ابن كثير جـ ٣ صـ ٢٩٨

(٢) الزمخشرى : الكشاف جـ ٢ صـ ٣٣٢ ـــ ٣٣٣

(٣) ذكر الطبرى « مرويات » تؤيد هذا الرأى ، وهى :

ـــ حدثنا الحسن بن محمد قال : حدثنا يزيد الواسطى عن جويبر ، عن الضحاك : « لا تدخلوا من باب واحد ، وادخلوا من أبواب متفرقة » قال : خاف عليهم العين ..

ـــ حدثنا بشر ، قال : حدثنا يزيد ، قال حدثنا سعيد ، عن قتادة قوله : « يابنى لا تدخلوا من باب واحد » خشى نبى الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ العين على بنيه ، ..... كانوا ذوى صورة وجمال » ..

ـــ حدثنا محمد بن عبد الأعلى ، قال : حدثنا محمد بن ثور ، عن معمر ، عن قتادة : « وادخلوا من أبواب متفرقة » ، قال : كانوا قد أوتوا صورة وجمالا ، فخشى عليهم أنفس الناس ..

ـــ حدثنى محمد بن سعد ، قال : حدثنى أبى ، قال : حدثنى عمى ، قال : حدثنى أبى ، عن أبيه عن ابن عباس ، قوله : « قال : يابنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة » قال : رهب يعقوب عليه السلام العين ..

فأمرهم أن يفترقوا فى الدخول إليها .

ويفهم من هذا : أن المفسرين يكادون يجمعون على أن يعقوب كان يعتقد فى إصابة عين العائن للمعين ، ولذلك أمر بنيه بعدم الدخول من باب واحد ، خوفا عليهم من أن تصيبهم عين عائن ، بل إن الرازى حين عرض الرأى الآخر ، وهو رأى الجبائى لم يكن مقتنعا به ، اعتمادا على أن أبا على لم يذكر شبهة فى إنكاره إصابة عين العائن للمعين .

دوافـــع الحســـد

ذكرنا فيما سبق أن من دوافع الحسد :

(الكبر والعجب) ..

أى أن الحاسد يأنف أن يعلوه من كان دونه ، أو يساويه ، أو يعلوه من هو مثله .

ـــ حُدِّثْتُ عن الحسن بن الفرج ، قال : سمعت أبا معاذ ، قال : أخبرنا عبيد بن سليمان ، قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله : « لا تدخلوا من باب واحد » ..

خشى يعقوب على ولده العين ..

ـــ حدثنا ابن وكيع ، قال : حدثنا زيد بن الحباب ، عن أبى معشر ، عن محمد بن كعب : (لا تدخلوا من باب واحد) قال : خشى عليهم العين ..

ـــ .... حدثنا عمرو ، عن أسباط ، عن السدى ، قال : خاف يعقوب ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ على بنيه العين ، فقال : « يابنى لا تدخلوا من باب واحد » فيقال : هؤلاء لرجل واحد ! ولكن ادخلوا من أبواب متفرقة ..

ـــ حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة ، عن ابن إسحاق ، قال : لما أجمعوا الخروج (يعنى ولد يعقوب) قال يعقوب : « يابنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة » خشى عليهم أعين الناس لهيئتهم ، وأنهم لرجل واحد (جامع البيان جـ١٦ صـ ١٦٤ ـــ ١٦٦) ..

أردت بكثرة النقول فى هذه النقطة ـــ على الرغم من تكرارها ـــ بيان مدى انتشار هذه الظاهرة البدائية بين العلماء ، واستسلامهم لها ، لدرجة أنهم أغفلوا مسلمات واضحة ، ذكرتها عند الحديث عن دوافع الحسد لدى أبناء يعقوب ..

فهل تحقق هذا فى أبناء يعقوب ؟

بالطبع ..لا .

لأنهم كانوا غرباء ، فلن يحسدهم أحد على مكانة ، أو جاه ، أو مال .. فهم محتاجون إلى الطعام ، ولذلك جاءوا سائلين عطاء صاحب الخزانة ، حتى يعودوا إلى وطنهم ، ليطعموا أهلهم وذويهم ..

فأى شيىء معهم يدفع إلى الحسد ؟

أحاجتهم إلى الطعام ؟

أم هَيْئَتُهم التى لا تسر الناظرين ، من كثرة ما تراكم على أجسامهم وثيابهم من رمال الصحراء التى قطعوها ، وما اختلط ببشرتهم من عرق وغبار ، امتزج بملامح وجوههم من وعثاء السفر الطويل ؟

إن من المعروف أن الحسد يكون من قريب أو زميل ، أو مرافق ، لأن الحسد يقع بين المتجاورين أسرع من وقوعه بين المتباعدين ، فكثرة رؤية المرء لمن يتفوق عليه فى جانب من جوانب الحياة تدفعه إلى حسده ، وتمنى زوال نعمته .

فهل تحقق هذا الجانب عند أبناء يعقوب ؟

بالطبع .. لا ..

فهم غرباء فى الأرض ، لا يعرفهم أحد ، ويكاد يكون من المستحيل أن يقع الحسد بين غريبين ، إلا إذا كان المظهر الخارجى لأحدهما يدفع الآخر إلى الحسد . ومظهر أبناء يعقوب لم يكن يحرك أحدا إلى الحسد ، فهم كانوا فى حالة يرثى لها :

ـــ إجهاد السفر ..

ـــ وعثاء الطريق ..

ـــ عناء الحاجة ..

ـــ التذلل لمن بيده العطاء ..

ولهذا كله : لا يمكن أن يكون الحسد هو سبب نصيحة أبيهم بعدم الدخول من باب واحد ..

إذن فما هو مصدر خوف يعقوب ؟

لو تصورنا الظروف والملابسات آنذاك ، لرأينا الصورة تتكون من :
— دولة ذات نظم بوليسية وأمنية ..
— مجاعة عمت البلاد ، قد تدفع الجائعين إلى التذمر الذى قد يؤدى إلى ثورة ..
— مدينة لها أبواب عدة (فقد كانت المدن فى تلك العصور تُسوَّر بسور كبير ، تفتح فيه عدة أبواب من مختلف الجهات) ..
— مجموعة من الغرباء يفدون إلى هذه المدينة ، فى وقت يرصد فيه رجال الأمن كل حركة ، حتى لا يختل النظام فى ذلك الوقت المشحون بأسباب الانفجار ، الذى قد يؤدى إلى الإطاحة بالأجهزة الحاكمة فى الدولة .

فلو دخل أبناء يعقوب من باب واحد ، لكان ذلك ملفتا لنظر رجال الأمن ، لأن هذا العدد إذا دخل مرة واحدة من مدخل واحد ، فلربما يعد ذلك تجمهرا ، يوحى للشرطة بأن هناك عملا على وشك الوقوع ضد استتباب الأمن ، فيدفعهم ذلك إلى التدخل بالقبض عليهم .

ولو حدث ذلك لحيل بينهم وبين الوصول إلى يوسف ، الذى طلب منهم أن يأتوا له بأخ له من أبيهم ، وقد عبر ابن عاشور عن هذا المعنى بقوله :

(إنما نهاهم أن يدخلوا من باب واحد ، خشية أن يسترعى عددهم أبصار أهل المدينة وحراسها — وأزياؤهم أزياء الغرباء عن أهل المدينة — أن يوجسوا منهم خيفة من : تجسس أو سرقة ، فربما سجنوهم ، أو رصدوا الأعين إليهم ، فيكون ذلك ضررا لهم ، وحائلا دون سرعة وصولهم إلى يوسف — عليه السلام — ، ودون قضاء حاجتهم . وقد قيل « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان » ..

(ولما كان شأن إقامة الحراس والأرصاد أن تكون على أبواب المدينة ، اقتصر على تحذيرهم من الدخول من باب واحد ، دون أن يحذرهم من المشى فى سكة واحدة من سكك المدينة ، ووثق بأنهم عارفون بسكك المدينة ، فلم يخش ضلالهم)[1] .

---

(١) ابن عاشور : جـ ١٣ صـ ٢٠ — ٢١

فخوف يعقوب على بنيه لم يكن من عين العائن ، بل كان من عيون الحاكم ، ورجال الأمن ، وعليه ، فليس فى القصة دليل على إمكانية إصابة المحسود ، بمجرد نظر الحاسد إليه ، أو مدحه . وما قاله المفسرون فى هذا الصدد ، لا يخرج عن كونه تعبيرا عن وقوعهم تحت تأثير ثقافات ، اختلطت فيها النصوص المقدسة بتراث يضرب بجذوره فى أعماق التاريخ ، حيث سادت الأساطير بخرافاتها وأباطيلها ، وسيطرت الأوهام على عقول الناس ، فصاغت سلوكهم على نحو لم تستطع النهضة الفكرية ـــ بسواء كان مصدرها الوحى السماوى .. أو التقدم الهائل فى الكشف عن حقيقة وأسباب الظواهر الكونية ، وتوضيح مصادر ما يعترى الإنسان من علل وأسقام ـــ تحرير الإنسان من آثارها ، إذ على الرغم من إيمان المسلم بنصوص القرآن الكريم ، إلا أنه أوَّلها فى كثير من الأحيان تأويلًا يجعلها تؤيد وتساند ما كان يعتقده آباؤه السالفون من أوهام ، وما كانوا يسلّمون به من خرافات .

ولم ينتفع بنتائج البحوث التجريبية فى التخلص مما يسيطر عليه من عقائد بدائية ، بل فصل بينها وبين عقائده فى هذا المجال ، بحيث أصبح منفصم الشخصية ، يفكر بالمنطق والعقل فى مجال العلوم التجريبية ، ويسلم نفسه للأوهام والخرافات فى محيط العادات والتقاليد التى انحدرت إليه من حياة العصور البدائية .

التعـــــــوذ :

الخوف غريزة فى طبيعة الإنسان ، فهو يخاف من المجهول ، لاعتقاده أنه يحمل الشر له ، ذلك الشر الذى قد يسلبه سعادته ، أو يدمّر حياته تدميرا كليا ، ولهذا نراه يتعلق بأى شىء يوهمه بالحماية من ذلك المجهول ، أو يؤمن له مستقبلا أكثر هناء وسعادة ، أو يخلصه مما أصابه من آلام ، أو ألمّ به من منغصات ، فهو يصدق العرافين ، لأنهم يوحون إليه بأمل مشرق ووعود تريح أعصابه ، وتحميها من ضغوط الخوف والترقب لما يأتى به الغد ، وتخفف من القلق الذى يعتريه ، كلما فكر فيما قد يحمل إليه الغد من أحداث ، قد تنغص عليه حياته .

وليس كل من يجلس إلى العرافين مصدقا لهم ، ولا كل من يحرص على

قراءة الطالع معتقدا فى صحته ، ولا كل من ينصت إلى ما يقوله المنجمون مسلّما بتنبؤاتهم ، فكثيرا ممن يركنون إلى هؤلاء فيسألونهم خبر مستقبلهم ، ويستنطقوهم بما سيحدث لهم فى الغد ، لا يعتقدون فى صحة ما يسمعون ، ولا يصدقون ما يقرءون من تنبؤات النجوم ، واستطلاعات أحداث المستقبل ، وإنما يدفعهم إلى ذلك رغبتهم فى الاطمئنان النفسى ، ذلك الاطمئنان الذى قد يساعدهم فى التغلب على الخوف من المستقبل ، فتهدأ أعصابهم ، وتسكن رجفتهم ويزول توترهم النفسى ، ويختفى القلق من تفكيرهم ، فينضبط سلوكهم فى الحياة الاجتماعية ، ويتناغم نشاطهم مع المتعاملين معهم ، فتصبح حياتهم منسجمة مع نبض الكون كله ، بما فيها من مظاهر طبيعية وتحركات إنسانية .

ومما لا شك فيه أن هذه الآثار لا تحدث لتلك الفئه فقط ، بل تصيب أيضا أولئك الذين يؤمنون بما يقوله العرافون ، ويصدقون بما ينبىء به المنجمون ، غاية الأمر أن للإيمان بالعرافين جانبا آخر سيئا ، ذلك أن الركون إليهم ، والتسليم بصحة ما يقولون ، فيه تدمير لحياة الإنسان ، لأنه يتصرف فى حياته ، طبقا لمقولات هلامية ، وفرضيات لا دليل عليها ، فهو يرتب سلوكه على أوهام ، ويبنى نشاطه على مجهول ، فلا يختلف حاله عن حال من يمشى فى فلاة بدون دليل ، أو يسير فى طرق مظلمة غير معروفة له ، بدون شعاع يكشف له عما فيه من مهاوٍ وآكام . ومن كان هذا شأنه فالهلاك مأواه لا محالة .

فإذا نظر إلى التعوذ من هذا الجانب تبين لنا أن منشأه كان لدفع الخوف عن الإنسان : الخوف من المستقبل .. الخوف من المجهول .. الخوف مما يعتقد أنه مصدر الضرر ، ومكمن الأخطار التى تصيبه ، فهو يتعوذ للوقاية والحماية .. يتعوذ بالآلهة لتحميه وتساعده على قهر من يريده بسوء .. يحمل التمائم ، ويردد الصيغ المقدسة لتقيه من الشرور والأمراض ، فهو يعتقد أن لهذه التمائم ، ولتلك الصيغ المقدسة قوة إلٰهية ، تعجز جميع القوى عن مقوماتها.... فإذا رددها ، أو حمل نصها المكتوب فى طيات ثيابه الملاصقة لجسمه ، اطمأنت نفسه ، وهدأت أعصابه ، لتأكده — طبقا لاعتقاده — من عدم وصول الضرر إليه ، مادام يحمل ذلك النص ، ولن تستطيع القوى الشريرة الوصول إليه ،

مادام قد تحصن بها ، أو بتلاوتها . ولذا نراه يعلق كل نص يفيد الحماية على جسده ، وفى بيته ، وفى مركبته ..الخ ، بل يضعه فى كل مكان لصيق به بصفة دائمة ، أو شبه دائمة .

وليس هناك مجال لإنكار هذا التأثير النفسى ، لأننا نراه ونشاهده فى حياة أولئك الذين تعودوا ترديد هذه النصوص ، أو التبرك بها بأى شكل من الأشكال ، حتى ولو كان مصدر تقديسها ، وثنا ، أو صنما ، أو أى شكل من الظواهر والجواهر المحيطة بنا ، بصرف النظر عن كونها نباتا ، أو جمادا ، أو حيوانا .

فتأثير التعوذ فى النفس مسلّم به ، إذ لا جدال فى أمر ثبت وجوده بالمشاهدة والتجربة ، وإنما الجدال والمناقشة تتركز على جانب آخر ، ألا وهو حقيقة تلك القوة التى تكمن فى هذه النصوص المقدسة !!!

ــ أهى ذاتية ؟

بمعنى أن لها تأثيرا فى مجال الحماية ، حتى ولو لم يعتقد المردد لها فى ذلك ؟

ــ أم أن المعتقد هو الذى يخلع عليها هذا اللباس ؟

فالأمر لا يعدو مجال الحالة النفسية ، التى تحيط بمن يعتقد فى قدسية النصوص ، ويعتقد نفسيا فى قدرتها على الحماية من الأخطار .

اختلف المهتمون بهذا المجال ، فتبلور هذا الاختلاف فى ثلاثة آراء رئيسية .

الأول : يرى أن للنصوص المقدسة خاصيه الحماية والتحصين ضد الأضرار ، حتى ولو لم يعتقد من يستعملها فى حمايتها . وليس هناك دليل مقنع على هذا الزعم .

الثانى : أن هذه النصوص تحمى من يعتقد فى قدسيتها وفاعليتها فى مجال الحماية من الأضرار ، وهذه الحماية ذاتية ! بمعنى أنها تقيم بحد ذاتها سياجا بين من يستخدمها ، معتقدا فى حمايتها ، وبين مصدر الضرر ، دون أن يقوم هو ــ أى المستخدم لها ــ بأى عمل مضاد لمصادر الضرر ، غير ترديدها ، أو

تعليقها فى محيط من — وما — يريد حمايته .

الثالث : أن تأثيرها نفسى فقط ، بمعنى أنها تبعث فى النفس الطمأنينة ، فتساعد بذلك مستخدمها فى مقاومة مصادر الضرر ، لأن الاطمئنان النفسى يمنحه قوة ، فيتماسك — نفسيا وجسمانيا — فى مواجهة من يريد به سوءا .

وفى ضوء هذا كله : نريد أن نبحث مفهوم التعوذ وأثره فى مجال الحسد ، كما ورد فى القرآن الكريم ، وبخاصة أن أسس الاعتقاد فى ضرر عين الحسود تعزى دائما إلى ما ورد فيه ، فدائما نسمع : (كيف تنكر الحسد وقد ورد فى القرآن الكريم! ويقصدون بذلك ما تحدثت عنه سور الفلق ، يقول الله تعالى :

﴿ قل أعوذ برب الفلق * من شر ما خلق * ومن شر غاسق إذا وقب * ومن شر النفاثات فى العقد * ومن شر حاسد إذا حسد ﴾

وملخص ما قاله المفسرون فى هذه السورة ما يلى :[1]

عنونها البخارى فى صحيحه : (سورة قل أعوذ برب الفلق) بإضافة سورة إلى أول جملة فيها .

وجاء فى كلام بعض الصحابة تسميتها مع سورة الناس : (المعوذتين) ... روى أبو داود ، والترمذى ، وأحمد عن عقبة بن عامر ، قال : (أمرنى رسول الله أن أقرأ بالمعوِّذات ، بكسر الواو المشددة ، وبصيغة الجمع ، بتأويل الآيات المعوذات ، أى آيات السورتين) وفى رواية : (بالمعوذتين فى دبر كل صلاة) .. ولم يذكر أحد من المفسرين أن الواحدة منهما تسمى : (المعوذة) بالإفراد . وقد سماها ابن عطية : سورة المعوذة الأولى .

وسميت فى أكثر المصاحف ، ومعظم كتب التفسير : (سورة الفلق) .

واختلف فيها : أمكية هى ، أم مدنية ؟ ، فقال جابر بن زيد ، والحسن ، وعطاء ، وعكرمة : مكية ، ورواه كريب عن ابن عباس . وقال قتادة : هى مدنية ، ورواه أبو صالح عن ابن عباس .

(١) ابن عاشور : جـ ٣٠ صـ ٦٢٣ — ٦٣٠

والأصح أنها مكية ، لأن رواية كريب عن ابن عباس مقبولة ، بخلاف رواية أبي صالح عن ابن عباس ، ففيها متكلم .

وقال الواحدى : قال المفسرون : إنها نزلت بسبب أن لبيد بن الأعصم سحر النبى — ﷺ —[1] وليس فى الصحاح أنها نزلت بهذا السبب ، وبنى صاحب الاتفاق عليه ترجيح أن السورة مدنية .

وقد قيل : إن سبب نزولها والسورة بعدها : أن قريشا ندبوا ، أى ندبوا من اشتهر بينهم أنه يصيب النبى — ﷺ — بعينه ، فأنزل الله المعوذتين ليتعوذ بهما منهم . ذكره الفخر الرازى عن سعيد بن المسيب .

وعدد آياتها خمس بالاتفاق .

واشتهر عن عبد الله بن مسعود فى الصحيح : أنه كان ينكر أن تكون (المعوذتان) من القرآن ويقول : إنما أمر رسول الله — ﷺ — أن يتعوذ بهما ، ولم يؤمر بأنهما من القرآن الكريم .

والغرض من تعليم النبى — ﷺ — كلمات للتعوذ بالله من شر ما يتقى

---

(١) قال الأستاذ الإمام ما خلاصته : قد رووا هاهنا أحاديث فى أن — النبى صلى الله عليه وسلم — سحره لبيد بن الأعصم ، وأثر سحره فيه حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء وهو لا يفعله ، أو يأتى شيئا وهو لا يأتيه ، وأن الله أنبأه بذلك ، وأخرجت مواد السحر من بئر ، وعوفى صلى الله عليه وسلم مما كان نزل به من ذلك ، ونزلت هذه السورة (المراغى : جـ ٣٠ — ٢٦٨) . وقد روى الحديث بنصه : قال : حدثنا إبراهيم بن موسى ، أخبرنا عيسى بن يونس ، عن هشام ، عن أبيه ، عن عائشة رضى الله عنها قالت : سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من بنى زريق يقال له : لبيد بن الأعصم ، حتى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخيل إليه أنه يفعل الشيء ، وما فعله ، حتى إذا كان ذات يوم أو ذات ليلة ، وهو عندى ، لكنه دعا ودعا ، ثم قال : ياعائشة : أشعَرتِ أن الله أفتانى فيما استفتيتنيه فيه ، أتانى رجلان ، فقعد أحدهما عند رأسي ، والآخر عند رجلى ، فقال أحدهما لصاحبه : ما وجع الرجل ؟ فقال : مطبوب ، قال : من طبه قال : لبيد بن الأعصم ، قال فى أى شيء ؟ قال : فى مُشْطِ ومُشَاطٍ وجُفِّ طَلْع نَخْلةٍ ذَكرٍ ، قال : وأين هو ؟ قال : فى بئر ذَرْوان ، فأتاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ناس من أصحابه ، فجاء ، فقال : ياعائشة ! كأن ماءها نُقاعَة الحِنَّاء،أو كأن رءوس نخلها رءوس الشياطين . قلت : يارسول الله ! أفلا أستخرجه ؟ قا : قد عافانى الله ، فكرهت أن أثور على الناس فيه شرا ، فأمر بها فدفنت.

شره من المخلوقات الشريرة ، والأوقات التى يكثر فيها حدوث الشر ، والأحوال التى يستر أفعال الشر من ورائها ، يُرمى فاعلوها بتبعاتها ، فعلَّم الله نبيه هذه المعوذة ليتعوذ بها ، وقد ثبت أن النبى ـــ ﷺ ـــ كان يتعوذ بهذه السورة وأختها ، ويأمر أصحابه بالتعوذ بهما ، فكان التعوذ بهما من سنة المسلمين .

﴿ قل أعوذ برب الفلق * من شر ما خلق ﴾

روى عن ابن مسعود أنه سأل النبى ـــ ﷺ ـــ عن المعوذتين ، فقال : « قيل لى : قل ! فقلت لكم ، فقولوا » ..

يريد بذلك المحافظة على هذه الألفاظ للتعوذ ، وإذ قد كانت من القرآن ، فالمحافظة على ألفاظها متعينة ، والتعوذ يحصل بمعناها ، وبألفاظها .

والعَوْذ : اللَّجَأُ إلى شىء يقى من يلجأ إليه مما يخافه ، يقال : عاذ بفلان وعاذ بحصن ، ويقال : استعاذ ، إذا سأل غيره أن يعيذه ، قال الله تعالى :

﴿ فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾[1] .

والفلق : الصبح ، وهو فعل ، بمعنى مفعول ، مثل الصمد ، لأن الليل شبه بشىء مغلق ينفلق عن الصبح . وحقيقة الفَلْق : الانشقاق عن باطن شىء ، واستعير لظهور الصبح بعد ظلمة الليل . وهذا مثل استعارة الإخراج لظهور النور بعد الظلام فى قوله تعالى :

﴿ وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ﴾[2] .

واستعارة السلخ له فى قوله تعالى :

﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ﴾[3] .

ورب الفلـــق :

هو الله ، لأنه الذى خلق أسباب ظهور الصبح ، وتخصيص وصف الله بأنه رب الفلق دون وصف آخر ، لأن شرا كثيرا يحدث فى الليل من لصوص

---

(١) سورة النحل الآية : ٩٨

(٢) سورة النازعات الآية : ٢٩

(٣) سورة يس الآية : ٣٧

وسباع ، وذوات سموم ، وتعذر السير ، وعسر النجدة ،وبُعْد الاستغاثة ، واشتداد آلام المرضى ، حتى ظن بعض أهل الضلالة الليل إلٰه الشر .

والمعنى : أعوذ بفالق الصبح ، مَنْجاةً من شرور الليل ، فإنه قادر على أن ينجينى فى الليل من الشر ، كما أنجى أهل الأرض كلهم بأن خلق لهم الصبح ، فوُصِفَ الله بالصفة التى فيها تمهيد للإجابة .

ومن شر غاسق إذا وقب :

عطف أشياء خاصة هى مما شمله عموم : (من شر ما خلق) ، وهى ثلاثة أنواع من الشرور :

أحدها : وقت يغلب وقوع الشر فيه ، وهو الليل ..

الثانى : صنف من الناس أقيمت صناعتهم على إرادة الشر بالغير ..

الثالث : صنف من الناس ذو خلق من شأنه أن يبعث على إلحاق الأذى بمن تعلق به .

وأعيدت كلمة : (من شر) بعد حرف العطف فى هذه الجملة ، وفى الجملتين المعطوفتين عليها ، مع أن حرف العطف مغن عن إعادة العامل ، قصدا لتأكيد الدعاء ، تعرضا للإجابة . وهذا من الابتهال ، فيناسبه الإطناب .

والغاسـق :

وصف الليل إذا اشتدت ظلمته ، يقال : غسق الليل يغسق ، إذا أظلم قال تعالى :

﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل ﴾[1] .

فالغاسق صفة لموصوف محذوف ، لظهوره من معنى وصفه مثل الجوارى فى قوله تعالى :

﴿ ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام ﴾[2] .

وتنكير « غاسق » للجنس ، لأن المراد جنس الليل ، وتنكير « غاسق » فى مقام الدعاء يراد به العموم ، لأن مقام الدعاء يناسب التعميم ، ومنه قول

---

(١) سورة الإسراء الآية : ٧٨

(٢) سورةالشورى الآية : ٣٢

الحريرى فى المقامة الخامسة : « يأهل ذا المعنى وقيتم ضرا » (أى وقيتم كلّ ضر).

والليل تكثر فيه حوادث السوء من اللصوص والسباع والهوام كما تقدم آنفا ، وتقييد ذلك بظرف (إذا وقب) أى إذا اشتدت ظلمته ،لأن ذلك وقت يتحينه الشطّار ، وأصحاب الدعارة ، والغَيْث ، لتحقيق غلبة الغفلة والنوم على الناس فيه .

ومعنى وقب : دخل وتغلغل فى الشيء ، ومنه الوقبة : اسم النقرة فى الصخرة يجتمع فيها الماء ، ووقبت الشمس غابت . خص بالتعوذ أشد أوقات الليل ، توقعا لحصول المكروه .

ومن شر النفاثات فى العقد :

هذا هو النوع الثانى من الأنواع الخاصة المعطوفة على العام من قوله : « من شر ما خلق » .. وعطف « شر النفاثات فى العقد » على شر الليل ، لأن الليل وقت يتحين فيه السحرة إجراء شعوذتهم ،لئلا يطلع عليهم أحد.

والنفث : نفخ مع تحريك اللسان بدون إخراج ريق ، فهو أقل من التفل ، يفعله السحرة ، إذا وضعوا علاج سحرهم فى شيء وعقدوا عليه عقداً ، ثم نفثوا عليها .

فالمراد بالنفاثات فى العقد : النساء الساحرات ، وإنما جيء بصيغة المؤنث ، لأن الغالب عند العرب أن يتعاطى السحرَ النساءُ ، لأن نساءهم لا شغل لهن بعد تهيئة لوازم الطعام والماء والنظافة ، فلذلك يكثر انكبابهن على مثل هاته السفاسف من السحر والتكهن ونحو ذلك . فالأوهام الباطلة تتفشى بينهن . وكان العرب يزعمون أن (الغول) ساحرة من الجن . وورد فى خبر هجرة الحبشة أن عمارة بن الوليد بن المغيرة اتُّهم بزوجة النجاشى ، وأن النجاشى دعا له السواحر ، فنفخن فى إحليله[1] فصار مسلوب العقل ، هائما على وجهه ، ولحق بالوحوش .

والعقد : جمع عقدة ، وهى ربط فى خيط ، أو وتر ، يزعم السحرة أن سحر المسحور يستمر مادامت تلك العقدة معقودة ، ولذلك يخافون من

(١) الإحليل : مجرى اللبن من الثدى ، وجمعه : أحاليل .

حلها ، فيدفنونها ، أو يخبئونها فى محل لا يهتدى إليه .

إنما جعلت الاستعاذة من النفاثات ، لا من النفث ، فلم يقل : إذا نفثن فى العقد ، **للإشارة إلى أن نفثهن فى العقد ليس بشىء يجلب ضرا بذاته ، وإنما يجلب الضر النفاثات ، وهن متعاطيات السحر ، لأن الساحر يحرص على أن لا يترك شيئا مما يحقق له ما يعمله لأجله إلا احتال على إيصاله إليه ، فربما وضع له فى طعامه أو شرابه عناصر مفسدة للعقل ،أو مهلكة بقصد ، أو بغير قصد ، أو قاذورات يفسد اختلاطها بالجسد بعض عناصر انتظام الجسم ، فيختل بها نشاط أعصابه أو إرادته ، وربما أغرى به من يغتاله ، أو يتجسس على أحواله ليُرِى لمن يسألونه السحر أن سحره لا يخطىء .**

ومن شر حاسد إذا حسد :

عطف شر الحاسد على شر الساحر المعطوف على شر الليل ، لمناسبة بينه وبين المعطوف عليه مباشرة ، وبينه وبين المعطوف عليه بواسطة ، فإن مما يدعو الحاسد إلى أذى المحسود أن يتطلب حصول أذاه ، لتوهم أن السحر يزيل النعمة التى حسده عليها ، ولأن ثوران وجدان الجسد يكثر فى وقت الليل ، لأن الليل وقت الخلوة ، وخطور الخواطر النفسية ، والتفكر فى الأحوال الخاصة بالحاسد وبالمحسود .

فالحسد : إحساس النفس مركب من استحسان نعمة فى الغير ، مع تمنى زوالها عنه ، لأجل غيرة على اختصاص الغير بتلك الحالة ، أو على مشاركته الحاسد فيها . وقد يطلق اسم الحسد على الغبطة مجازا .

وقد يغلب الحسد صبر الحاسد وأناته ، فيحمله على إيصال الأذى للمحسود ، بإتلاف أسباب نعمته ، أو إهلاكه رأسا . وقد كان الحسد أول أسباب الجنايات فى الدنيا ، إذ حسد أحد ابنى آدم أخاه على أن قُبِل قُربانه ، ولم يقبل قربان الآخر ، كما قصه الله تعالى فى سورة المائدة .

وتقييد الاستعاذة من شره بوقت : « إذا حسد » لأنه حينئذ **يندفع إلى عمل الشر بالمحسود** ، حين يجيش الحسد فى نفسه ، فتتحرك له الحيل ، والنوايا ، لإلحاق الضرر به .

ولما كان الحسد يستلزم كون المحسود فى حالة حسنة ، كثر فى كلام العرب الكناية عن السيد بالمحسود ، وبعكسه الكناية عن سيء الحال بالحاسد ، وعليه قول أبى الأسود :

حسدوا الفتى إن لم ينالوا سعيه فالقوم أعداء له وخصوم
كضرائر الحسناء قُلْنَ لوجهها حَسَدًا وبغضًا إنه لَمَشُوم

وقول بشار بن برد :

إن يحسدونى فإنّى غيرُ لائمهم قَبْلي من النَّاسِ أهْلُ الفضْلِ قَدْ حُسِدُوا
فَدَامَ لِي وَلَهمْ ما بِي وَمَا بِهِمُ وماتَ أكثَرنا غيْظاً بما يَجِدُوا

يلاحظ أننا نقلنا تفسير هذه السورة عن ابن عاشور ، لأنه من أحدث المفسرين ، وقد جمع فى تفسيره مجمل ما قاله السابقون فى هذه السورة ، لكننا أعرضنا عن الروايات التى توحى بأحداث يناقض مفهومها مبادىء أساسية فى الإسلام ، فبعضها يوحى بعجز الله عن حماية نبيه مما يدعيه السحرة والدجالون من قدرتهم إلحاق الضرر بالآخرين ، كقصة لبيد بن الأعصم اليهودى وسحره للنبى ـ ﷺ ـ لدرجة أنه لبث ستة أشهر يعانى مما أصابه[1] من مرض ، وكتفسيرهم للفلق بأنه بيت فى جهنم .. وغير ذلك من التأويلات التى تبدو بعيدة عن مفهوم النص القرآنى ..

والبعض الآخر يعبر عن إفرازات فكرية لثقافة عصرهم ، التى تختلف فى كثير من جوانبها عن ثقافة القرن العشرين ، بما تحمله من نتائج البحوث التجريبية فى آفاق الكون والإنسان ، وبخاصة ما يتعلق بالكشف عن أسباب وعلل كثير من الظواهر الغامضة ، التى كان الإنسان يعزوها إلى تصورات أثبت العلم خطأها .

فثقافة ابن القرن العشرين تختلف اختلافا كليا عن ثقافة أجداده ، مما جعله يفسر كثيرا من نصوص معتقداته على نحو يختلف عن تفسيرات السابقين ، ومن ذلك ما نلاحظه فى مفهوم الحسد الذى ورد فى هذه السورة ، وكذلك مفهوم التعوذ الذى أمر الله به ، فلو حاولنا فهم سورة الفلق من خلال ثقافة عصرنا ، لجاء تفسيرها على النحو التالى :

---

(١) وإن كنا أثبتناها فى الهامش لنبين ضعف روايتها .

الاستعاذة فى السورة من أربعة شرور :

الأول : عام (من شر ما خلق) ، أى أن الاستعاذة من كل شىء يكمن الشر فيه ، أو يمكن أن ينتج عنه شر . ولهذا جاء التعبير بـ « ما » وهى « نكرة » عامة[1] ، ويلاحظ هنا أن الاستعاذة من شىء وليس من شخص . ويمكن أن يقال : إن الاستعاذة هنا من الفعل نفسه .

الثانى : ظرف زمان ، وهو الليل إذا اشتدت ظلمته :

« ومن شر غاسق إذا وقب » أى أن الاستعاذة من ذلك الوقت الذى يخفى الشر ومصادره ومساره . ومعلوم أن الخطر يكون كبيرا ، عندما يعجز الإنسان عن استكشاف مكامنه ، لأنه فى هذه الحالة يفاجأ به ، فلا يترك له فرصة لتجنبه ، أو التخفيف من وطأته .

الثالث : الاستعاذة من التخطيط والتدبير للشر :

« ومن شر النفاثات فى العقد » وجاء التعبير عنها بجمع المؤنث السالم ، لأن التدبير ــ غالبا ــ تقوم به جماعات ، إذ من المعلوم أن من يقصد إلحاق الأذى بآخر ، فانه يستعين فى غالب الأحوال بمن يساعده ، سواء فى رسم مسار تنفيذ الجريمة ، أو فى الاشتراك فى التنفيذ .

وجاء التعبير عن هذه الخطط بالنفث فى العقد كناية عن السرية ، فصوت المتآمرين لا يعلو ، بل يكون همسا ، فهم يحرصون على عدم تسرب الخبر إلى الغير ، حتى لا يفضح مخططهم ، فيعجزون عن التنفيذ .

ويجوز أن يكون المراد بـ « النفاثات فى العقد » المحرضين على ارتكاب الشرور والآثام فى حق الغير ، إذ نجد فى حياتنا من يمشى بين الناس بالنميمة ليوقع بينهم ، ومن يحرض الحاسد على الانتقام من المحسود ، فتراهم يوغرون صدر القرين على قرينه لتفوقه عليه ، والأخ على أخيه لتميزه عنه ، إنْ فى حب الوالدين له ، أو فى مكانته الاقتصادية والاجتماعية .

ويكون المقصود بجمع المؤنث هنا أيضا : أن من يقوم بهذا العمل جماعات ، أو نساء ، على اعتبار أنهن يتخذن فى الغالب كسلاح للإيقاع بين الناس ، أو لحمل أحدهم على إلحاق الضرر بآخر .

(١) لا يخرجها عن عموميتها كونها ــ حسب القواعد اللغوية ــ اسم موصول ، وهو معرف .

ومما لا شك فيه أن هذا العمل يُقَطِّع الروابط بين الناس ، فتفسد العلاقات الاجتماعية ، وتتفكك حيث يتربص كلٌّ بالآخر ويُمَزِّق وشائج صلة الأرحام ، فيقضى على التماسك بين أفراد الأسرة ، إذ يكيد كُلٌّ للآخر . وهو ما عبر عنه بالنَّفث فى العقد ، أى ما كان معقودا بين الناس من روابط أخوية ، وصلات إنسانية تَعرَّض للتمزق والتهتك من جرَّاء ما ينفث فيه من سموم الحقد والكراهية ، وأسلحة المؤامرات التى تقطع كل ما من شأنه أن يمسك الجماعة فى عقد متماسك ، ويحافظ على الوحده الكلية ، سواء فى داخل الأسرة أو فى محيط المجتمع .

الرابع : الاستعاذة من الحسد وهو أقل الشرور الأربعة ، إذ هو إحساس نفسى ، ولذا جاء فى المرتبة الأخيرة ، وطلب التعوذ منه ، لأنه السبب الدافع إلى كل ما سبق ، فلو لم يوجد فى الإنسان ، ما تحرك إلى التدبير والتخطيط لإضرار المحسود ، ثم تنفيذ ما خططه ودبره .

ومن هنا نلاحظ : أن ترتيب الاستعاذة روعى فيه التفاوت فى درجة الخطر من المعوَّذ منه ، فما أكثرها خطورة لكونه ملاصقا للمتعوذ ، كعملية التنفيذ ، تعوذ منه أولا ، وما كان مساعدا على التنفيذ ، كالسواتر التى تخفى المنفذين عن الأعين ، جاء فى المرتبة الثانية ، ثم التدبير ، وأخيرا يأتى التعوذ من الباعث على هذا كله ، ألا وهو الحسد .

فائدة التعـــوذ

لو اقتصر الإنسان على التعوذ فقط ، فهل يحصنه ترديد هذه الكلمات من خطر الحسد ، فلا يصل إلى المحسود شىء من خطر الحاسد .

قطعا ، لا ... لأن هذه الكلمات ليست سلاحا للحماية !!!

إذن : لماذا أمر الله الإنسان بأن يرددها فى مجال طلب الحماية مما يضره ؟

لسببين :

الأول : أنها تخلق جواً روحيا حول الإنسان ، فتحول بينه وبين الاستغراق فى المجالات المادية ، لأن البعد عن الله يُحوِّل القلب إلى التشبع بالماديات ، فيقسو ، ويتحجر وربما قاده ذلك إلى الكفر بالله ، فهى وسيلة لربط الإنسان بالدين ، وتذكيره بالله ، وحمله على تصفية نفسه ، وتنقية روحه ، فلا ينسى الواجب الذى فرضه الله عليه فى حق نفسه ، وحق أسرته ، ولا يهمل فيما أوجبه الله إزاء مجتمعه وأمته .

الثانى : أن لها تأثيرا كبيرا على النفس ، إذ يطمئن المرء ، ويشعر بالأمان ، عندما يحس أنه يلجأ إلى من يحميه من كل ضرر فتسكن نفسه ، وتهدأ أعصابه .

ومما لا شك فيه أن من تهدأ نفسه أكثر قدرة على مقاومة الشرور والأضرار ممن توترت أعصابه ، واضطربت أنفاسه ، فالجسم المنهوك نفسيا وعصبيا يصبح فريسة للهواجس والأوهام ، فهو لا يقوى على مقاومة ، ولا يصمد أمام سهام عدو ، حتى وإن كان ذلك مجرد خيالات وأوهام ، إذ لا ينكر أحد أثر الحرب النفسية على من لم يتحصنوا ضدها .

وليس هنا أدنى معارضة لفاعلية الإيهام على من عنده استعداد نفسى لتصديق الخرافات والأساطير ، فالناس يختلفون نفسيا فى الاستعداد للتلقى ، ويتفاوتون فى درجة التأثير بما تحمله الأقاصيص ، والحكايات من الأوهام والخرافات .

ومن هنا يُقَوِّى التعوذ ضعاف النفوس فى مواجهة ما يتوهمونه من أخطار ، فلو كان هناك خطر حقيقى ، فلن يدفعه التعوذ ، وإنما يكون عاملا نفسيا مساعدا يمد الهدف بقوة معنوية تساعده على التغلب على عدوه فى ساحة المقاومة . .

وعليه فمن لم يعتقد فى ضرر عين العائن للمعيون ،فالتعويذ يفيده من ناحية ربطه بخالقه ، فيقوى الجانب الروحى عنده ، ويتخلص من

سيطرة الجانب المادى ، وبذلك يستقيم سلوكه فى جميع جوانب الحياة المختلفة .

ومن اعتقد فى ضرر عين العائن للمعيون ، أمده التعوذ بقوة نفسية تساعده على التماسك داخليا ، فيقوى على مواجهة من يريده بسوء ، ولن يُدْفَع عنه هذا السوء إلا إذا أضيف إلى التعوذ عمل إيجابى ، فإن اقتصر على التعوذ فقط ، دون أدنى تحرك نحو حماية نفسه ممن يريده بسوء ، فهيهات أن ينفعه هذا التعوذ فى دفع الأذى عن نفسه .

* * *

خاتمــــــة :

يرى علماء الأديان أن الأساطير ظاهرة ضرورية فى المجتمعات الدينية ، إذ لا يوجد مجتمع متدين ، دون أن يعتقد كثير من أفراده فى سلسلة من الأساطير ، التى تغطى جميع مناحى الحياة ، لأن الكثرة الغالبة من المتدينين هم من متوسطى الثقافة ، أو أقل ، فليس لديهم من قوة العقل ، وارتقاء الفكر ما يمكنهم من فهم مبادىء الدين وتعاليمه بصورة مجردة ، فهم يحتاجون إلى ما يفسر لهم النصوص الدينية على نحو يقربها من عقولهم ، ويبسطها بصورة تتناسب مع درجة ذكائهم ومستوى فكرهم .

ومن هنا قامت التعاليم الدينية لدى الشعوب البدائية على أساطير ، إذ لا يوجد مبدأ من المبادىء إلا وقد جُسِّم فى أسطورة تحكى ما ينبغى على المرء عمله طبقا لهذه المبادىء ، أو تحذر من ارتكاب عمل ما ، وإلا أصاب مقترف هذا العمل ما أصاب بطل الأسطورة ، من كوارث ومصائب قد تصل إلى حد الموت ، أو تحويله إلى شكل من أشكال الحيوانات ، كالقردة ، والخنازير ، وغيرها مما ينفر المتدين من هذه الصورة ، فيمتثل للأوامر الدينية ، حتى لا يلقى مثل هذا المصير .

ومن النادر أن نجد لدى الشعوب البدائية توجيها نحو الخير ، أو تنفيرا من الشر قائما على مخاطبة العقل ، وبيان ما يترتب على العمل من آثار صالحة للفرد والمجتمع ، أو يشرح السلبيات التى قد تصيب الحياة بالدمار والهلاك ، لو سلك الناس هذا المسلك ، أو اندفعوا وراء هذا العمل أو ذاك ، لأن طبيعة المجتمع البدائى تستلزم وجود الأساطير لتقريب التعاليم إلى الأذهان ، وتوضيحها على نحو يحقق الهدف من

وجود الدين ، ألا وهو استقامة الأفراد ، وصلاح المجتمع ، يقول ول ديورانت :

« .. وأدرك أنه — أى يوليان ، الامبراطور الرومانى المتفلسف — مامن دين يأمل أن يستميل إليه النفس البشرية العادية ، ويحركها ، إلا إذا خلع على مبادئه الأخلاقية غلالة من خوارق العادات ، والقصص ، والطقوس التى تبهر العقول ، ولشد ما تأثر بقدم الأساطير ، وبانتشارها بين أمم العالم أجمع »[1] .

نعم ، لقد انتشرت الأساطير بين كل الأمم والشعوب ، وسيطرت على التوجيه فى كل أنحاء المعمورة .. بل إنها من أقدم الظواهر — إن لم تكن أقدمها على الإطلاق — انتشارا فى المجتمعات الإنسانية ، على اختلاف ثقافتها ، وتنوع حضارتها ، وتباين عقائدها ، فلا يوجد شعب بدون أساطير ، تعبر عن ثقافته ، وتجسم مبادىء عقيدته وأحكام دينه ، ولهذا سيطرت الأساطير على العقول والأفهام ، بحيث لم تستطع التخلص منها على الإطلاق ، إذ على الرغم من التقدم فى مجال العقائد والأديان ، من ناحية وضوح النصوص المقدسة ، وتخلصها من كثير من التعبيرات التى توهم بالأوهام والخرافات ، وبعدها عن كل ما من شأنه أن يمد هذه الظاهرة بما يساعدها على الانتشار ، أو التمكين فى المجتمع ، فقد ظلت الأساطير منتشرة بين الجنس البشرى ، بل ازداد انتشارها ، وتنوعت أساليب مروجيها ، وخاصة فى عصور الأزمات والكوارث ، وبين الطبقات التى غُيبّت عقول أفرادها بأى شكل من الأشكال ، تحت تأثير اتجاهات فكرية متعددة الأهداف ، ومختلفة المصادر والاتجاهات .

فلو تتبعنا تاريخ الجنس البشرى ، لوجدنا أن الإنسان ظل خاضعا فى جميع مراحل تطوره لما تمليه عليه الأساطير ، بل إنها من أقوى المؤثرات على نفسية الإنسان فى جميع العصور ، فلم تفقد شيئا من جوانب تأثيرها ، ولم تضعف سيطرتها على توجيه السلوك فى المجتمعات ، إلا فى فترات بداية الدعوات الدينية ، إذ كان الرسل والدعاة يركزون على توجيه الناس إلى الإيمان بعيدا — إلى حد ما — عن الاستغراق فى سرد الأساطير ، بل كانت الجهود موجهة إلى

(١) جـ ١٢ صـ ٣٦

إصلاح المجتمع عن طريق ربط أفراده بالمعبود ، دون الدخول كلية فى عالم الأساطير ، حتى لا تضيع معالم العقيدة فى مجال الأوهام ، ومتاهات التخيلات ، وسراديب التصورات البعيدة عن أرض الواقع الذى تعيشه المجتمعات .. إلى أن أرسل الله محمدا (ﷺ) ، فخلصت دعوته كلية من كل ما يمت إلى الأسطورة بصلة ، إذ جاء القرآن الكريم ـــ على عكس الكتب السابقة ـــ خاليا من الأساطير ، بل إنه رد على من يتهمه بذلك بأنه من لدن العزيز الحكيم :

﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا * قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض .... ﴾[(1)] .

غير أن تأثير الثقافات المنحدرة من العصور البدائية على الشعوب التى انتشر الإسلام فيها كان قويا ، لدرجة أنها لم تستطع التخلص منها كلية ، فبرزت فى الفكر الإسلامى بصور شتى ، ونماذج مختلفة تحت مظلة إسلامية ، فبدت وكأنها إسلامية بحتة ، أو حصلت على جواز سفر إسلامى للدخول إلى قلوب المتدينين وعقولهم ، والسيطرة على سلوكهم فى جميع مناحى الحياة .

ومن هنا نجد كثيرا من المسلمين يعتقدون فى العديد من الظواهر البدائية : كتصديق ألاعيب السحرة ، وقراءة الطالع ، وقدرة عين العائن على إلحاق الضرر بالمعيون ،.. وغير ذلك مما حوته أساطير الشعوب البدائية من خرافات وأوهام ، أثبتت التجارب العلمية كنهها ، وكشفت عن أسبابها ، سواء كانت تلك الأسباب مادية أو معنوية ..

ومن العجيب أن المؤمنين بهذه الظواهر أجهدوا أنفسهم فى البحث عن آية قرآنية تؤيد اتجاههم ، بتفسيرها على نحوٍ ، بدا مقنعاً لمن لم يرزقه الله الفقه فى الدين ، وعلم التأويل السليم ، فإذا لم يجدوا ما يبتغون فى القرآن الكريم ، وضعوا أحاديث نسبوها إلى النبى ﷺ ، لتبرير اعتقادهم فى تلك الأساطير .

لم يكن هذا الاتجاه ظاهرة استثنائية ، اختصت بها الشعوب الإسلامية ، بل هى من القواعد العامة فى مجال المعتقدات على امتداد التاريخ الإنسانى فى

---

(١) سورة الفرقان الآيتان : ٥ ـــ ٦

جميع العصور ، وبين مختلف الأجناس والأعراق ، إذ ما من دين ظهر على وجه الأرض ، إلا وتسرب إليه عدد من الأساطير والخرافات ، عن طريق بعض من حملوا تعاليمه ، وتصدروا قافلة الدعوة إليه ، فتطرق التشويه إلى مبادئه وتغلغل فى سلوكيات المتدينين على اختلاف طبقاتهم ، وتنوع ثقافتهم . ولم يكن رجال الدين هم الذين أفسدوا الشعب فى هذه الأمور ، بل إن الشعب هو الذى أقنع رجال الدين بما يريد ، ذلك أن روح الرجل الساذج لا تتأثر إلا عن طريق الحواس والخيال ، والحفلات والمعجزات والأساطير والخوف والأمل ، فإذا خلا الدين من هذا كله ، رفضه ، أو عدَّله حتى يُدْخله فيه . ولقد كان من الطبيعى أن يلجأ الشعب الخائف الذى تحيط به الحرب ، والخراب ، والفقر ، والمرض ، إلى الأضرحة ، والكنائس الصغرى والكبرى ، وإلى الأضواء الخفية ، ونغمات الأجراس المطربة ، وإلى المواكب ، والأعياد والطقوس الممتعة ، ليجد فيها سلواه(١) .

هذه هى طبيعة الشعوب ، لا تهدأ نفوس أفرادها ، ولا تستقر عواطفهم ، إلا عن طريق سماع القصص الغامضة ، فى أحداثها بما فيها من إغراق فى الخيال ، يبعدهم عن واقعهم المؤلم ، فيستسلمون لما يُغَيِّب عقولهم فى البحث عن حل لمشاكل حياتهم ، ويركنون إلى الأوهام والخرافات ، لأنها تريحهم بحلول واهية لهذه المشاكل ، فيستكينون لها بغية الراحة من آلام البحث والتنقيب ، واستشرافا لحلول سحرية ، تقضى على مصادر آلامهم ، وتُقدِّم لهم كل ما يساعدهم على العيش فى أمن واطمئنان ، وسعادة ورخاء(٢) .

---

(١) ول ديوارنت جـ ١٢ صـ ٣٦

(٢) صور ابن طفيل هذه الظاهرة الاجتماعية فى قصة حى بن يقظان وخلاصتها : أن حى بن يقظان ــ الذي سميت القصة باسمه ــ أُلقي وهو طفل فى جزيرة خالية من السكان ، فأرضعته عنزة ، وشب الفتى متوقد الذكاء ، عظيم المهارة ، فكان يصنع حذاءه وأثوابه بنفسه من جلود الحيوان ، ودرس النجوم ، وشرَّح الحيوانات حية وميتة ، حتى وصل فى هذا النوع من المعرفة إلى أرق ما وصل إليه أعظم المشتغلين بعلم الأحياء ، ثم انتقل من العلوم الطبيعية إلى الفلسفة وعلوم الدين ، وأثبت لنفسه وجود خالق ، قادر على كل شيء ، ثم عاش معيشة الزهاد ، وحرم على نفسه أكل اللحوم واستطاع أن يتصل اتصالا روحيا بالعقل الفعال ، وأصبح حَيٌّ بعد أن بلغ التاسعة والأربعين من العمر متأهبا لتعليم غيره من الناس ، وكان من حسن=

إذا كانت هذه هى طبيعة الشعوب التى استجاب لها رجال الدين ، فشوهوا التعاليم الدينية بما يرضى العامة .

فهل يسلم المرء بوجود هذه الظاهرة فى المجتمع الإسلامى ؟

وإذا حدث هذا اعتمادا على عدم إمكانية التخلص من ظاهرة تكاد يكون وجودها فى المجتمعات الإنسانية ضربة لازب ،

فهل يكون من الطبيعى أن تظهر فى المجتمعات الإسلامية بنفس الصورة والهيئة التى ظهرت بها فى المجتمعات غير الإسلامية ؟

إذا قارنا النصوص الدينية فى الإسلام (وهى القرآن الكريم) بما يقابلها فى الأديان الأخرى فى هذا المجال ، لتبين لنا أن للقرآن الكريم خصائص لا تُحصَى ، تمنع ظهور مثل هذه الخرافات بين المسلمين ، منها على سبيل المثال لا الحصر :

ــ خلوه من الأساطير على النحو الذى ظهر فى الكتب المقدسة الأخرى .
ــ تركيزه على الجانب العقلى .
ــ حثه المسلمين على البحث عن أسباب الظواهر المادية .
ــ استنكاره الركون إلى معلوم يرتكز على الظن والتخمين ، وهوى النفوس :

=الحظ أن متصوفا يدعى « أسال » استطاع فى سعيه إلى الوحدة أن يلقى بنفسه على الجزيرة، فالتقى بحى ، وكان هذا أول معرفة له بوجود بنى الإنسان ، وعلمه ، « أسال » لغة الكلام ، وسره أن يجد : أنَّ حيا قد وصل دون معونة أحد إلى معرفة الله ، وأقر لحىّ بما فى عقائد الناس الدينية فى الأرض التى جاء منها من غلظة وخشونة ، وأظهر له أسفه على أن الناس لم يصلوا إلى قليل من الأخلاق الطيبة ، إلا بما وعدوا به من نعيم الجنة ، وما أنذروا به عن عقاب النار ، واعتزم حىّ أن يغادر جزيرته ، ليهدى ذلك الشعب الجاهل إلى دين أرقى من دينهم ، وأكثر منه فلسفة ، فلما وصل إليهم أخذ يدعوهم فى السوق العامة إلى دينه الجديد ، لكن الناس انصرفوا عنه ، أو لم يفهموا أقواله ، **وأدرك أن الناس لا يتعلمون النظام الاجتماعى ، إلا إذا مزج الدين بالأساطير والمعجزات** والمراسيم والعقاب ، والثواب الإلـٰهين ، ثم ندم على إقحام نفسه فيما لا يعنيه ، وعاد إلى جزيرته ، وعاش مع « أسال » يرافق الحيوانات الوديعة ، والعقل الفعال ، وظلا على هذه الحال يعبدان الله حتى الممات .

﴿ قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن ﴾[1] .

﴿ إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ﴾[2] .

﴿ وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا ﴾[3] .

ــ طلبه الدليل المنطقى ، والبرهان الواضح على صحة الدعاوى والقضايا الفكرية فى أى مجال من مجالات الحياة ، وإلا أصبحت الدعوى فرضا هلاميا ، وتصورا نفسيا ، لا يسندها دليل ، ولا يدعمها منطق :

﴿ تلك أمانيُّهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾[4] .

ولهذا رفض المسلمون الأوائل أساطير الشعوب ، واستنكروا كل ما يتنافى مع العقل والمنطق ، فكان إنتاجهم الفكرى ــ فى معظمه ــ متمشيا مع روح القرآن الكريم ، وخاضعا لتوجهات المبادىء التى عالجت النفس الإنسانية ، فطهرتها من شوائب الأساطير التى تُغَيِّب العقول ، وتفت فى عضد النشاط الإنسانى ، فتجعله يركن إلى أمانى هلامية ، وتصورات خيالية ، بعيدة عن الواقع ، وخارجة عن إطار معطيات الحياة ، ومقتضيات سنن الكون الطبيعية والإنسانية ، كما أبعدتها عن الخرافات التى تخدر الشعوب ، بما توحيه إلى الأفراد من مسلمات تحولهم إلى هياكل بشرية ، لا تملك القدرة على الإسهام فى الحياة ، فضلا عن التأثير فى توجيهها ، ودفع عجلة التقدم فى مجتمعاتها لتلحق بركب الحضارة ، وتسير فى موكب التطور ، مما جعل المسلم ــ بفضل هذه المبادىء الإسلامية الصافية من شوائب الخرافات ــ يلحق بالحضارة ، التى كانت بعيدة عنه فكريا ونفسيا ــ قبل ظهور الإسلام ــ ومتوارية عنه زمانا ومكانا ، إذ كان سلبيا قبل الإسلام اعتمادا على ما صورته له الأساطير من معجزات ، تهبط عليه من السماء ، وكان متواكلا استنادا إلى اتجاه فكرى آسن ، من طول ركوده ، أخافه من الاعتماد على النفس ، وألقى فى قلبه الرعب من البحث عن أسباب ما يحيط به من ظواهر مادية وغير مادية .

---

(١) سورة الأنعام الآية : ١٤٨

(٢) سورة النجم الآية : ٢٣

(٣) سورة النجم الآية : ٢٨

(٤) سورة البقرة الآية : ١١١

غير أن النفس الإنسانية المولعة بالخرافات والأساطير لم تتحرر كلية من طبيعتها ، ولم تبعد كثيرا عن هذا العالم الملىء بالغموض والألغاز ، فرجعت رويدا رويداً إلى ما كان عليه الآباء والأجداد من تصديق لأحداث متخيلة ، وأشكال لا علاقة لها بالواقع ، واعتقاد فى مقولات لا تمت إلى العقل بصلة ، وليس بينها وبين المنطق رباط ، ولا تعتمد على دليل قاطع من القرآن الكريم ، اللهم إلا ما قام به بعض علماء الدين ــ تحت ضغط اتجاه العامة ــ من محاولة الربط بين هذه الظواهر ، وبين بعض نصوص القرآن التى تؤيد هذا الاتجاه ، إذا فسرت تفسيرا سطحيا .

ومما لا شك فيه أن هذه هى طبيعة الفكر الدينى فى جميع الأديان إذ إنها ــ أى الأديان ــ مهما يكن من نبل أصولها ، لا تلبث أن تحشر فيها طائفة من الخرافات ، لا صلة بينها وبين مبادئها الأولى ، وأنها تنشأ ــ أى الخرافات ــ بطبيعتها من العقول التى خيم عليها ، وأنهكها تعب الجسم ، ورهبة الروح فى كفاحها للخلود ، فتركن إلى الإيمان بالسحر إيمانا مطلقا ، بحيث لا يتطرق إليها الشك فى قدرة السحرة على التنبؤ بالغيب ، والكشف عن الكنوز المخبوءة ، وغرس الحب فى النفوس ، وتعذيب الأعداء ، وشفاء المريض، واتقاء الحسد[1] . لكن لم تتطور هذه الظاهرة فى المجتمع الإسلامى إلى

(١) ومن الناس من يعتقد ــ تحت تأثير الخرافات والأساطير ــ (فى قدرة البعض على مسخ الإنسان إلى حيوان ، أو نبات ، أو الانتقال من مكان إلى مكان بوسائل معجزة خارقة . وتلك العقائد هى المحور الذى تدور عليه قصص ألف ليلة وليلة ، ففيها ترى الأرواح فى كل مكان تحتال بضروب السحر وغيره على الأحياء ، وتستولد النساء غير الحريصات مالا يشتهين من الأبناء ، ويلبس معظم المسلمين ، كما يلبس نصف المسيحيين تمائم ، لترد عنهم ضروبا مختلفة من الشرور ، ويعتقدون أن من الأيام ما هو سعد ، ومنها ما هو نحس ، وأن الأحلام قد تنبىء عن المستقبل ، وأن الله قد يتحدث إلى الإنسان فى الأحلام . ويؤمن العامة فى مختلف بلاد الإسلام كما يؤمن أمثالهم فى مختلف البلاد المسيحية ، بالتنجيم ، فقد رسمت خرائط للسماء ، ولم يكن الغرض من رسمها مقصورا على معرفة اتجاه القبلة فى المساجد ، وتحديد أيام الأعياد الدينية ، بل كان يقصد منه فوق هذا وذاك اختيار الوقت المناسب لكل عمل خطير ، ومعرفة طالع كل فرد ، أى خلقه ، ومصيره ، كما تدل عليه النجوم التى كانت فى السماء وقت مولده) (ول ديورانت جـ ٣٣ صـ ١٢٨ ــ ١٢٩) .

الحد الذى تطورت إليه فى المجتمعات الدينية الأخرى : من اعتداء على النصوص المقدسة :
ـــ بمحوهـــا .
ـــ أو تحريفها وتغييرها .

بل ظلت فى دائرة تفسير القرآن الكريم ، ووضع بعض الأحاديث النبوية ، التى تؤيد هذا الاتجاه ، أو ذاك ، مما جعل إمكانية تصحيح مسار الفكر الإسلامى متاحة ، إذ مادام النص سليما ، لم يحرف ، ولم يدخله تغيير بالحذف أو الإضافة ، فإن التخلص من الخرافات والأساطير يصبح ممكنا ، لو رزق الله المجتمع أناسا يتمتعون بالفهم السليم ، والفكر الناضج ، والنظرة الثاقبة ، ويتخلصون من غريزة التطلع إلى الجاه والسلطان التى تجبرهم على إرضاء العامة ، واستقطاب الجماهير ، لأن طبيعة المجتمعات البشرية ، وتركيب أفرادها النفسية والروحية ، تحول ـــ فى الغالب الأعم ـــ دون اجتماع ظاهرتين فى شخص واحد ، وهما :
ـــ الإسهام جديا فى تصحيح ماعوج من المبادىء التى تقوم عليها حياة الناس ، وتقويم ما انحرف من سلوكهم ، مع الحصول على تأييد العامة له ، والتفافهم حوله .

لأن حمله لواء الإصلاح ، ونشاطه فى مجال توضيح ماهم عليه من أخطاء ، يجعله بمثابة الوالد الذى يؤدب ابنه العاق بعقاب أليم ، لا يرى منه بُدّاً ، لتقويمه وإصلاحه .

أو يصبح كطبيب يجبر مريضه الرافض للعلاج على تجرع الدواء المر ، وقديما قال الشاعر :

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما فليقس أحيانا على من يرحم

فمن يريد الإصلاح فى أى مجال من مجالات الحياة فى المجتمع ، فلا ينبغى أن يترك زمام توجيهه للعامة ، لأنه لو فعل ذلك لتحول عمله إلى :
ـــ تثبيت للانحراف بدل تقويمه ،
ـــ وإضفاء الشرعية على ما يضعف المجتمع ، بدل أن يسهم فى إرساء

دعائم تقويمه .

ــ وتبرير للظواهر التى تفرخ السلبية ، وتتسبب فى التخلف فكريا واجتماعيا .

فتتضاعف بذلك عوامل التجهيل والتعمية ، وتنتشر دعاوى تغييب العقل على اختلاف أشكالها وألوانها ، وتعدد مصادرها وأهدافها .

فأحيانا تأخذ ثوب الاستغراق فى الروحانيات ، مع رفض عالم المادة بجميع جوانبه ، وهذا هو ما ساد فى المجتمع الإسلامى منذ تَدَهْور الفكر ، وانحطاط الثقافة بعد القرن الرابع الهجرى .

وأحيانا أخرى تتلفع بغلالة براقة :

ــ تبهر العامة ، وتضحك الخاصة ، من فرط ما يعتصرهم من الحزن والألم على ما آلت إليه أحوال كثير من حملة الفكر ، وانحدرت إليه أوضاع الدعاة ، ومن يتصدرون ركب الإصلاح .

ــ تؤجج المشاعر الدينية ، وتقلق عقول المفكرين الجادين ، لأنهم يرون أنها سلبيات مدمرة على المدى البعيد .

ــ تلهب مشاعر المؤمنين ، وتخدر عقول الباحثين .

ــ توقظ الأفئدة ، وتُغيِّب العقول .

وهذا هو السائد الآن فى المجتمع الاسلامى :

دعاوى براقة ، دون مضمون سليم ، ينير العقل ، ويرسم منهجا سليما يدفع المسلم إلى التفكير فيما حوله من ظواهر ، للبحث عن أسبابها ، حتى يقضى على ما ينسج حوله من أساطير وخرافات ، لازالت تفت فى عضد المسلمين .. فقضت على حيويتهم باستكانتهم لأوهام ، وركونهم إلى أمانى تاركين مجال العمل لغيرهم فسقطوا فى قاع سحيق ، حيث التخلف والتبعية .

وذلك ما دفعنا إلى البحث فى ظاهرة الحسد ، إسهاما منا فى تصحيح مسار الفكر ، وتنقيته مما يعوق المجتمع عن النهوض ، حتى يلحق بركب الحضارة الإنسانية ، ويأخذ مكانه بين المجتمعات التى سبقته ، يوم أن تخلصت إلى حد كبير من الخرافات والأساطير التى أعاقت الإنسان عن التقدم ، ومنعته

من الانطلاق ، بحثا فى آفاق الكون والإنسان ، يقول الله تعالى :

﴿ قل انظروا ماذا فى السماوات والأرض ﴾

﴿ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ﴾

﴿ فلينظر الإنسان مم خلق ﴾

صدق الله العظيـــم

المراجـــــع

١ ـــ القرآن الكريم .

٢ ـــ العهد القديم .

٣ ـــ العهد الجديد .

٤ ـــ التلمود .

٥ ـــ الآمدى (على بن محمد بن سالم التغلبى ، أبو الحسن سيف الدين / توفى ٦٣١هـ ـــ ١٢٣٣م) :
الإحكام فى أصول الأحكام ـــ بيروت ١٤٠٠هـ ـــ ١٩٨٠م .

٦ ـــ ابن الأثير (على بن محمد الجزرى ، أبو الحسن عزِ الدين / توفى ٦٣٠هـ ـــ١٢٣٢م) :
أسد الغابة فى معرفة الصحابة ـــ الشعب ، القاهرة ١٩٧٠م .

٧ ـــ ابن تيمية (أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبى القاسم ، النميرى ، الحرانى ، الدمشقى ، الحنبلى ، أبو عباس ، تقى الدين / توفى ٧٢٨هـ ـــ ١٣٢٨م) :
أمراض القلوب وشفاؤها ـــ تحقيق : أبو عبد الله محمد بن إمام ، طنطا ١٩٨٦م .

٨ ـــ ابن حجر العسقلانى (أحمد بن على بن محمد الكنانى ، أبو الفضل ، شهاب الدين / توفى ٨٥٢هـ ـــ ١٤٤٩م) :
ـ الإصابة فى تمييز الصحابة ـــ مطبعة السعادة ، القاهرة ١٣٢٨هـ .
ـ تقريب التهذيب ، تحقيق : عبد الوهاب عبد اللطيف ـــ دار المعرفة ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٣٩٥هـ ـــ ١٩٧٥م .

٩ ـــ ابن حمادى (صالح) :
دراسات فى الأساطير والمعتقدات الغيبية ـــ تونس ١٩٨٣م .

١٠ ــ ابن حنبل (أحمد بن محمد ، أبو عبد الله ، الشيبانى ، الوائلى / توفى ٢٤١هـ ــ ٨٥٥م) :
المسند .
١١ ــ ابن دريد (محمد بن الحسن الأزدى / توفى ٣٢١هـ ــ ٩٣٣م) :
جمهرة اللغة .
١٢ ــ ابن الصلاح (عثمان بن عبد الرحمن « صلاح الدين » بن عثمان بن موسى بن أبى النضر الشهرزورى ، الكردى ، الشرطانى ، أبو عمر ، تقى الدين / توفى ٦٤٣هـ ــ ١٢٤٥م) :
مقدمة ابن الصلاح ، تحقيق : أ.د. بنت الشاطىء (عائشة عبد الرحمن) مطبعة دار الكتب ، القاهرة ١٩٧٤م .
١٣ ــ ابن عاشور (الشيخ محمد الطاهر / توفى ١٣٩٣هـ ــ ١٩٧٣م) :
تفسير التحرير والتنوير ــ الدار التونسية للنشر ١٩٨٤م .
١٤ ــ ابن عبد البر (يوسف بن عبد الله بن محمد النمرى ، القرطبى ، المالكى ، أبو عمر / توفى ٤٦٣هـ ــ ١٠٧١م) :
الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ــ مطبعة السعادة ، القاهرة ١٣٢٨هـ .
١٥ ــ **ابن غانم المقدسى (على بن محمد بن على ، نور الدين / توفى ١٠٠٤هـ ــ ١٥٩٦ م) :**
مصايد الشيطان وذم الهوى / مختصر إغاثة اللهفان ــ دراسة وتحقيق : إبراهيم محمد الجمل ، مكتبة القرآن القاهرة ١٩٨٣م .
١٦ ــ ابن القيم (محمد بن أبى بكر بن أيوب بن سعد الزُّرعى ، الدمشقى ، أبو عبد الله ، شمس الدين / توفى ٧٥١هـ ــ ١٣٧٣م) :
ــ مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ــ تحقيق : محمد حامد الفقى ، دار الكتاب العربى ، بيروت ١٣٩٢هـ ــ ١٩٧٢م .
ــ زاد المعاد فى هدى خير العباد ــ تحقيق :
شعيب الأرنؤوط ، وعبد القادر الأرنؤوط ، الطبعة العاشرة ، بيروت ١٤٠٥هـ ــ ١٩٨٥م .
١٧ ــ ابن كثير (اسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوّ بن درع القرشى ، **البصرى ، ثم الدمشقى ، أبو الفداء عماد الدين / توفى ٧٧٤هـ ــ ١٣٧٣ م) :**

تفسير القرآن العظيم ، بيروت ١٩٨٦م .
١٨ ــ ابن ماجه (محمد بن يزيد القزوينى ، أبو عبد الله ــ توفى ٢٧٣هـ / ٨٨٧م) : سنن ابن ماجه .
١٩ ــ ابن مسكويه (أحمد بن محمد بن يعقوب / توفى ٤٢١هـ ــ ١٠٣٠م) : تهذيب الأخلاق ، القاهرة ١٣٧٨هـ ــ ١٩٥٩م .
٢٠ ــ ابن منظور (محمد بن مكرم بن على ، أبو الفضل ، جمال الدين الأنصارى ، الرويفعى ، الإفريقى / توفى ٧١١هـ ــ ١٣١١) :
لسان العرب .
٢١ ــ أبو داود (سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير الأزدى ، السجستانى ــ توفى ٢٧٥هـ ــ ٨٨٩م) :
سنن أبى داود .
٢٢ ــ أبو رية (محمود / معاصر) :
أضواء على السنة المحمدية ، أو دفاع عن الحديث ــ دار المعارف ، الطبعة الخامسة ، القاهرة ١٩٨٠م .
٢٣ ــ أبو زيد (أ.د. أحمد / معاصر) :
البناء الاجتماعى ــ دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ١٩٦٧م .
٢٤ ــ أبو العتاهية (إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان ، أبو إسحق ــ توفى ٢١٠هـ ــ ٨٢٦م) :
ديوان أبى العتاهية ــ دار صادر ، بيروت ١٣٨٤هـ ــ ١٩٦٤م .
٢٥ ــ الأزهرى (محمد بن أحمد بن الأزهر الهروى ، أبو منصور / توفى ٣٧٠هـ ــ ٩٨١م) :
تهذيب اللغة .
٢٦ ــ إسماعيل (أ.د. فاروق مصطفى / معاصر) :
الأنثروبولوجيا الثقافية ــ الاسكندرية ١٩٨٤م .
٢٧ ــ الأشقر (عمر / معاصر) :
عالم الجن والشياطين ــ الكويت ، مكتبة الفلاح ١٩٨٤م .
٢٨ ــ الأصفهانى (أحمد بن عبد الله ، أبو نعيم ــ توفى ٤٣٠هـ ــ ١٠٣٨م) :

حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ــ دار الفكر ، بيروت ، بدون تاريخ .
٢٩ ــ الألبانى (محمد ناصر الدين / معاصر) :
سلسلة الأحاديث الصحيحة وشىء من فقهها وفوائدها ــ المكتب الإسلامى ١٣٩٢هـ ــ ١٩٧٢م .
٣٠ ــ الألوسى (محمود بن عبد الله الحسينى ، البغدادى ، أبو الفضل ، شهاب الدين / توفى ١٢٧٠هـ ــ ١٨٥٤م) :
روح المعانى فى تفسير القرآن والسبع المثانى ــ مكتبة دار التراث ، القاهرة ، بدون تاريخ .
٣١ ــ البخارى (محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة ، أبو عبد الله ــ توفى ٢٥٦هـ ــ ٨٧٠م) :
ــ صحيح البخارى .
ــ التاريخ الكبير ــ دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، بدون تاريخ .
٣٢ ــ بدر الدين العينى (محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد ، أبو محمد / توفى ٨٥٥هـ ــ ١٤٥١م) :
عمدة القارى فى شرح صحيح البخارى ــ إدارة الطباعة المنيرية ، بيروت ، بدون تاريخ .
٣٣ ــ بشير (محمد عمر / معاصر) :
جنوب السودان ، ترجمة : أسعد حليم ــ الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ١٩٧١م .
٣٤ ــ البقاعى (إبراهيم بن عمر ، برهان الدين ، أبو الحسن / توفى ٨٨٥هـ ــ ١٤٨٠م) :
نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور ــ مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد ١٤٠٣هـ ــ ١٩٨٣م .
٣٥ ــ البنا (أحمد عبد الرحمن ــ معاصر) :
الفتح الربانى لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى ، مع مختصر بلوغ الأمانى من أسرار الفتح الربانى ــ دار الشهاب ، القاهرة ، بدون تاريخ .

٣٦ ـــ البيهقى (أحمد بن الحسين بن على / توفى ٤٥٨هـ ـــ ١٠٦٦م) :
السنن الكبرى ـــ حيدر آباد ١٣٥٦هـ .

٣٧ ـــ الترمذى (محمد بن عيسى بن سورة بن موسى السلمى ، البوغى ـــ توفى ٢٧٩هـ ـــ ٨٩٢م) :
سنن الترمذى .

٣٨ ـــ الثعالبى (عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف / توفى ٨٧٣ أو ٨٧٥هـ ـــ ١٤٦٨ أو ١٤٧٠م) :
الجواهر الحسان فى تفسير القرآن ـــ تحقيق : أ.د. عمار الطالبى ـــ المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ١٩٨٥م .

٣٩ ـــ الجاحظ (عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى ، أبو عثمان / توفى ٢٥٥هـ ـــ ٨٦٩م) :
الحيوان ـــ تحقيق : عبد السلام هارون ، الطبعة الثالثة ، بيروت ١٩٦٩ م .

٤٠ ـــ الجمل (إبراهيم / معاصر) :
الحسد وكيف نتقيه مكتبة القرآن ١٩٨٢م .

٤١ ـــ الجوهرى (إسماعيل بن حماد ، أبو نصر / توفى ٣٩٣هـ ـــ ١٠٠٣م) :
الصحاح : تاج اللغة وصحاح العربية .

٤٢ ـــ الحارث المحاسبى (أبو عبد الله ـــ توفى ٢٤٣هـ ـــ ٨٥٧م) :
الرعاية لحقوق الله ـــ تحقيق : أ.د. عبد الحليم محمود ـــ دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٤م .

٤٣ ـــ الخليل بن أحمد بن عمر بن تميم الفراهيد ، الأزدى ، أبو عبد الرحمن / توفى ١٧٠هـ ـــ ٧٨٦م :
العين فى اللغة .

٤٤ ـــ الذهبى (محمد بن أحمد بن عثمان ، شمس الدين ، أبو عبد الله / توفى ٧٤٨هـ ـــ ١٣٤٨م) :
ميزان الاعتدال فى نقد الرجال ، تحقيق : على محمد البجاوى ـــ بيروت ١٣٨٢هـ ـــ ١٩٦٣م .

٤٥ ـــ الرازى (عبد الرحمن بن أبى حاتم محمد بن إدريس المنذر التميمى ،

الحنظلى / توفى ٣٢٧هـ ـــ ٩٣٨م) :
الجرح والتعديل ـــ مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد ، الهند ١٣٧٢هـ ـــ ١٩٥٣م .
٤٦ ـــ الرازى (محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمى ، البكرى ، أبو عبد الله ، فخر الدين ـــ توفى ٦٠٦هـ ـــ ١٢١٠م) :
التفسير الكبير ـــ دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، بدون تاريخ .
٤٧ ـــ الزبيدى (محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسينى ، أبو الفيض ، الملقب بمرتضى الزبيدى / توفى ١٢٠٥هـ ـــ ١٧٩٠م) :
تاج العروس فى شرح القاموس .
٤٨ ـــ الزركشى (محمد بن عبد الله بن بهادر ، بدر الدين / توفى ٧٩٤هـ ـــ ١٣٩٢م) :
البرهان فى علوم القرآن ـــ تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ـــ مكتبة دار التراث ، القاهرة ، بدون تاريخ .
٤٩ ـــ الزركلى (خير الدين / توفى ١٣٩٦هـ ـــ ١٩٧٦م) :
الإعلام ـــ دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٧٩م .
٥٠ ـــ الزمخشرى (محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمى ، أبو القاسم ، جار الله / توفى ٥٣٨هـ ـــ ١١٤٤م) :
الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل ـــ الحلبى ، القاهرة ١٣٩٢هـ ـــ ١٩٧٢م .
٥١ ـــ الزيات (أحمد / توفى/ ١٣٨٨هـ ـــ ١٩٦٨م) وآخرون :
المعجم الوسيط .
٥٢ ـــ ستيفان « Stephan (أولمان Ulmann) :
دور الكلمة فى اللغة ـــ ترجمة : د. محمد كمال بشر ١٩٦٢م .
٥٣ ـــ زيليجمان « Seligmann »(زيجفريد Siegfried) :
Der boese Bilck und Verwandts , Georg Olms

Verlag , Hildesheim . Zuerich . New york 1985)
٥٤ ـــ السيوطى (عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد بن سابق الدين

الخضيرى ، جلال الدين / توفى ٩١١هـ ــ ١٥٠٥م) :
ــ الدرر المنثور فى التفسير بالمأثور ــ دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، بدون تاريخ .
ــ تدريب الراوى فى شرح تقريب النواوى ــ تحقيق : د. عبد الوهاب عبد اللطيف ــ دار الكتب الحديثة ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٣٨٥هـ ــ ١٩٦٦م .

٥٥ ــ الشاطبى (إبراهيم بن موسى اللحمى ، الغرناطى ، المالكى ، أبو إسحق / توفى ٧٩٠هـ ــ ١٣٨٨م) :
الموافقات فى أصول الشريعة ــ شرح : الشيخ عبد الله دراز ــ المكتبة التجارية ، القاهرة ، بدون تاريخ .

٥٦ ــ الشهاوى (مجدى محمد / معاصر) :
حقيقة الحسد وعلاجه ــ مكتبة القرآن ، القاهرة ١٩٨٨م .

٥٧ ــ الشوكانى (محمد بن على بن محمد بن عبد الله توفى ١٢٥٠هـ ــ ١٨٣٤م) :
ــ نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار ــ دار الجيل ، بيروت ١٩٧٣م .
ــ فتح القدير ، الجامع بين فنى الرواية والدراية ، من علم التفسير ــ الناشر : محفوظ العلى ، بيروت ، بدون تاريخ .

٥٨ ــ الصاغانى (الحسن بن محمد بن الحسن بن حيدر ، العدوى ، الصاغانى ، أو الصغانى ، رضى الدين ــ توفى ٦٥٠هـ ــ ١٢٥٢م) :
التكملة والذيل والصلة لكتاب تاج اللغة وصحاح العربية .

٥٩ ــ الطبرى (محمد بن جرير بن يزيد ، أبو جعفر ــ توفى ٣١٠هـ ــ ٩٢٣م) :
جامع البيان فى تفسير القرآن ــ بولاق ، الطبعة الأولى ١٣٢٣هـ .

٦٠ ــ عبد الغفار (أ.د. السيد أحمد) :
التصور اللغوى عند الأصوليين ــ دار المعرفة الجامعية الاسكندرية ١٤٠١هـ ــ ١٩٨١م .

٦١ ــ غربال (محمد شفيق / توفى ١٣٨١هـ ــ ١٩٦١م) :
الموسوعة العربية .
٦٢ ــ الغزالى (محمد بن محمد بن محمد الغزالى ، الطوسى ، أبو حامد ، حجة الإسلام ــ توفى ٥٠٥هـ ١١١١م) :
إحياء علوم الدين ــ دار الصابونى ، بدون تاريخ .
٦٣ ــ الغزالى (الشيخ محمد / معاصر) :
السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث ــ دار الشروق ، القاهرة ١٩٨٩م .
٦٤ ــ الفيروز آبادى (محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر ، أبو طاهر ، مجد الدين الشيرازى ــ توفى ٨١٧هـ ١٤١٥م) :
القاموس المحيط .
٦٥ ــ قطب (سيد / توفى ١٣٨٥هـ ــ ١٩٦٥م) :
فى ظلال القرآن ــ دار إحياء التراث العربى ، بيروت ١٣٩١ هـ ــ ١٩٧١م .
٦٦ ــ كاريل « Carrel » (ألكسيس Alexis) :
الإنسان ذلك المجهول ــ ترجمة : عادل شفيق ــ الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٣م .
٦٧ ــ كَاير « Gaer » (جوزيف Joseph) :
« The wisdom of the living religions , 1956 » .
حكمة الأديان الحية ــ ترجمة حسين الكيلانى ــ . دار مكتبة الحياة ، بيروت ، بدون تاريخ .
٦٨ ــ لاشين (أ.د. موسى شاهين / معاصر) ، بالاشتراك مع د. يوسف عبد المقصود :
علوم الحديث ــ مطبعة الفجر الجديد ، القاهرة ١٩٨٥م .
٦٩ ــ مالك بن أنس بن مالك الأصبحى الحميرى ، أبو عبد الله ــ توفى ١٧٩هـ ــ ٧٩٥م :
الموطأ .
٧٠ ــ محفوظ (الشيخ على / توفى ١٣٦١هـ ــ ١٩٤٢م) :

هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة ــ دار الاعتصام ، القاهرة ١٣٩٩هـ ــ ١٩٧٩م .

٧١ ــ المراغى (الشيخ أحمد مصطفى ــ توفى ١٣٧١هـ ــ ١٩٥٢م) :
تفسير المراغى ــ دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، بدون تاريخ .

٧٢ ــ مسلم بن حجاج بن مسلم القشيرى النيسابورى ، أبو الحسين ــ توفى ٢٦١هـ ــ ٨٧٥م) :
صحيح مسلم .

٧٣ ــ النسائى (أحمد بن شعيب بن على بن سنان بن بحر الخراسانى ، أبو عبد الرحمن ــ توفى ٣٠٣هـ ــ ٩١٥م) :
سنن النسائى .

٧٤ ــ نوفل (عبد الرزاق / معاصر) :
* القرآن والمجتمع الحديث ــ دار الكتاب العربى ، بيروت ١٩٧٤م .
* الله والعلم الحديث ــ مؤسسة دار الشعب ، القاهرة ــ بدون تاريخ .

٧٥ ــ النووى (يحيى بن شرف بن مرى ، حسن بن حسين بن حزام الشافعى ، أبو زكريا ، محيى الدين / توفى ٦٧٦هـ ــ ١٢٧٧م) :
شرح صحيح مسلم ــ تحقيق : عبد الله أحمد أبو زينة ، الشعب ، القاهرة ، بدون تاريخ .

٧٦ ــ النيسابورى (نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمى / توفى ٨٥٠هـ ــ ١٤٤٦م) :
تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان ــ بولاق ١٣٢٣هـ [هامش تفسير الطبرى] .

٧٧ ــ الهاشمى (طه سليمان / توفى ١٣٨٠هـ ــ ١٩٦١م) :
تاريخ الأديان وفلسفتها ــ بيروت ١٩٦٣م .

٧٨ ــ الهيثمى (على بن أبى بكر ، نور الدين / توفى ٨٠٧هـ ــ ١٤٠٤م) :
مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ــ دار الكتاب العربى ، بيروت ، بدون تاريخ .

٧٩ ــ ول ديورانت :
قصة الحضارة جـ٢ من المجلد الأول ــ ترجمة : محمد بدران ــ الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية ١٩٧١م .

محتويات الكتاب

الفصـل الثـالث
الحسد فى الأحاديث النبوية
١٠١ - ١٣٧

الفصـل الرابـع
الحسد فى القرآن الكريم
١٣٩ - ١٨٥

رقم الإيداع
١٩٩٢ / ٢٢٠٢
I . S . B . N 977 - 00 - 2906 - 8

مطابع دار الطباعة والنشر الإسلامية - العاشر من رمضان - المنطقة الصناعية الثانية - B2 - ت : ٣٦٢٣١٣ - ٣٦٣٣١٤ (٠١٥)